نظرة في فهم التاريخ

د. سليمان سعدون البدر
جامعة الكويت

ان كلمة « تاريخ » تعنى ذلك العلم المتعلق بالانسان منذ ان بدأ في التعبير عن فكره ، ناحتا ذلك الفكر على الحجر بالكهوف والمغارات . وفي اللغة العربية ، نجد « التاريخ » أو « التأريخ » تعنى الاعلام بالوقت وما يلحق به من حوادث ووقائع ، أي انه علم يبحث عن وقائع الزمان من ناحية التعبير والتوقيت، وموضوعه الانسان(١) . واستعملت كلمة « التاريخ » في تراثنا العربي الاسلامي لتعنى أمجاد القوم وخلاصه شمائلهم كما تعنى تراجم الرجال ورواية أخبار الماضي .

وفي اللغات الاجنبية الحديثة نجد أن كلمتي History الانكليزية ، و Histoire الفرنسية ، مشتقتان من الكلمة الاغريقية Historia بمعنى التعلم . أما في اللغة الالمانية فالكلمة Geschichte تعني حوادث الماضي ، أو ذلك الذي حدث أو العلم الذي يحقق في هذا الشيء الذي حدث . ولقد استخدم فلاسفة الاغريق كلمة « التاريخ » لتعني سردا منظما لمجموعة من الظواهر الطبيعية سواء أكانت مرتبة ترتيبا زمنيا أم غير مرتبة . وحين اختصت كلمة Science لتعني « السرد المنظم للظواهر الطبيعية » دون الاعتماد على ترتيبها الزمني ، أصبحت كلمة « التاريخ » مقتصرة على سرد الظواهر الطبيعية المتعلقة بالمسائل الانسانية والمرتبة ترتيبا زمنيا . وبكلمة أخرى

اصبح معنى التاريخ « الماضي والعلم به »(٢) . ومن ناحية أخرى ، فان اللفظة تطلق تارة على الماضي البشري ذاته ، وتارة على الجهد المبذول لمعرفة ذلك الماضي ورواية اخباره ، أو العلم المعني بهذا الموضوع (٣) .

لقد عرّف بعض الكتاب التاريخ بأنه « علـم الماضي » ، غير أن هـذا التعريف فضفاض يخشى منه التأثير على خصوصية التاريخ ، ذلك لان الماضي عبارة عن وعاء يشمل كل مظاهر الكون بمختلف أشكالها والوانها ، فهو يتسع لعلم الجيولوجيا وعلم تطور الحياة وعلم النشوء والارتقاء وعلـم الفلك ... الخ . وبذلك أصـبح لكل علم صنّف من هذه العلوم علماؤه ومختصوه ومؤرخوه ، وأصبح للتاريخ مفهـوم خـاص يتعلق بالكائن البشري وما طرأ عليه في الماضي من أحداث وتطـور حضاري ومدني ، وغدت دراسة تاريخ العلم محبذا في مثل هذه الدراسة .

وطالما الامر كذلك فان الثقافات القديمة سمات متميزة تـدل بوضوح على دور الانسان الحضاري ، مثل ثقافـة العصر الشيلي Prechellean ، أو الحضـارة الشـيلية أو الآشولية Acheullean أو الموسـتيرية Mousterian أو الاوريانسية Aurgnacian ، وأخيرا ثقافة وحضارة العصر الحجري الحديث ، وما تلى ذلك العصر من ثقافات ، ولكل حضارة أو ثقافة مكان متميز في تحديد البدايات الاولى لمـا نسميه « شبه التاريخ »(٤) ، والـذي اتضحت صورته عندمـا جنح الانسان الـى الاساطير أو الخرافات « الميثولوجيا » Mythology ، وهي قصص وروايات عـن الماضين وأخبارهم وأساطيرهم . وكان التاريخ يتضمن ، بهذه الصورة ، سلسلة من الحوادث المتعاقبة على شكل معلومات عامة يستفيد منها المسؤولون والأدباء والساسة ، وكانت المعلومات التاريخية تعتمد على ثقات غايتهم الالمام بحوادث الماضي ، والاحصاء العددي لها . وبدأ تدوين هذه الحوادث ، وبخاصة البارزة منها ، مع ترتيبها ترتيبا زمنيا دون أن يحاول الانسان المؤرخ فهم هذه الحوادث فهما عقليا عميقا والتعرف على مدى تأثيرها على بني الانسان ومسيرته .

وانطلاقا من محاولة تتبع الجهد الانساني في ظهور علم التاريخ . وما بذل بصدد تطور هذا العلم والرقي به ، يحاول الباحث القاء ضوء ، من خلال هـذه الدراسة ، للتعرف على « علم التاريخ » كمحاولة لفهمه الفهم الصحيح ودراسته دراسة علميـة تقود الى نتائج يمكن الاستفادة منها في حاضرنا ومستقبلنا .

نشأة التاريخ وتطوره

ظهر التاريخ أول الامر ، **وكمرحلة أولى من مراحـل نشأته وتطوره ،** بصـورة بدائية ، على شكل قصص وأخبار كـان الانسـان القديم يرويها لابنائه ، الى جانب ما يرتبط بهذه القصص من أساطير ومعتقدات دينية . وظهرت أهمية الاحساس لدى الانسان ببعض الحوادث التي تواجهه ، فعبر عنه بالرسم والنقش علىجدران الكهف . وبذلك يمكن القول بأن التاريخ قد نشأ في مراحله الاولى على المستوى الفردي عـن طريق الرواية ، وعن طريق الرسم ، وبذلك يكون التاريخ عبارة عن ممارسة فكريـة عفوية وجدت بين الناس وانتقلت الى الابنـاء عن طريق الآبـاء ، حتى اذا اتسعت المجتمعات وظهرت القرى انتقل التاريخ من المستوى الفردي الى المستوى الجماعي وأضحى عملية مستمرة يعبر عنها بالتسجيل المتوارث من جيل الى جيل .

ومن خلال تقدم المجتمعات وتطور الانسانية انتقـل التاريخ الـى التعبير عـن سياسات ودول ، وتغير مفهومه المعبر عن الافراد الى مفهوم يعبر عن خبرة المجتمعات والظواهر العامة ، الى جانب الابقاء على شخصية الفرد عندما يكون هذا الفرد ممن ينطبق عليهم تعبير (صانعو التاريخ) ، وهم أولئك الافراد الذين يؤدون لمجتمعاتهـم أعمالا فذة في مجال السياسة والحروب والثورات ... الخ . وأصبح التاريخ مـادة علمية لا تقتصر دراستها على المؤرخين فقط بـل شملت غيرهم مـن هواة وسياسيين وأدباء وباحثين اجتماعيين .

ويعتبر التاريخ قرين الحضارة ، فهـو يبدأ مـع الخطوات الحضارية الاولـى للانسان الذي أخذ يسجل بشكل أو بآخر ما يعبر عن ماضيـه ، ويستعيد من بين ذكرياته ما يصلح أن يكون نموذجا لاعماله . وهذا العمل جهد انساني أدى في النهاية الى بداية العصر التاريخي(٥) . فالتاريخ بدأ مع الكتابة . ومنذ اكتشـاف الانسـان الكتابة اتسع نطاق فكر الانسان كما ازدادت تجاربه عن طريق التأمل والتحكم فيمـا حوله وأخذ يواجه بيئته ويتفاعل معها من أجل الانتفاع بما تجود به عليه هذه البيئة من خيرات ، وللوقوف أمام تمرضها ودرء أخطارها . وبتوصل الانسان الى الكتابـة استطاع أن يسجل ثمرات تجاربه ومعلوماته وفكره ليشكل هذا التسجيل احساسا جوهريا في سيرة الانسان الحضارية . وأصبح ما دونه الانسان سـجلا حافلا بألوان من الاحداث والافكـار والاعمـال .

كان لانسان الوطن العربي القديم الاسبقية المطلقة في هـذا الاكتشاف العظيم . ففي بلاد الرافدين اكتشف الكتابة التصويرية التي تطورت الى كتابة مسمارية ، اما في وادي النيل فقد استخدم الهيروغليفية ، كما استخدم انسان سورية مزيجـا مـن الكتابتين العراقية والمصرية . وارتبطت معرفة الكتابة ارتباطا شديدا بالعقيدة الدينية وعبر عنها الانسان خير تعبير حيث ظهرت في كـل ما حدث ويحدث لـه منسـوبة الى الآلهة ، واصبح للمعبد مكانته الاولى في المجتمع يسير اقتصاده ويوجه سياساته ويعلن الحرب أو السلم ، وتكونت لهذا المعبد القاعات الضخمة منافسا بذلك السلطة المدنية المتمثلة بالملك أو الحاكم ، الذي سعى الى اضفاء قدسية خاصة على نفسه ، فاصبح الها مقدسا لدى قدماء المصريين ، أو حاكما يستمد سلطته من الآلهة كما حصـل في بلاد الرافدين .

وبذلك يكون التاريخ قد دخل مرحلة دينية . وسيطر الفكـر الديني الممتزج بالاساطير على تفكير الانســان في منطقة الوطـن العربي القديـم . فظهرت الملاحم والاساطير البابلية والفرعونية والكنعانية والفينيقية ، وكذلك ظهرت الحوليات الدينية العادية ومنها القوائم النذريـة والقوائم التي تسجل أسماء كهنة وكاهنات المعبد وسجلات الصدقات والنذور . وهذه جميعها كتابات تعطينا صورا تتصل بالتاريخ في كثير من النواحي . كما تعبر عن ألوان من الفكر . غير انه لا يمكن الاطمئنان الى هذا الفكر من الناحية التاريخية لانها لم تكن تعبر عن الانسان وجهده وانما كانت تعبر عن الآلهة وعلاقتها بالانسان ، ومع ذلك يمكن أن نعتبرها ، الآن ، وثائق تاريخية تفيـد الباحث في التعرف على تطـور الفكر الديني وعلاقة الانسان بالآلهـة ومزج الحقيقة بالاسطورة . وبمعنى آخر . فان الانسـان القديم لم يكن يعي شيئا عن « فكرة التاريخ » . كما أن الانسان الذي دون هذه الكتابات لم يكن صاحب « وعي تاريخي » أو مدركـا للزمن أو الحقيقة كما نفهم هذين التعبيرين الآن .

وعلى صعيد آخر ، فان للرواية الشفوية التي انتقلت عن طريق التواتر عبـر القرون ، وحفظت لنا بعض الاخبار عن الماضي ، دورها في التعرف على أحوال العصور السابقة . وقد وجد المؤرخون في الرواية الشفوية مصدرا سهلا وأيسر منالا ، في التعرف على أحوال الغابرين ، وبخاصة اذا كانت كتاباتهم قد دونت أو نقشت بلغة لا يتقنها المؤرخ (٦) .

اما المرحلة الثانية لتطور علم التاريخ فانها تتمثل في الكتابة عند الاغريق ، حيث تتميز الكتابة عند مؤرخي الاغريق بأنها اتجهت اتجاها عقليا ارتبط بالانسان ونشاطاته المختلفة . ولم يخضع الفكر الاغريقي الانسان للارادة الالهية، ومع ذلك فانه ظل محتفظا بالاساطير الدينية ومعبرا عنها ، وقد عرف كتاب الاسطورة بالناثرين الايونيين . وبذلك وضع المؤرخ الاغريقي التاريخ في اطاره المكاني واطاره الزمني مع الاستشهاد بالملاحم الاغريقية التي تعبر عن أوضاع سياسية واجتماعية واقتصادية. بمعنى أن الناثر الايوني لم يكتف بالوثيقة المكتوبة أو بالرواية الشفوية المتداولة ، بل درس العالم من حوله ليضع تاريخا يكون الاقرب الى الواقع الخالي من شوائب عناصر الاسطورة والمبالغة .

وتميزت كتابات المؤرخين الاغريق بالاسلوب العلمي الذي يتناول الحدث التاريخي بالتفصيل الدقيق ، مع ابراز واضح للشخصيات التي كانت وراء الحدث . وخير ما يعبر عن هذا الاسلوب كتابات هيرودوت Herodotus (٤٨٤ ـ ٤٢٢ ق.م) والمؤرخ ثوكيديدس Thucydides (٤٧١ ـ ٤٠٠ ق.م) ، الذي أكد على استخدام الوثائق وضرورة الاعتماد عليها في البحث التاريخي ، وطبق هو نفسه هذا المنهج باخلاص في كتابه عن الحروب البلوبونيزية الذي اشار فيه الى انه يكتب من اجل الفائدة التي يمكن أن يحصل عليها من معرفة حقائق الماضي ، ومن ثم يضع مقاييس سليمة للاحداث المتشابهة والتي يمكن أن تقع مستقبلا وذلك وفقا وترتيبا على الطبيعة المشتركة بين البشر . وهو بذلك يوضح لنا فوائد دراسة التاريخ واهدافه والتي منها امكانية استنباط ما يشبه القوانين التاريخية .

ومن الكتاب الاغريق ، بوليبيوس Polybius (٢٠٣ ـ ١٢٠ ق.م) الذي أكد في آرائه على الهدف المادي للتاريخ ، واشار على المؤرخين توخي الدقة العلمية في السعي نحو كشف الحقيقة المجردة والابتعاد عن الغيبيات . وهو بذلك يستند في كتاباته الى الحقائق ويبرز دور الانسان الذي يصنع التاريخ(٧) . فالتاريخ عند بوليبيوس « يجب أن ينزه عن الاغراض التي تشوه الحقائق ، واذا ما وقف الانسان موقف المؤرخ فعليه أن يتخلى رأسا عن جميع الاعتبارات كحب الانسان لصديقه وكرهه لعدوه .... وعليه في بعض الاحيان ألا يتورع عن مدح أعدائه وذم أصدقائه . وكما أن الانسان يفقد كل قيمته اذا انتزعت منه عيناه ، كذلك التاريخ يفقد كل أهميته اذا ما انتزعت منه الحقيقة ولا يبقى الا قصة لا قيمة لها .... »(٨) .

وفي نهاية العصر الاغريقي اتجه التفكير التاريخي الى أهمية التزام المؤرخ بوحدة موضوعية تربط بين مراحل التاريخ الزمنية ، وبذلك تميزت هذه الفترة بالعمومية في كتابة التاريخ التي تخطت المفهوم السابق المتمثل بتدوين التاريخ لمراحـل متعددة . وقد بدأ هذا الاتجاه في أعقاب القرن الخامس قبل الميلاد ، حين ابتعد المؤرخ الاغريقي عن التقيد بالزمن وأصبح بامكانه أن يكتب تاريخا يمتاز بالوحدة الواضحة ، بصرف النظر عن مداها الزمني ، مستعينا بالمادة العلمية لمن سبقه من المؤرخين .

أما المرحلة الثالثة لتطور التاريخ فتتمثل عند الرومان ، حيث شـهد التاريخ تطورا أصـيلا ، فالى جانب الصيغة العموميــة للتاريخ ، بـرز الاهتمـام بالحقيقة التاريخية التي لا يرقى اليها الشك . وبذلك أصبح التاريخ لـدى الرومان تاريخـا للعالم بأسره ، وذلك بعد أن أصبحت روما سيدة العالم ومجالا للفخر والعظمة لدى الرومان الذين نظروا الى التاريخ على أنـه دراسة اجتماعية تتناول تاريخ الانسـان ممثلا في الشعب الروماني ، كما نظروا في الكون واعتقدوا بوجود قوى الهية مقدسة تعبر عن ارادة عليا وتدعم ارادة الانسان الحرة ولا تتدخل في مجرى التاريخ أو توجهه توجيها جبريا . فالآلهة الرومانية لم تكن أشخاصا بل كانت قوى طبيعية ذات وظيفة معينة ، مع ميل فيها لكي تتكون من مجردات(٩) . ويعتبر هذا الاعتقاد امتدادا لمـا كان عليه الاغريق ، ومن هنا أضرت هذه النزعة بروح البحث العميق والنقـد حيث أصبح للتاريخ قدسية التزم بها الكتاب والمؤرخون .

ويعتبر تيتوس ليفيوس من أبرز المؤرخين الرومان ، وقد اعتبره الغرب « شيخ مؤرخي روما » ، فقد كتب ليفيوس التاريخ ليدون الاعمال العظيمة ويسجل المآثـر المفيدة التي حققها الشعب الروماني ، من أجل أن يضع حقائق التاريخ أمام القارىء ليأخذ منها الصالح ويتجنب المثل السيء (١٠) .

أما المرحلة الرابعة لتطور التاريخ فتتمثل في العصر المسيحي وهو العصر الذي حدث فيه تغيير كبـير في مفهوم الكتابة التاريخية حيث خضع هـذا المفهوم لتكييف جديد نجم عن الانقلاب الذي جاء في ركاب التفكير المسيحي ، وهو الانقلاب الذي تمثل في ادخال فكرتين أساسيتين هما :

ا ـ فكرة التفاؤل بالطبيعة الانسانية .

٢ ـ فكرة وجود قيم أبدية خالدة تكمن وراء عملية التغيير التاريخي .

لقد بدلت المسيحية الفكر البشري تبديلا بالغ العمق ، ومن ثم طرأ تغيير على العديد من مفاهيم المنهج التاريخي التي شاعت في العهد الاغريقي والروماني وبخاصة حين حملت المسيحية معها ثورة جديدة من القصص والاحداث والحكم والامثال الواردة في التوراة . وفتحت المسيحية آفاقا جديدة للتاريخ على أيدي رجالها البارزين ومنهم أوغسطين St. Augustine (٣٥٤ ـ ٤٣٠ م) الذي أفسح المجال امام تصور تاريخي جديد للكون يبدأ بالخلق كما جاء في التوراة وينتهي بيوم الحشر ، وبذلك يكون التاريخ هو تاريخ البشرية كلها . وأصبحت كتابة التاريخ تتميز بصفة العموم والشمول متضمنة أخبار الكنيسة وفكرة القدرية الموجهة لاحداث التاريخ ، وانصب الاهتمام على حياة المسيح حيث جعلها المؤرخون محور الاحداث ، حتى ان اسيدور الاشبيلي استحدث في القرن السابع الميلادي تاريخ ميلاد المسيح توقيتا للاحداث التاريخية ، كما قسمت حياة المسيح الى حقب وفترات لكل منها مميزاتها الخاصة بها .

أما المرحلة الخامسة فتتمثل في العصور الوسطى حيث اتسمت الكتابة التاريخية بسمات أدت الى بعدها عن مفاهيم وأفكار العهد المسيحي الاول . ويمكن ايجاز هذه السمات على النحو التالي :

- الرجوع الى الاسلوب الذي درج عليه المؤرخون بعد الاسكندر والمتمثل في الاعتماد على المصادر الوثائقية لاستنباط الحقائق .

- اتسمت الكتابة التاريخية بفكرة القومية والاعتزاز بها والصراع بين القوميات المختلفة .

- الاعتقاد بأن التاريخ يمضي بمشيئة الهية تنظم الاحداث كلها ، فأهمل العنصر البشري واختفى النقد والتحليل وتركز اهتمام المؤرخين في دراسة خصائص الذات العليا المقدسة واقرار المشيئة الالهية .

- ظهور التراجم التي تتناول سير القديسين لتكريمهم وتقديسهم ، مما نجم عنه ظهور نوع من الكتابة التاريخية التي تدون للاسر .

- بروز عدد كبير من المؤرخين من بين رجال الدين الذين استمروا يؤرخون

حتى القرن الخامس عشر ، حيث انتقلت مهمة التدوين الى رجال القانون الذين اعتمدوا على الوثائق الرسمية ، وخصوصا الصكوك والوصايا والعقود .

اما المرحلة السادسة من تطور التاريخ فتتمثل في العصر الاسلامي ، وهو العصر الذي ازدهرت فيه المعارف والعلوم ولعب فيه العرب دورا هاما في تطور مفهوم التاريخ وتقدم العلوم التاريخية ، فكان دورهم في عصورهم الذهبية يفوق بكثير دور الامم الاخرى . فعن طريق منهجية الحديث أدخلوا في التاريخ الاعتناء بالموضوعية والتأكد من صحة الاخبار المروية . فقد نبت التاريخ في تربة علم الحديث الذي يقوم على الدقة والتحري والضبط بالنسبة للحديث المروي ، وعلى نقد الرجال ، وهو علم الجرح والتعديل(١١) ، فيما يتصل برجال السند وهم قواعد الرواية وعمدها .

وحيث أن التحليل الدقيق لنشوء مدارس التاريخ الاسلامي مسألة دقيقة لا يمكن لهذا البحث أن يلم بها ، فاننا نستطيع القول بأن التأريخ الاسلامي قد اتصف بصفات منها الاصالة والاستقلال ، اذ جاءت به حاجات المجتمع ، فجاء ملبيا لتلك الحاجات ومتصفا بخصائص المجتمع الاسلامي . ويتضح ذلك من توجيه المؤرخين منذ القرن الثاني للهجرة عنايتهم الكلية الى التاريخ العربي منذ ظهور الاسلام ، ذلك أن التاريخ الاسلامي دخل منذ ولادة الرسول (ص) في مرحلة حاسمة تستحق أن تتخذ منطلقا لبحوثهم . ويضاف الى ذلك أن المؤرخين المسلمين اعتبروا علم التاريخ متمما للعلوم الدينية وخاصة علم التفسير ودراسة أسباب التنزيل . وكذلك متطلبات النظامين المالي والقضائي ، وتشجيع الخلفاء ، والنزاع السياسي ، كل هذه العوامل مجتمعة جعلت للتأريخ عند المسلمين صفات خاصة ومميزات اقتصرت على ماهية الكتابة التاريخية عند المسلمين ، وتفوقت بها على ما عند الشعوب الاخرى من مناهج ينتظم بها المنهج التاريخي . ولهذا فان مجال التأريخ عند المسلمين واسع شاسع شمل السيرة والمغازي ، والطبقات ، وفتوح البلدان ، وتواريخ البلدان ، والتراجم والتواريخ العامة(١٢) .

لقد شكلت مقدمة ابن خلدون(*) منعرجا حاسما في كيفية فهم الانسان لتاريخه وتقييمه له وما يرجو من كشف لا عن ماضيه فحسب بل عن تطور الجنس الذي ينتمي اليه ومصيره . وبذلك فتح ابن خلدون في مقدمته أبواب الاجتماع والاقتصاد

(*) ابن خلدون (١٣٣٢ ـ ١٤٠٦ م) ، هو عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي ، من أبرز المؤرخين وعلماء الاجتماع ، اشتهر بكتابة « العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر » .

والمؤسسات وضروب الثقافات والعلوم أمام التاريخ . ويذكر ابن خلدون في مقدمته : « .... حقيقة التاريخ انه خبر عن الاجتماع الانساني ، الذي هو عمران العالم ، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الاحوال ، مثل التوحش والتأنيس والعصيان وأصناف التغلبات للبشر بعضهم ببعض وما ينشأ عن ذلك من الدول ومراتبها وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث في ذلك العمران من الاحوال ...... »(١٢) . فموضوع التاريخ اذن لا ينحصر بما حدث من الفتوحات والحروب ، وما توالى من الدول والملوك في الازمنة الغابرة بل يشمل كل ما حدث من التحول في الحياة الاجتماعية على اختلاف أنواعها وفي المؤسسات الاجتماعية ، ذلك أن الاخبار المتعلقة بالاحوال الاقتصادية والصنائع والعلوم تدخل جميعها في نطاق موضوع التاريخ .

كما يقول ابن خلدون في مقدمته : « .... فان فن التاريخ من الفنون التي تتداولها الامم والاجيال وتشد اليه الركائب والرحال ، وتسمو الى معرفته السوقة والاغفال ، وتتنافس فيه الملوك والاقيال ، ويتساوى في فهمه العلماء والجهال ... وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومباديها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق ، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق .... »(١٤) . ويريد ابن خلدون بذلك القول أن يجعل من التاريخ اداة كشف عن سير الانسان وتطوره الاجتماعي، وعن خروج هذا الانسان من مرحلة « التوحش » الى « التأنيس » بفضل الصراع من أجل تخطي العقبات التي تعترض السبيل نحو أنسية أكمل عن طريق الرقي المستمر الناشىء .

وبكل هذا يصبح التاريخ في رأي ابن خلدون استكشافا كليا لتطور الانسان ، وبالتالي سعيه للكشف عن العوامل الاساسية التي تؤثر في سير الوقائع التاريخية وتعمل على استنباط القوانين العامة التي تتطور بموجبها الامم والدول(١٥) ، وبالتالي توصل الانسان الى فهم وضعه في هذا الكون ومحاولة ادراك مصيره العاجل والآجل . وهذا يؤدي الى ان يتناول علم التاريخ أمور التطبيق والاسلوب والنظرية ، وعدم الاكتفاء بالمنهج فقط .

أما المرحلة السابعة فنستطيع القول بأنها المرحلة التي استعاد بها الغرب دوره القديم وذلك خلال عصر النهضة الاوربية(١٦) ، حيث نلمس تطورا هاما في علم التاريخ، اذ اتسم التاريخ في هذه المرحلة بعدة مميزات تجمع بين المناهج السابقة ومفاهيم حديثة متطورة . ويمكن ايجاز هذه المميزات على النحو التالي :

— بدأ التاريخ يفقد طابعه الديني ، وسيطر المذهب العقلي على الكتابات التاريخية

فاستبعدت المعجزات والخرافات ، وأصبح المؤرخ يعتمد على النقد والتحليل ، ويهتم بالتثقيف السياسي أكثر من اهتمامه بالقاء المواعظ . كما برزت الدراسات الوثائقية بكل وضوح ، فقد استطاع الراهبان فالا ومابيون بعد نجاحهما في دراسة الوثائق ان يفتحا الباب على مصراعيه أمام دراسة اصول علم الوثائق . الذي عرف باسم الباليوجرافيا Paleography ، ووظيفته دراسة الخطوط والكتابات القديمة ، وتفرع عنه علم النقوش المعروف باسم الابيجرافيا Epigraphy ، ووظيفته دراسة النقوش والرسوم على الاحجار وغيرها ، وتفسيرها ، واستخراج المادة التاريخية منها ، ومن ثم أدى ذلك الى وجوب معرفة أنواع المادة المستعملة في التدوين كالورق والرق والبردي ، والمواد الاخرى كالخشب والقماش والزجاج والمعادن وغيرها . وقد ارتبطت حركة البحث عن الوثائق والعناية بها في أوربا بنمو الشعور القومي (١٧) ، كما أدى الاهتمام بالبحث عن الماضي الى ظهور علم الآثار Archaeology ، ووظيفته دراسة التركة الاثرية للانسان عبر العصور الماضية ، وما تمثله هذه التركة من أبنية وأشياء مصنعة أو ادوات أو نقش ، وهي جميعها تعكس حياة الانسان اليومية الى جانب ما تحمله من فكر انساني اعتنقه الانسان ومارسه عبر مختلف العصور ، وبدرجات متفاوتة ، خلال تطوره الاقتصادي الى الاجتماعي والسياسي والديني .

- تركز اهتمام التاريخ حول الدولة بوصفها المحور الرئيسي الذي ينبغي أن تدور حوله الاحداث ، وابتعدت الكتابات التاريخية بالتالي عن دراسة الكونيات . واستعان حكام الدول بالادباء لتدوين تاريخ دولهم ، فبرز الاسلوب الادبي في الكتابات التاريخية ، ولا سيما في ايطاليا التي سبقت الدول الأخرى الى عصر النهضة .

- أهمل المؤرخون الشعب والجماهير كموضوع حقيقي للتاريخ ، وتركز اهتمامهم على بلاط الملوك والامراء والحكام وعظماء الرجال ، وأصبح المؤرخون في الصفوف الاولى من رجال الدولة ، ومن هذه الامثلة فولتير في فرنسا ، وكلارندون بانكلترا .

ويلاحظ الباحث أن علم التاريخ قد خطا خطوات واسعة على امتداد هذه المرحلة ، من عصر النهضة حتى وصل الى صورته الحالية في القرن العشرين .

وإذا انتقلنا الى المرحلة الثامنة من تطور مفهوم التاريخ ، وهي المتمثلة في

عصرنا الحالي ، نجد أن علم التاريخ في العصر الحديث قد تميز باتصال المؤرخ اتصالا عفويا بالجماهير . ويمكن تتبع هذا التطور على النحو التالي :

آ ـ ظهور حركة « الاستنارة » أو « التنوير » في التاريخ The Enlightenment ونهضة البحث التاريخي خلال القرن الثامن عشر ، وقاد هذه الحركة أو المدرسة الجديدة في التفكير التاريخي فولتير ، وهيوم(١٨) . ويقصد بالاستنارة تلك الجهود التي اتسمت بها مقدمات القرن الثامن عشر والتي استهدفت تطبيق الثقافة العلمانية في كل ميادين الحياة الانسانية والتفكير ، وهي في واقعها ثورة على الدين الذي كان يعتبر قيدا على النشاط الانساني ، فهي جهاد ضد سيطرته وسلطانه ، وغايتها تحرير الانسان من كل قيد على فكره وتصرفاته . ويمكن ايجاز أهم مظاهر هذه المرحلة على النحو التالي :

ـ الالتزام بفكرة البحث التاريخي ، الذي أصبح مدخلا قويا للتاريخ العلمي .

ـ ظهور جماعة اليسوعيين في بلجيكا التي سعت الى تأريخ حياة القديسين على حقيقتها وتقويم الاساطير من خلال نقد وتحليل الوثائق والاصول . وقد شجع هذا الاتجاه على بروز جماعة «الباحثين» الذين وجهوا كل اهتماماتهم الى نقد الوثائق بحيث أصبح هذا النقد فنا له أصول وقواعد .

ـ انتشار النزعة العلمية في التأريخ في فرنسا وغيرها مما شجع الباحثين على زيادة اهتماماتهم بالوثائق وحفظها في أماكن خاصة في معظم أقطار أوربا .

ب ـ ظهور كتاب ديكارت Discours de la Methode الذي أصبح منهجه قاعدة للباحثين ، وشجع المؤرخين بالتالي على استبعاد كل شواهد التاريخ القائمة على أساس العقيدة وحدها ، وأصبح الشك هو الاساس العام للدراسة والسبيل الوحيد للوصول الى المعرفة .

ومن مميزات هذه المرحلة أن أصبح المؤرخ يهتم بالاحداث من خلال الوثائق والظروف المحيطة بعد مناقشتها ونقدها ثم عرض نتائجها في أسلوب أدبي .

جـ ـ ومنذ أوائل القرن الثامن عشر أخذ التاريخ يستقر على قواعد واصول فنية علمية خرجت به ـ شيئا فشيئا ـ من مجال الادب والفلسفة والتأملات وأساطير القديسين ، ومدائح الملوك الى أرض العلم الصلبة ، وولد علم التاريخ في الغرب .

وقد ارتبط مولد علم التاريخ في الغرب بأسماء مشهورة منها : دوشن Duchesne الذي كتب تاريخا للكنيسة الكاثوليكية ، وبالوز Baluze ومابيلون Mabillon ومونفوكون Montfaucon . أما ادوارد جيبون Edward Gibbon ١٧٣٧–١٧٩٤ فيعتبر من أعظم المؤرخين وأساتذة علم التاريخ على مر العصور ، ومن أشهر مؤلفاته كتابه عن « تاريخ سقوط الدولة الرومانية » ، وقد عاصر فولتير ، ومونتسكيو [١٩] وجان جاك روسو [٢٠] وغيرهم من أعلام ذلك العصر ، ويرى العديد من المؤرخين أن جيبون صاحب مدرسة في التاريخ مثل رانكه ، وانه ارتفع في التاريخ الى مستوى لم يعرفه الغرب من قبل . ومما هو جدير بالذكر أنه من المؤرخين الغربيين القلائل الذين قدروا التاريخ الاسلامي .

ومن أعلام المؤرخين في عصر التنوير آدم سميث ١٧٢٣ – ١٧٩٠ الذي يعتبر مؤسسا لعلم الاقتصاد بعد نشره كتابه المشهور « ثروة الامم Wealth of Nations » وهو كتاب تاريخي لفت فيه الانظار الى اهمية العوامل الاقتصادية في سير التاريخ ، حيث كشف عن أهمية العامل الاقتصادي في بناء الدول والجماعات ، وقد سبق كارل ماركس في هذا الاتجاه .

ان مؤرخي القرن الثامن عشر ، وعلى راسهم جيبون (١٧٣٧ – ١٧٩٤ م) قد لفتوا أنظار الناس الى اهمية دراسة التاريخ دراسة علمية موضحين قيمته الكبرى كدراسة انسانية أصيلة ، وبالرغم من ذلك فانهم لم يصلوا الى تثبيت أقدام التاريخ كعلم له أصول ومناهج بحث ، حتى ان جيبون نفسه كان يعتقد ان التاريخ ضرب من الادب ، وقال عنه انه . . «أشهر ضروب الادب The most popular of all Forms of Literature» وهي عبارة أنكرها عليه مؤرخو القرن التاسع عشر انكارا شديدا . كما يؤخذ على مؤرخي القرن الثامن عشر عدم اهتمامهم بتطوير الانسان ومجتمعه ، وظلوا ينظرون الى انسان عصرهم وكأنه نفس انسان العصور القديمة دون التعرف على تطور عواطفه أو سلوكه . ولهذا فانهم لم يستطيعوا أن يصلوا بالتاريخ الى مرتبة العلوم التي تدرس في الجامعات .

أما في **القرن التاسع عشر** فيبدأ المؤرخ اتصاله الجماهيري ، فلم يعد يركز على الدولة أو على طائفة معينة . كما اتصف البحث التاريخي بالموضوعية ، فحاول المؤرخ الوصول الى النتائج والحقائق بأسلوب علمي مبتعدا عن الروايات الفردية أو المثيرة ، أو الاكتفاء بسرد الوقائع ، وقد أدى ذلك الى أن يصبح التاريخ دراسة انسانية تتصل بالحياة البشرية عموما في شتى مجالاتها وأنشطتها من خلال تناول الحياة اليومية للمجتمعات .

كما حدث تغيير حاسم على وضع التاريخ والنظرة اليه في هذا القرن الذي تميز بتزاحم الاحداث الضخمة التي أحدثت ثورة حقيقية في كل ميادين العلوم تقريبا ، فانتقل التاريخ من نطاق الهوايات أو الآداب الى نطاق العلوم ذات الاصول والمناهج . وتتمثل ثورة التاريخ في القرن التاسع عشر في التطور الشامل في علم التاريخ التي تزعمها المؤرخون الالمان ، وتعرف بمدرسة برلين ، وقائدها ليوبولدفون رانكه (٢١) ؛ رغم أنه سبقهم مؤرخون اوربيون واشتهر منهم جيماباتيستا فيكو Gimabathista Vico ١٦٦٨ ــ ١٧٧٤ ، وهو من مشاهير عصر التنوير . وهو أول من نظر من علماء الغرب الى التاريخ العالمي نظرة فلسفية ، كما فعل ابن خلدون قبله بنحو ثلاثة قرون ، وقد قسم فيكو التاريخ الى حقب ثلاث :

(١) **حقبة آلهية :** أي العصر الذي كان الناس فيه يردون كل الحوادث الى صنع الآلهة .

(٢) **حقبة بطولية :** كان التاريخ فيها سردا لاعمال عظماء التاريخ .

(٣) **حقبة انسانية :** وقد انتبه المؤرخون فيها الى أن التاريخ الحقيقي هو الذي تصنعه الجماهير والشعوب (٢٢) .

ويعتبر المؤرخ يوهان جوتفريد هيردر Herder ١٧٤٤ ــ ١٨٠٣ مؤسس المدرسة الالمانية في علم التاريخ، وكان أديبا ولاهوتيا ،ومن أهم كتبه التاريخية « آراء في فلسفة تاريخ البشر « Ideen zur philosophie der egeschichte der menschheit »
ثم رسالته المسماة :
« Auch eine philosophie der geschichte zur bildung der menschheit »
وكذلك فلسفة التاريخ في بناء الانسانية (٢٣) .

اما في **القرن العشرين** فقد تقدمت المدارس التاريخية ، وتطورت مناهجها . ويعتبر هذا القرن ، الذي شهد التفجر الثقافي والتطور الكبير في جميع مجالات العلوم، أحد المعالم الشهيرة في تطور التاريخ . ففي هذه المرحلة تبلور المفهوم العلمي للتاريخ ، وظهرت القوانين التاريخية ، كما اكتمل منهج البحث التاريخي بجميع عناصره ، منهيا بذلك الجدل الذي احتدم طويلا في القارة الاوربية ، وبخاصة في ألمانيا وانجلترا ، بين الفلاسفة والمؤرخين من مؤيدين ومعارضين للمبدأ القائل بأن « التاريخ علم » .

انتقل علم التاريخ في هذه المرحلة من فرع ثانوي من المعرفة يمارسه بعض الكتاب والسياسيين كوسيلة للتقرب الى الله برواية أخبار الصالحين أو التزلف الى الملوك

والزعماء بكتابة تراجمهم ، الى علم مستقل له أصوله ومنهجه وعلماؤه ومختصوه ، كأحد أسس المعرفة الانسانية . كما انبثقت عنه علوم أخرى مكملة ، كالآثار ، والخطوط والكتابات القديمة ، وعلم النقوش ، وعلم الوثائق والمحفوظات ، وغيرها من العلوم التي احتلت مكانة خاصة بين العلوم الاخرى ، واصبح علم التاريخ يستعين بأحدث اكتشافات الكيمياء والفيزياء والجيولوجيا ، كما انه في سبيل استخدام الاجهزة والعقول الالكترونية كي يمتد أكثر فأكثر في جميع مجالات المعرفة الانسانية .

ويعتبر كروتشه(٢٤) وكولنجوود(٢٥) ، وتوينبي ، وشبنجلر ، وماركس ، وهنري بيرين Henri Pirenne ١٨٦٢ — ١٩٣٥ ، من أشهر فلاسفة التاريخ في عصرنا ، فقد وصل التاريخ على أيديهم الى مرتبة العلوم ذات الوظيفة والشخصية المستقلتين ، أي ان التاريخ علم بالمنهج ، تنطبق على دراسته مناهج البحث العلمي من حيث استقصاء المادة ، ودراستها وتحليلها تحليلا دقيقا قبل استخلاص الحقائق التاريخية . وعندما قال : ب. بيوري B. Bury « التاريخ علم ، لا أكثر ولا أقل History is a science, no more, no Less » فتح باب النقاش واسعا حول هذا الموضوع ، فقال بعض المؤرخين ان التاريخ لا يسير على قوانين ولكنه يسير على منطق ، فلكل حادث أسبابه وتطوراته ونتائجه المنطقية . وهذا يوحي بأنه ليس من غاية التاريخ تجريد نواميس Nomologique (قوانين) ، أي أنه ليس علما تجريبيا ، كما يعني أن التاريخ لا تكرار فيه لانه علم الانسان قبل كل شيء وهو حركة مستمرة ، ولا يسمح بأن تكون له قواعد وقوانين مجردة كقوانين العلوم .

ولا يتسع المجال هنا لمناقشة جميع الآراء حول علمية التاريخ (٢٦) ، وانما يمكن الاكتفاء بالمحصلة النهائية لهذا النقاش الذي يقول : ان التاريخ وان لم يكن من العلوم الناموسية ، فليس معنى ذلك حتما انه ليس بعلم ، فهو علم بهدفه ، وهو ككل العلوم يسعى وراء الحقيقة ، وهو علم بمنهجه الذي لم يفتأ على مر العصور يتطور ويزداد احكاما . ومهما يكن الامر ، فانه ليس من الضروري كي يكون العلم علما أن يميط اللثام عن كل خفية ودقيقة ، بل يكفي أن يبلغ الحقيقة بقدر الامكان .

اما عن ماهية القوانين التاريخية فان ماركس يرى أن التاريخ تحكمه قوانين يدركها العقل الانساني ، وهذه القوانين حتمية ، أي أنها تفرض نفسها لانها ناتجة عن حركة التاريخ نفسه ، واذا أدرك الانسان هذه القوانين ، استطاع أن يقرر صورة مستقبل الجماعة الانسانية ، وان هذه القوانين ليست مثل قوانين العلوم البحتة ، وانما هي حقائق متعلقة بطبيعة العمل والانتاج ، وطريقة توزيع الثروة بين المواطنين ، فالثروة تنتج عن العمل ، والعمل يقوم به من يعملون بأيديهم او بعلمهم ومواهبهم ، وان ثمرته لا بد أن تعود حتما على أولئك العاملين أنفسهم .

ويقول ماركس ان الاحوال أو الاوضاع الاقتصادية لاي جماعة هي التي تحدد صورة نظامها وكل مظاهر حضارتها ، واذا أردنا أن نفهم نظام أي مجتمع ونطاقه السياسي ، أو حتى طبيعة عقيدته الدينية واتجاهه الفني والفكري ، فلننظر أولا الى نظامه الاقتصادي ، وأساس النظام الاقتصادي هو الانتاج ونوعه وأساليبه وطريقة استعماله أو توزيع ثمراته . والانتاج نفسه ، سواء أكان يدويا بدائيا أم آليا متطورا ، لا يظل دائما على مستوى واحد وأسلوب واحد ، فهو يتطور دائما ، أو على الاقل هو متطور باستمرار في أدواته وصورته وطريقة توزيعه . وهذا التطور للانتاج ، أي الوضع الاقتصادي ، مستمر مهما كان بطيئا ، وتطوره هذا هو الذي ينتج عنه تطور المجتمع الذي يقوم عليه ، وكل نظمه وقوانينه ، وما يقوم على ذلك كله من أفكار وعقائد وآداب وفنون ، وكل ما يسميه الماركسيون المظهر الخارجي للمجتمع .

كما تتميز هذه المرحلة بتبلور فكرة « التاريخ الكلي » ، الذي يدعو الى دراسة العصر من كل نواحيه : السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية والحضارية لتغطية جميع مجالاته التاريخية . ومن أبرز المؤرخين في هذا المجال المؤرخ هنري بيرين Henri Pirenne ١٨٦٢ ــ ١٩٣٥ ، والمؤرخ جورج ليفبور George Lefebore ١٨٧٤ ــ ١٩٥٩ ، فقد عني الاول بالناحية الاقتصادية كجزء من الاطار العام للحقائق التاريخية ، ويعتبر من افضل من طبق « التاريخ الكلي » . أما الثاني فقد سار على المنهج الدقيق الذي يلتزم الاصول بكل دقة ، وقد قال بأنه لا تاريخ بلا وثائق .

اما توينبي (٢٧) فهو يحتل مكانة بارزة بين مؤرخي هذا العصر ، فقد اثبت حقيقة استمرار التاريخ ، وان الماضي والحاضر يربطهما بالفعل رباط حقيقي لا شك فيه . كما انه يعتقد بدراسة عامة شاملة وصل كل منها الى قمته في صورة حضارية قائمة بذاتها ، فالتاريخ الاسلامي في نظره ، تجربة واحدة خلاصتها هي الحضارة الاسلامية، فالحضارة لا التاريخ القومي هي وحدة الدراسة التاريخية (٢٨) .

لقد كان للعديد من المؤرخين الفضل في تطور التاريخ كعلم انساني يدرس الانسان في حاضره ، ويمتد لتجاربه في الماضي ، في ظل الزمان والمكان التي تمت فيه ، والقاء الاضواء عليه ، لعل معرفتنا بالماضي تمكننا من فهم الحاضر ، ومن ثم النظر للمستقبل من خلال دراسة موضوعية تساعدنا على التخطيط لمستقبل أفضل . فقد كان لاولئك المؤرخين الفضل الاكبر في جعل التاريخ علما مستقل الشخصية ، واضح المنهج والطريقة ، وأثبتوا أن التاريخ هو من الدراسات الاساسية في المعرفة الانسانية ، وأبعدها أثرا في تكوين العقل الواعي المدرك لحقائق الحياة .

كان للنهضة الاوربية أثر كبير في تطور جميع العلوم ، وقد حظي التاريخ بنصيب وافر من هذا التطور ، حيث امتزج التفكير العلمي بدراسة التاريخ ، مما أدى الى تطور مفهومه وأسلوبه ومنهجه ، فاحتل في القرن الماضي مكانة مرموقة بين العلوم الاخرى ، وأصبح العصر الحالي يتميز بعصر العلوم وبالعقلية التاريخية . لقد بذل المؤرخون جهدا شاقا في نقل التاريخ من حكايات وأساطير الى دراسات وحركات فكرية . فالتاريخ بمفهومه الحديث لا يقتصر على أخبار وأساطير الماضين ، بل هو يدرس التجربة الانسانية ، أو جوانب منها ، ولا يسعى الى فهم الانسان وطبيعة الحياة على وجه الارض . والانسان كل لا نفهمه ما لم نعتن بحياته الاقتصادية والاجتماعية والتشريعة والسياسية والعقائدية والادبية والفنية والعقلية ، عامة ، وغير ذلك مما يكونه ويكون بيئته وماهيته . فبيئة الانسان هي جميع مايحيط به ويؤثر فيه . وعلى الرغم من ان لكل كائن بيئته ، الا ان بيئة الانسان اكثر اتساعا من بيئة النبات والحيوان. فقد استطاع الانسان بذكائه وعلمه ان يوسع دائرة بيئته بفضل ما استخدمه من اساليب المواصلات الحديثة وتغلبه على ظروف البيئات التي لاتناسبه ، فقد سكن الارض من مناطقها الاستوائية الحارة الى قطبيها المتجمدين ، وخرج من نطاق الارض ليصل الى الكواكب الاخرى ، ويحاول الانتفاع بها الى اقصى حد ممكن .

حققت المعارف الانسانية في العصر الحالي ما يمكن أن نسميه ثورة في علم التاريخ ، تناولت مادته ومناهجه واهدافه ، وتبعها اتساع في فروع التاريخ ، فشملت تواريخ العلوم ، والفكر ، والفنون ، والتطورات الاجتماعية ، والاقتصادية ، والتواريخ المقارنة وغيرها . كما ان التاريخ لم يعد ملكا للشعوب الحضارية القديمة فقد دخلت فيه جميع الشعوب . واستعان منهجه بالعديد من العلوم المساعدة ، منها الجغرافية ، والجيولوجيا ، والفيزياء . . . ، وبمعطيات العلوم والبحوث الجديدة ، ومعطيات العلوم التقنية ، واتخذ من الشعوب والبيئة والمجالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في حياة الانسان منطلقا وموضوعا .

ان حركة التجديد التي شملت مفهوم التاريخ ومناهجه قد أخرجته من المرويات وأساطير الاولين ، واستخدامه كوسيلة للوعظ والتوجيه الفكري والسياسي ، وأدخلت عليه مناهج البحث والاستقصاء ، ومدت نطاقه من الماضي ليشمل الحاضر والمستقبل ، وجعلت منه دراسات فكرية واجتماعية واقتصادية وسياسية . ولم تعد أهدافه تنحصر في العظة والعبرة ، انما اتسع ليشمل دراسة تطور حياة الانسان بمعناها الشامل ، والسجل الطويل للمجتمع الانساني للاستفادة من تجارب الانسان في الماضي ونتائجها في الحاضر ، ومن ثم المساعدة في التخطيط لمستقبل أفضل .

ويعتبر التاريخ حوارا بين الماضي والحاضر . حوارا بين الاجيال ، وحوارا بين الانسان والزمان ، وحوارا بين المؤرخ والقارىء . فالتاريخ بلا شك هو التجربة المدونة للجنس البشري ، والانسان يستطيع ان يستفيد من التجربة في أي ميدان من ميادين المعرفة .

فالتاريخ يدون حياة الامم وتجاربها وخبراتها التي هي ثمرة التفاعل بين الانسان وبيئته . فهو يحققها ويوضح الترابط والعلاقات بينها ، كما يبرز التطور الذي طرأ على حياة الامم من حيث مسبباته ووسائله ، والوقوف على الاسس التي تتحكم في تلك الظروف ويمهد السبيل للتغيرات المرتقبة ، كما ينشد معرفة الظروف التي تؤثر في الاتجاهات المختلفة التي تظهر في أوقات شتى . وهذا يتطلب دراسة ومتابعة التفاعل الدائم بين المجتمع والثقافة والمصادر الطبيعية . والمجتمع بما يتضمنه من بشر في اطار من علاقات قومية واجتماعية واقتصادية وسياسية وروحية ، والثقافة التي تتمثل في الجانب الذي صنعه الانسان من بيئته سواء أكان معنويا أم ماديا . ثم المصادر الطبيعية التي تمثل جميع الظروف في البيئة من أرض وبحار وماء وشمس وهواء وحيوانات ونبات وثروات طبيعية . فالانسان في تفاعل مستمر مع بيئته في جميع مكوناتها المادية والاجتماعية أو العقلية أو النفسية التي تحيط به وتؤثر فيه ويتأثر بها ، فهو جزء منها . وعليها تتوقف حياته ، فهو يستمد منها جميع مقوماته . ان التفاعل بين الانسان وبيئته مستمر لا ينتهي الا بنهاية حياته ، بل انه يستمر من الناحية المادية بعد نهاية حياته ولكنه لا يدخل في اطار خبرته (٢٩) ويقول سانتيا : « .... يجب الا نخلط بين معنيين للتاريخ : أولهما سياق الحوادث كما تقع فعلا وثانيهما مشهد هذه الاحداث الذي يلتقطه المؤرخ ويضمنه كتابه » (٣٠) . وبعبارة أخرى ينبغي التمييز بين « التاريخ History » كمسيرة للانسانية ، و « علم التاريخ Historiography » كفاعلية انسانية . فعندما نكتب التاريخ ، فاننا نسجل تجربة الانسانية ، وهذه التجربة لا زالت سائرة متصلة الحلقات . والتاريخ على هذا يشمل الماضي والحاضر والمستقبل ، ونحن عندما ندرس الماضي فاننا في نفس الوقت ندرس الحاضر والمستقبل ، فالتاريخ هو سجل الماضي ، وصورة الحاضر ، والمرشد الى الغد .

والتاريخ بمفهومه الحديث يكتبه أولئك الذين يعتقدون انه ليس قسما من « العلوم الادبية » ، وانه ليس مجرد قصة طريفة مفيدة مسلية ، بل هو « فرع من العلوم » . وهذا العلم كغيره من العلوم الحديثة ، هو نتاج نهضة القرن التاسع عشر الى حد كبير . فالتاريخ ليس أحداثا تعبر الزمن ، ولكنه ممارسة فكرية وجهد

تكويني يدون حياة الامم وتجاربها وخبراتها ويحققها ويوضح الترابط والعلاقات بينها .

فمهوم التاريخ قد تطور فيوقتنا الحاضر تطورا كبيرا ،فأصبح علما له شخصية مميزة وغايات يسعى اليها ، وله مناهج البحث الخاصة به ، ويحتل مكانة مميزة بين العلوم الانسانية ، فهو المرآة التي تعاكس شخصيات الامم والاسس التي يقوم عليها حاضرها ومستقبلها . وهو مجموعة الاحداث التي وقعت في الماضي وظروفها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، والتي نحصد نتائجها في الحاضر ، ثم التنبؤ على هدى ذلك وفي ضوئه بما سوف يقع مستقبلا .

ومتى ما استقر الراي على أن التاريخ هو علم له شخصية مميزة وغايات يسعى اليها فانه لا بد أن يكون لهذا التاريخ بناء منطقي ليشمل عالم الانسان . لذا فقد ارتبطت كل نظرية في التاريخ بنظرية الانسان والزمان ، فالانسان هو العنصر الاساسي في حركة التطور الشامل وما يجري من حوادث لن يكون لها من قيمة ما لم تتفاعل مع الفكر الانساني وتؤثر في وضع الانسان وتوجه مصيره ، أما الزمان فهو تلك المرحلة التي يمر بها الانسان فاعلا ومتفاعلا ، وبذلك أصبح للتاريخ سبل متشعبة ومسارات متفاوتة ومتى أصبح عمل الباحث الربط بين التأثير والتأثر وبين الاسباب والنتائج فان التاريخ يبرز لنا خبرات انسانية متعددة ، فاكتساب الخبرة بحد ذاتها ، يتوقف على عدد من العوامل منها ذكاء الانسان وقدرته على ادراك العلاقات ، أسلوب تفكيره ، شدة انفعالاته ، قوة دوافعه ... مضافا الى ذلك كله تجاربه السابقة « المكتسبة » والظروف النفسية والاجتماعية المحيطة به .

مسارات التاريخ ومحاوره الرئيسية :

ان حركة التاريخ مستمرة ، وهي في تغير دائم ، سواء في حجمها أو شكلها ، أو آثارها ، أو تأثراتها ، أو في زمانها ، كما أنها متعددة الخطوط والاتجاهات والاعماق، ويتفاعل العديد من العوامل في صياغتها . فهل هذه الحركة تسير اتفاقا في الكون ؟ وهل لها وتيرة واحدة ؟ وهل لها فلكها المحدود ؟ وما دور الانسان والزمان في المسيرة التاريخية ؟ ومن يوجه هذه المسيرة ؟ هل هي الصدفة ؟ أم جدلية المتناقضات ؟ أم المثالية ؟ أم المادية ؟ أم الميتافيزيكية ؟ أم التحدي والاستجابة ؟ أم الهزات النفسية ؟

ان الاجابة على هذه الاسئلة تشكل جوهر الفلسفة التاريخية .... وقد حاول بعض المؤرخين تحديد فلسفة التاريخ فيمعان رئيسة ثلاث : أولها انها تعنى بالنظريات العالية المستوى الخاصة بالتيارات التحتية ، أو القوى الاساسية للتاريخ باعتباره

حقيقة موضوعية (هي الماضي) ، وثانيها النظرة العامة الانسانية والمفهومات الاساسية أيضا التي يأتي بها المؤرخ ، أو تأتي بها مدرسة من المؤرخين متعلقة بالمشاكل التاريخية التي يعالجونها متضمنة النظريات الخاصة بتعليل الحوادث او مفهوم التقدم وما الى ذلك ، وثالثها انها تستعمل مرادفا على وجه التقريب للمنهج التاريخي Historical Methodology أي العملية الفعلية التي يسلك المؤرخ شعابها .

هذه هي المفاهيم الرئيسة أو الافكار الرئيسة التي تناولها كبار المؤرخين والفلاسفة على مدى قرون طويلة تبلورت في القرن الاخير في مدارس متميزة واتجاهات فلسفية مختلفة . وبعبارة أخرى ، يمكن القول بأن أصل فلسفة التاريخ ترجع الى كيفية تفسير الاحداث التاريخية ، وعلاقة ذلك بالكون ، وكيفية التوصل الى القوانين التي تحكم تلك الاحداث ودور الانسان في كل ذلك .

وفي ضوء ما سبق يمكن ايجاز التطور الكبير الذي حدث في مفهوم التاريخ واسلوبه ومنهجه بمراحل حاسمة ثلاث ، اعتبرها البعض ثورة في علم التاريخ ؛ ابتدأت المرحلة الاولى مع بداية العصر الاغريقي حوالي القرن الخامس قبل الميلاد ؛ حيث حدث تغير كبير في مفهوم علم التاريخ ، وظهرت الفكرة التي تنادي بأن التاريخ علم كسائر العلوم ، أو ضرب من ضروب البحث العلمي بعد أن كان عبارة عن قصص وأساطير ومعتقدات دينية ، ولقد استمر هذا الاتجاه في العصرين الاغريقي والروماني مبتعدا عن قيود الاساطير الدينية . فكان بمثابة « ثورة » تاريخية ، في مفهومه وكتابته ، والاعتماد على الوثائق في كتابة التاريخ وتدوين الاحداث .

أما المرحلة الثانية فقد حدثت في القرنين الرابع والخامس الميلاديين ، حيث خضعت فكرة التاريخ لمفهوم جديد نتيجة للانقلاب الكبير في مفهوم التاريخ الذي جاد في التفكير المسيحي .

وقد حدثت المرحلة الثالثة في عصر النهضة الاوربية واستمرت في مفهومه وأسلوبه ومناهجه حتى اكتملت الصورة العلمية للتاريخ وأصبح له مناهج بحثه الخاصة في العصر الحالي ، الذي تميز بالانفجار الثقافي وتطور العلوم في جميع مجالاتها .

وكيفما كان الحال فاننا سنفرد أفكارا تلقي الضوء على منجزات أبرز المؤرخين والفلاسفة في مجال التاريخ ، وتطور أسلوبه ومنهجه ومن ثم ظهور المدارس التاريخية والفلسفية المختلفة في العصر الحديث .

الانسان وفلسفة التاريخ (٢١) :

ان معظم اجتهادات المذاهب والفلسفات التاريخية لم تحدد الاجابة الكاملة عـن العلاقة بين الآلهة وبين الطبيعة ، بما فيها القوى المادية والانسان ، في مسيرة التاريخ واقامة الحضارات . وبعبـارة أخرى تحديد ماهية العلاقة بين الآلهـة والطبيعة في صـنع التاريـخ .

فالتاريخ هو علم الانسان في حياته وأحواله الدائمة التغيير ، فهو ينطلق مـن الماضي ، ويمتد في الحاضر ، ويرخي سدوله على المستقبل ، فهو علم تطور الانسان بلا انقطاع على مدى الزمان ، والتاريخ ليس أحداثا تعبر الزمـن ، ولكنـه ممارسة فكرية وجهد تكويني يتميز بميكانيكية العمليـة التاريخية التـي تتصف بالشـمول والاستمرارية في اطار المعرفة التاريخية وطبيعتها وحدودها .

ولكي نفهم الانسان يجب الاهتمام بحياته الاقتصادية والاجتماعية والتشريعية والسياسية والعقائدية والادبية والفنية والعقلية عامـة ، وغير ذلك مما يكونه ويكون بيئته وماهيته . فالانسان هو محور فلسفة التاريخ ، وهو ليس مجرد مركب معقد من الكهربات (الالكترونات) والبرتونات ، أو جعبة نفسية مملوءة بالدوافع النفسية. ولكنه مخلوق معقد الى حد عجيب ولا يمكن تحليله تحليلا عمليا . لقد وجد الانسان في بيئة لا تفي بحاجاته جميعا مما حتم عليه العمل المستمر لتحسين أحواله . ويرى العديد من الفلاسفة أن الرغبة في تحقيق هذا الهدف هي غاية كل الوجود الانساني ، وغاية سعي البشر منذ القدم . ويرى محمد اقبال(٢٢) أن مهمة الانسان ، أن يسهم في أعمق مطامح الكون من حولـه ، وأن يقرر شكل مصيره هـو ومصير الكـون ، تـارة بتكييف نفسه حسب قوة الكون ، وتارة ببذل كل طاقته لصياغة قوى الكون بالشكل الذي يتفق واهدافه (أي أهداف الانسان) وغاياته .

ان الذات الانسانية قد أوجدت نوعا من التوتر في تفاعلها مـع المحيط المادي ، الذي كان ولا يزال يسيطر على فكر الانسان وارادتـه ، وجعل كثيرا مـن المفكرين يعتقدون أن البيئات المادية هي التي تفرض شكل مصير بني الانسان ، وممن تزعموا هذا الاتجاه : بكل راتسل **Buchele Ratzel** ، وكوميت(٢٣) Comete ، وسـبنسر Spencer ، والان دربير Alan **Draper** ، وأخذوا يبحثون عن القوانين التي تحكم هذا الاتجاه بعيدا عن دور العنصر البشري في ذلك . وقد أدى تأكيدهم على العالـم المادي الى تجريد التاريخ من صفته البشرية . وهذه النظرية تستند الى حد كبير على النظرة الجغرافية للتاريخ التي ترى أن كل الاعمال التي يقوم بها الانسان ، أفرادا

أو جماعات ، طبقات أو شعوبا انما يقومون بها دفاعا عن سعادتهم ، أي عن حياتهم . وحماية لانفسهم من الالم . ولاجل بلوغ هذه الغاية لابد للانسانية من أن تبذل الكثير من الجهد ، وهذا يدفعها الى العمل فتقهر العالم المادي ، وبذلك تخطو خطوة الى الامام في طريق التقدم . ويرى محمد اقبال انه ينبغي في نفس الوقت ان يقترن هذا التقدم بسيطرة المبادىء الاخلاقية على قوى الطبيعة . . . والتاريخ مليء بالامثلة التي تشير الى أن التقدم والقوة التي لا تقيدها الاخلاق تصيب العالم بهزات عنيفة قاسية .

ان صلة الانسان بالتاريخ وفهمه له تطور تطورا كبيرا منذ ذلك الوقت الذي لم يكن فيه سوى ضرب من الميثولوجية ، او قصص واساطير الاولين . فقد طرأت تغييرات جذرية على العلاقة الجدلية التي تربط انسان اليوم بتاريخه ، حين أصبح المؤرخ يبحث عن اسباب الاحداث واسرارها الدفينة،مما ادى الى اهتمامه بالجماهير والظواهر التاريخية ، وجميع الظروف المحيطة بها بعد ان كان يقصر اهتمامه على القادة والاحداث البارزة .

الزمان وفلسفة التاريخ : أثار الفلاسفة عدة أسئلة حول مفهوم الزمان . ما المقصود بالزمن ؟ هل له بداية ؟ ما أبعاده ؟ وما نهايته ؟

ان أصحاب النظرات الدينية ربطوا الزمان بالخلق الاول ، وبمصير الانسان في الدنيا ، وبنهاية يرتبط بها حساب وعقاب وثواب ، ومن أبرز ممثلي هذا الاتجاه فيلون (٢٥ ق.م – ٥٠ م) بالنسبة لليهودية ، ثم القديس أوغسطين (٣٥٤ – ٤٣٠م) بالنسبة للمسيحية (٣٤) وابن خلدون المتوفى (٨٠٨ هـ) بالنسبة للاسلام .

أما علماء الفلك والانثروبولوجيا الفلسفية ، وعلماء الحياة ، ومن حذا حذوهم من المؤرخين المتاثرين بالعلوم الفيزيائية والطبيعية ، فقد ربطوا الزمن بأحداث فلكية بمعزل عن كل المعاني الدينية . ومن ابرز ممثلي هذا الاتجاه رينان (١٨٢٣ – ١٨٩٢)، وأرنست هيجل(٣٥) (١٨٣٤ – ١٩١٩) . ويرى بعض المؤرخين أن التاريخ علم « متزمن » ، لان التاريخ علم تقوم قاعدته الاساسية على الزمن . كما انه يسير في فلك ذي ثلاثة حدود يتمثل في الانسان ، والمكان ، والزمان . والانسان هو الكائن الوحيد الذي يعي الزمان (ماضي ، حاضر ، مستقبل) ، فالزمن التاريخي يتصف بديمومة متصلة الحركة تمتاز بالتغيير المستمر والتنوع ، أو ما يسمى بالحس التاريخي . فالتاريخ ، لانه صورة الانسان ، لا يرتبط بالزمن فقط بل ان ارتباطه بالمكان لا يقل عن ارتباطه بالزمان .

وتعتبر هذه الخطوة هامة في الانتقال من الكتابة التاريخية المعروفة ، في سرد الحوادث سردا قصصيا مع ذكر زمانها ومكانها الثابتين الى التفسير الفلسفي للتاريخ الذي يفسر الحوادث تفسيرا منطقيا ويحاول فضلا عن ذلك أن يكتشف القانون الذي ينظم هذه الحوادث ويحاول أن يجد في حدوثها معنى يعطي لحوادث الماضي تسلسلا منطقيا ، وينير الحاضر ويضيء بعض جوانب المستقبل (٣٦) .

الفلسفة ومسار التاريخ ، حاول المؤرخون وفلاسفة التاريخ منذ القدم تفسير مسيرة التاريخ ، فاستعانوا بالماضي في محاولة لثقب حجب المستقبل ، وكان التفسير السحري (الميتافيزيقي) للتاريخ من أقدم التفاسير التي استندت الى عامل واحد من هذه العوامل ، وقد تطور هذا الاتجاه في العصور الوسطى في صورة التفسير اللاهوتي . كما برز التفسير الفردي (البطولي) للتاريخ الذي يأخذ بعامل الفرد البطل الذي يقوم بأعمال خارقة في صنع التاريخ . ومن هذه الاتجاهات أيضا التفسيرات الطبيعية للتاريخ والتي تطورت الى الصورة التي عرفت (بالمادية التاريخية) التي تعرف بـ (العلمية) . ان معظم اجتهادات المذاهب والفلسفات لم تحدد الاجابة الكاملة عن العلاقة بين الآلهة والطبيعة والانسان في صنع التاريخ . فمنذ زمن بعيد بدأ الانسان يرفض فكرة اعتبار « المصادفة » قوة محركة في الكون ، واخذ يجتهد لكي يكتشف « القانون المسير » الذي يعبر هذا الكون عن وجوده تعبيرا ملموسا ، وقد خطا بذلك خطوات واسعة في تطوير فلسفة التاريخ .

وكانت الخطوات الاولى في محاولة المؤرخين الانتقال من مجرد تسجيل الحوادث تسجيلا بسيطا الى أسلوب تاريخي علمي بنوا فيه كل حادثة على أخرى ، كما شرحوا كل واقعة بواقعة أخرى ، وحاولوا تفسير وربط العلاقة بينها . الا أن هذا الاسلوب لم يوضح الا ظواهر منفصلة ، ربما تعتبر أجزاء من « قصة الكون » . ويقول محمد اقبال :

« ان هذا الكون كون قابل للاتساع والامتداد الى مدى غير محدود ، اذ ربما يكمن في أعماق كيانه حلم مولد جديد ، ان الكون ذو غاية ، بمعنى واحد فقط هو المعنى الذي يدل على انه انتخابي بطبيعته ، وان طريقه للاتيان بشيء جديد هو العمل الدائب على حفظ الماضي واضافة شيء اليه »(٣٧) .

ان الفلسفة حول علاقة التاريخ بالمستقبل ليست حديثة ، فقد ظهرت من أوائل القرن التاسع عشر ، وانتشرت واحتدمت قبل الحرب العالمية الثانية بصفة خاصة ، وازدادت احتداما في السنوات التي تلتها . والسبب في ذلك هو القلق الذي أخذ يساور

مفكري الغرب عندما شعروا فجأة أن حضارتهم ليست في مأمن من أن يصيبها ما أصاب الحضارات السابقة ، وان الغد ليس حتما مضمونا . ويمكن ايجاز أبرز الآراء التي تناولت مسار التاريخ على النحو التالي :

- **الاتجاه القائل بأن للتاريخ مسارا واحدا** ، أي النمط الخطي المسترسل التصاعدي أبدا كخط مستقيم ، وبروح مطلقة . ويعتبر هيجل (١٧٧٠ - ١٨٣١) أبرز فلاسفة هذا الاتجاه ، فهو يرى أن للتاريخ مسارا واحدا ، ويسير وفق خطة معينة ، ومهمة الفيلسوف هي معرفة هذه الخطة ، وان التاريخ هو تحقيق الغاية التي أرادها الله من وراء الخلق . ويتفق هيجل في ذلك مع ابن خلدون (وقد نبعت فلسفة كل منهما من تجاربه الخاصة في ظل الظروف التي عايشها) واعتمد تفسيره على الماورائية الفلسفية الدينية المسيحية .

يدلل هيجل على نظريته بنوع خاص من الجدل أو الحوار يسمى عادة باسم Dialektik وعن طريق هذا الجدل وصل هيجل الى القول بأن « العقل » أو « الفكر الانساني » يسعى دائما نحو التقدم ليصل الى « العقل أو العلم المطلق » الذي يعتبره مثالا يحتذيه (٣٨) . ومن هنا يوصف هيجل بأنه مثالي ، ويعتبر في طليعة المثاليين الالمان . وتتميز فلسفته بالصفاء والاستعلاء والقرب الى المذهب الجماعي في الحكم . ويمكن ايجاز أفكاره في هذا المجال على النحو التالي :

- ان الجماعات الانسانية تسعى للانتقال من حالة الهمجية والوحشية الى مستوى الدولة ذات النظام والقانون ، والذي لا بد أن ينتهي يوما الى تحرر البشر جميعا وعيشهم في سلام في ظل القانون ، ويقوم التاريخ الصحيح على تأدية الامم للرسالة الانسانية ، فلا يكون تاريخ أمة جزءا من تاريخ العالم الا اذا كانت تلك الامة في أثناء تاريخها هذا تؤدي رسالة (٣٩) .

- على الذين أنشأوا الدولة أن يستعملوا القوة والعنف ليلزموا الناس بطاعة القانون قبل أن يصلوا الى النظام والقانون من تلقاء أنفسهم ، ولا يستطيع جميع الناس أن يصلوا الى ذلك في نفس الوقت .

- الايمان بالفكر أو العقل المطلق الذي يسير الاحداث في الكون ، ويعتبره مثالا أو مثلا أعلى .

- ان فلسفة التاريخ هي التاريخ منظورا اليه بذكاء .

ـ ان التاريخ ، بناء على ذلك ، انما هو عملية طويلة مقدرة بقدر Vorsehungs Prozesse يأخذ فيها كل حدث أو ظرف مكانه ومبرراته على ضوء مسار التاريخ في مجموعه .

وقد اهتم هيجل اهتماما خاصا بالتطور الانساني للدولة متفقا بذلك مع رانكه الذي قال ان الدول أفكار الله Gottes Gealanken ، ويريد بذلك أنها تقوم بتقدير الله سبحانه (٤٠) . ويقول هيجل ، أن الصيرورة ليست متروكة للمصادفة والاسباب العارضة بل هنالك « ارادة مخططة » وراءها ، وان هدف هذا الصراع والتوفيق انما هو تطوير « روح العالم »(٤١) ، التي تتجه دائما نحو غايتها ، ألا وهي تحقيق الذات Self realization . كما يقول ان تفسير التأريخ هو بيان لعواطف البشر وعبقرياتهم وقواهم الفعالة التي تقوم بدورها على مسرح العالم الكبير . وأن الصيرورة التيتقررها المشيئة السامية المهيمنة والتي تعرفها تلك العواطف والعبقريات والقوى الفعالة ، هذه الصيرورة تكون ما يسمى بخطة المشيئة العليا(٤٢) . وتتبلور الفكرة الفلسفية حول البحث عن القوى العامة التي تحرك مسار التاريخ عند هيجل بالنظر الى التاريخ أو العملية التاريخية Geschichte Prozesse ـ كما سماها هيجل ـ على أنها عملية صعود منطقي الى مستويات عقلية أو فكرية جدلية Dialektische Stifen تنتهي آخر الامر الى تحقيق ما تقصد اليه القوة العليا المدبرة لشؤون الكون Weltgeist من توحيد العالم في كل واحد Weltganz يعيش في حرية وأمان . كما يرى هيجل اننا نستنتج مجرد استنتاج من تاريخ العالم أن تطوره كان دائما صيرورة عقلية (حركة فكرية متقدمة نحو الاعلى) ، وان هذا التاريخ قد أنشأ الطريق المنطقي الضروري لروح العالم . تلك الروح التي تكون طبيعتها دائما واحدة لا تتغير .

وتعرف فلسفة هيجل أيضا بفلسفة المتناقضات ، وتتلخص في أن التطور انما هو نتيجة صراع المتناقضات على أساس أن كل ظاهرة تحتوي تناقضا داخليا يدفعها الى الامام ويؤدي بها آخر الامر الى تحطمها وتحولها الى شيء آخر . الا أن تحطم ظاهرة ما انما هو الفرصة لانبثاق ظاهرة جديدة تدفع بلا شك الظاهرة السابقة . ولكنها في الوقت نفسه تحتوي في ذاتها على كل عناصرها الفعالة . وبهذه الطريقة يتحول النظام الفلسفي (٤٣) الى نظام آخر .

ويأخذ المؤرخون على آراء هيجل انها ترضي الفيلسوف . أو العقل الانساني ، لكنها لا تعين الانسان على تفسير الحركة الدائمة للتاريخ . كما أن هيجل وغيره من المثاليين يقولون ان الفكر هو الذي يوجه التاريخ ، لانهم هم أنفسهم كانوا جزءا من

النظام القائم ، وكانوا قادة الفكر فيه ، وتفكيرهم كله تأييد له ولاوضاعه ، ومن العسير عليهم أن يتصوروا أنهم في حملة الصورة الخارجية لنظام الجماعة . كما اشتهر هيجل بمناصرته للدول والنظم الرأسمالية التي سادت الغرب في أيامه .

الاتجاه القائل بأن الظروف المادية للمجتمعات هي التي تحرك التاريخ ، المادية التاريخية (Historical Materialisn)

يعتبر كارل ماركس Karl Marx (١٨١٨ ـ ١٨٨٣) أبرز فلاسفة هذا الاتجاه، ويرى أن الاوضاع المادية للمجتمعات ، وأحوال الملكية ، وصراع الطبقات بعضها مع بعض ، هي العوامل التي تدفع حركة التاريخ كله . وهذا هو ما يسمى بالتفسير المادي للتاريخ . كما ان ماركس يعترف بوجود عواطف الايثار ، والحماس الديني ، والوطنية ، وغيرها بين الخصال المثالية ، ولكنه يردها بدورها الى الاوضاع الاقتصادية وأثرها المباشر أو غير المباشر على العقل الانساني .

ويعتبر العديد من المؤرخين أن المحاولة الماركسية من أبرز محاولات تفسير الافكار التطورية في محيط العلوم الاجتماعية، وكان لها أكبر الاثر في كثير من النواحي، في السياسة ، والاقتصاد ، والتاريخ ، والاجتماع ، والنقد الادبي ، وحتى في بعض العلوم الطبيعية . ومن أشهر الكتب في ذلك « المذهب المادي والنقد الاختباري والتجريبي » ، وهو كتاب أقرب الى مذهب اليقينية واللباقة الذهنية منه الى الاسهام في نشر المعرفة . وترى المدرسة المادية ان الانتاج المادي لجماعة ما هو الذي يحدد صورة نظامها الاجتماعي والسياسي والفكري بصورة عامة ، فليس وعي الناس هو الذي يحدد صورة حياتهم ومستواها الاجتماعي ، بل العكس هو الصحيح .... صورة حياة الناس ومستواهم الاجتماعي هما اللذان يحددان درجة وعيهم .

ويقول ماركس ان الاحوال أو الاوضاع الاقتصادية لاي جماعة هي التي تحدد صورة نظامها ، وكل مظاهر حضارتها في المجالات السياسية ، والدينية ، والفنية ، والفكرية ، وان أساس النظام الاقتصادي هو الانتاج ونوعه وأساليبه ، وتوزيع ثرواته .

ويعتبر ماركس ، وفريدريك انجلز ، وسان سيمون ، وهم قادة المدرسة المادية، ان التاريخ يتلخص في صراع مستمر بين العاملين (من زراع وصناع) ـ أو بين ما يسمى بالطبقة الثالثة Tiers - etat ـ والطبقتين الممتازتين المستفيدتين من جهود العاملين ، وهما طبقة النبلاء (الملوك ورجال الاقطاع) ، وطبقة كبار رجال الدين أو

الاكليروس ، وسان سيمون هو أول من تنبه الى أن صراع المصالح الاجتماعية ، أو مصالح الطبقات الاجتماعية ، هو السـبب الرئيسي في الحركة التاريخية ، وهو اول من تنبه الى حرب الطبقات وحرب المصالح ودورها الكبير في حركة التاريخ . وقـد ربط ماركس النظرية الهيجلية لتعاقب النماذج الحضارية مع الكفاح من أجل البقاء(٤٤)، وكانت النتيجة تفسيره للتغيير في التاريخ على أساس تقرره المادية ، أي ان السيطرة على طرق الانتاج تقرر أية طبقة ، ومن ثم اية نماذج فكرية ، يمكن أن تسود في فترة مـا . غير أن الصراع المستمر بين الطبقات يجب أن يوصل في النهايـة الى انتصـار البروليتارية (طبقة العمال) . وتتلخص فلسفة ماركس في أن الانسان يجب أولا أن يأكل ويشرب ويتخذ مسكنا ولباسا قبل أن يستطيع أن يبحث عن سياسة أو دين أو علم او فن وما سواها . ويرى أن تاريخ المجتمع منـذ وجد وحتى الان هـو تاريخ صراع طبقات ، بين الدهاقين والاقنان ، والنبلاء والعامة ، وبين السادة والعبيد ، وبين أرباب العمل والصناع (٤٥) . وبكلمة واحدة بين ظالم ومظلوم . ويؤكـد ماركس أن العامل الاقتصادي هو العامل الوحيد الذي يقرر الكيان الاجتماعي لأية أمة ، وان كل الجوانب المختلفة من حياة البشر تتخذ شكلها وفقا للظروف الاقتصادية التي تكتنف فترة معينة ،وبذلك فهي مدينة بوجودها تماما الى العوامل الاقتصادية .وما المجتمع الاقطاعي والمجتمع البرجوازي « الطبقة الوسطى » الا امثلة لتلك النتيجة الجماعية لعقد العلاقات الانتاجية ، وكل منها يرسم خطوة هامـة في التطور التاريخي للجنس البشري . ويرى ماركس أن التغيير المادي للاوضاع الاقتصادية للانتاج هو التغيير الاساسي ، وان هذا التغير المادي تغيير حقيقي يمكن تقديره بدقة علمية . أما التغير في الاشكال القانونية والاوضاع السياسية والدينية والفكرية والفلسفية فهـو تغير مظهري ، اي في الاشكال الظاهرية ، التي تسمى في مجموعهـا بأيديولوجية النظـام القائم . وهي نتيجة لا سببا ، وطبقة علوية خارجية Super Structure وليسـت أساسا . وبصورة أخرى فان ماركس اهتم بالجانب المادي من الحيـاة والنظر الـى المحيط كعامل في حوادث التاريخ ، ومن ثم اشراك العامة في موكب التاريخ ، وتعتبـر آراء ماركس رد فعل معاكس ضد الآراء التي سادت قرونا طويلة وجعلت من بعض الافراد ، ملوكا وأبطالا ، يغيرون وجه التاريخ .

وبعد ظهور الماركسية أنكر بعض المؤرخين أن يكون للفرد دور حقيقي يذكر في التطور التاريخي ، وان الدوافع الحقيقية في ذلك التطور تكمن في الجماعات وما يحدث في حياتها من تغير . فالجماعات هي الاعماق التي تتكون في صلبها التعاريج العظمـى التي تغير وجه الكون . والهزات التي يرتجف لها من حين لحين .

الاتجـاه القائل بأن التاريخ يسـير على شـكل دوائر يفضي بعضها الى بعض ،

ويعتبر فيكو (١٦٦٨ ــ ١٧٤٤) أبرز فلاسفة هذا الاتجاه ، فقد أعطى فيكو تصورا جديدا للتاريخ العالمي يعرف بالمفهوم العالمي . وتتلخص آراء فيكو التي أثبتها في كتابه « العلم الجديد » في قيام الدول وسقوطها ومحاولة البحث عن أسباب القيام والسقوط ، ويرد ذلك الى عوامل بيولوجية ، وهو بذلك يتفق مع ابن خلدون في تشبيهه للدول والحضارات بالنباتات والحيوانات ، بقوله ان لها أعمارا لا بد أن تمر فيها ، فالبيئة الاجتماعية من صنع الانسان وتصلح لتكون أساسا لفهم التاريخ ، ويؤخذ عليه انه اتسم بقبوله للخرافات وعكس ذلك على فهمه التاريخي (٤٦) .

وكان لامبرخت من أوائل من فكروا في البحث عن سر التاريخ ، عن طريق تحليل عدد من الحضارات والبحث عن العوامل التي سببت قيامها وهبوطها ، واستنباط المعاني من ذلك التحليل ، أو ما يسمى بدلالات التحليل الحضاري .

Kulturmor Phologische Geschi Chts Deutungen

ويرى شاردان أن مصير كل حضارة الى فناء وزوال ، وهي وان بادت وزالت الا أن الانسان باق وهو في ارتقاء وتقدم من أجل بناء حضارة جديدة . وقد تساءل شاردان عن امكانية التعرف على غد الانسان عن طريق دراسة وفهم علم التاريخ .

الاتجاه القائل بأن التاريخ يسير في دوائر مقفلة ، ويعتبر أوزفالد شبنجلر Oswald Spengler (١٨٨٠ ــ ١٩٢٣) أبرز فلاسفة هذا الاتجاه . ويرى شبنجلر ان قيام الحضارات ونموها ووصولها الى القوة ، ثم انحدارها ، يشبه العملية البيولوجية للكائنات الحية من تطور عضوي Naturhafte Prozesse ، متفقا بذلك مع ابن خلدون حيث يقول ان الحضارة تمر بعصور انشاء ، ونضج ، وانحدار ، أي ان الاستجابة الابداعية تصل الى ذروتها ثم تتوقف ، بمعنى أن موت الحضارة لا مفر منه . ويعرف هذا الاتجاه بالنمط الدوري، على أساس أن للتاريخ حلقة أو جملة حلقات متناهية زمانا ومكانا ، منفصلة بعضها عن بعض ، تمثل كل حلقة منها حضارة ، من يوم نشوئها عند ابتداء الحلقة الى يوم نهايتها الحتمية عند انغلاق الحلقة ، أي تدهورها ، ومن ثم سقوطها . فكل حضارة اذن حلقة لها بداية ونهاية ، حلقة متناهية تمر بأطوار أربعة : التكوين ، فالنمو ، فالجمود ، فالانحلال ، والاضمحلال ، أي انها تشبه الكائنات الحية ، فهي تولد وتموت . وقد أصبحت فلسفة شبنجلر حافزا لبعض المؤرخين للاتجاه الى العمل العلمي في دراسة التاريخ وفقا للمنهج التاريخي دون البحث عن قواعد عامة في التاريخ ، لعل ذلك يساعدهم على الخروج بنتائج تكون أكثر فائدة بالنسبة للفكر الفلسفي من المحاولات المضنية لتقنين مسار التاريخ .

الاتجاه التجريبي في اطار النمط الدوري لتحديد مسار التاريخ ، ويعتبر ارنولد توينبي Arnold Toynbee ابرز فلاسفة هذا الاتجاه (٤٧) . فقد حاول من خلال فحص الحوادث لا أن يوصف الماضي ، بل أن يستنتج منه عبرة وفلسفة ، وجملة من القوانين التي تسير الكون ، وتدفع التيار البشري ، وترسم الخط البياني لما سيكون عليه الغد . وقد وضع توينبي في صدارة دراسته العوامل الفكرية والروحية ، خلافا لما كان يفعله ماركس من تقديم العوامل المادية على غيرها . وهذا الاتجاه الذي يرسمه توينبي لا يعتبر جديدا في حد ذاته ، فهو يتفق في معظمه مع ابن خلدون . الا أن توينبي لا يكتفي بالمشاهدة كي يصل الى نتائج تفرضها التجربة فرضا ، وتنتهي الى تصور عام لغاية التاريخ ومصير الحضارات(٤٨) .

لقد اتجه توينبي بالدراسات التاريخية اتجاها يتسم بالتوسع والشمول ، واجتهد في أن يتحقق مما اذا كان للتاريخ مسار معين يمكن التعرف عليه ولو على وجه التقريب ، ومعنى ذلك انه وجه اهتمامه الى ما يسمى أحيانا بما وراء التاريخ Metahistory أي البحث عن القوى أو العوامل أو المناهج التي تسير التاريخ(٤٩) .

يرى توينبي أن كل الحضارات التي درسها مرت بأطوار متشابهة في النمو واستمرار التقدم ، وزيادة القوة ، ثم تعقب ذلك مرحلة من المصاعب الداخلية والخارجية يليها تصدع العناصر التي قامت عليها قوة هذه الحضارة ، وربما انتهى الامر بتفككها أو تصدعها ، ويعقب ذلك تحولها الى دولة عالمية Universal State , اي ان عناصر قوتها تتفرق في الشعوب التي كانت منها كما حدث مثلا بالنسبة لدولة الرومان .

كما يرى أن لا خير ولا شر في اضمحلال الحضارات ، لان تجاربها لا تذهب سدى بل تنتقل الى غيرها ، وتكون نقطة بداية لتجربة جديدة أو عنصر من عناصر قوتها . ويقول توينبي ان التاريخ لا يعرف حضارة تزول تماما ، وانما الذي يحصل في الغالب ان الحضارة بعد أن تتم دورتها على يد أمة من الامم وتجمد او تتحجر Petrifies تتفكك وتنتقل عناصرها الى أمة أو أمم جديدة لتقوم حضارة أو حضارات جديدة .

وقد استعان توينبي بفكرة «التحدي والاستجابة Challenge and Response» اثناء دراسته للامم التي اختارها موضوعا لدراسته ، واعتبرها مفتاح نظرته العامة للتاريخ . ويرى أن المجموعات البشرية تقودها دائما جماعات من القادة او أصحاب الرأي، وهؤلاء هم الذين يقودون الجماعة في استجابتها للتحدي ، ويحددون نوع هذه الاستجابة بحسب ملكاتهم . فاذا كانت استجابتهم قائمة على ابتداع الوسائل التي تمكن الجماعة من التغلب على المصاعب التي تواجهها والسير الى الامام كانت هذه

الجماعة موفقة ، وسار تاريخ الجماعة الى الامام ، لان استجابتهم كانت ابتكارية أو ابتداعية Creative Reponse . ولا تزال الامة في صعود وتقدم ما دام قادتها محتفظين بالقدرة على الاستجابة الابتداعية . فاذا عجزوا عن ذلك أخذ سير الجماعة كلها يتلكأ ويتراخى وربما توقف . وقال بعد ذلك انه من الممكن أن تستمر الحضارة في الحياة اذا استمرت في الاستجابة الابداعية وانه بامكان الانسان أن ينفلت من الجبر وأن يوجه تاريخه في الطريق المناسب .

ونموذج آخر يراه توينبي ، كلما زادت قسوة الارض على ساكنيها زاد كفاح أهلها للتغلب على صعابها(٥٠) .

الاتجاه الى البحث عن قواعد وقوانين تحكم مسيرة التاريخ . نجد هنا أن الفلسفات التاريخية قد تعددت حول مفهوم هذه المسيرة التي تعتبر في حركة دائبة ، فمن فلاسفة التاريخ من يرى أن التاريخ في تقدم مستمر ، ومنهم من اتجه الى وضع مسيرة التاريخ في دوائر مقفلة يفضي بعضها الى بعض ، ومنهم من يرى أن مسيرة التاريخ مرهونة بالارادة الالهية ، فابن خلدون يرى أن القدرة الالهية هي التي تسير التاريخ ، ويقول بهذا الصدد : « ... وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع ، وسائر ما يحدث من ذلك العمران بطبيعته من الاحوال ... »(٥١) . و « طبيعة الاحوال » هذه يعتبرها ابن خلدون القانون الذي بمقتضاه يسير التطور الضروري الذي هو سنة من سنن الله في الكون .

ومن فلاسفة التاريخ من اجتهد في البحث عن القوانين التي تحكم هذه المسيرة ، حيث يرى ماكس(٥٢) Max أن فلسفة التاريخ بدات حول فكرة هي « ان التاريخ يحكمه قانون » حتى لو كانت المصادفة هي هذا القانون . وهنا يجدر القول بأنه عند الاخذ باعتبار المصادفة قانونا يحكم التاريخ ، فان فلسفة التاريخ لا مجال للبحث فيها، ذلك لان حركة التاريخ لا تخضع للحوادث العمياء التي لا يقيدها نظام ، بينما النظم الفلسفية لها خطواتها واتجاهاتها واسلوبها نحو تطور الروح المطلقة التي تتوصل الى ادراك ذاتها بشكل فلسفة محددة في كل حقبة من حقب التاريخ .

كما أن فكرة البحث عن قواعد وقوانين تحكم مسيرة التاريخ ما هي ، لدى بعض المؤرخين ، الا مسألة نسبية . وقد ظهر هذا الاتجاه في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي حيث نادى جورج زمل(٥٣) بالبحث عن تحديد مفهوم القوانين التاريخية ، وحاول التوصل الى هذا التحديد ، وقدم في سبيل ذلك جهدا كبيرا يمكن ايراده بايجاز بأن القانون هو قضية تعبر عن العلاقة الثابتة بين مجموعة من الوقائع حدثت

فعلا ثم تتلوها بالضرورة وقائع لا تختلف عنها أبدا . ولتقرير هذه العلاقة لا بد من الفصل بين الوقائع السابقة والوقائع اللاحقة من ناحية . وبين طبيعة العوامل ومجرى الاحداث من ناحية أخرى . واذا نظرنا الى الاحداث التاريخية وجدناها في غاية التعقيد والتركيب والاشتباك بحيث يصعب جدا استخلاص علاقات ثابتة تربط بين هذه الاحداث ، كما هو الحال في الظواهر الفيزيائية . وهذا يفسر أنه من المستحيل على المؤرخ أن يقرر وجود روابط أو علاقات ثابتة بين الاحداث التاريخية بحيث تقع النتائج بالضرورة كلما توفرت نفس الاسباب ، ولذا لا نجد في التاريخ حوادث متشابهة تماما. والحادث التاريخي الواحد لا يتكرر ابدا(٥٤) .

ويرى زمل ان هناك أسلوبين للتفسير العقلي للاحداث التاريخية ، يعتمد الاول على تحليل الحدث الى عناصره الاولى بحيث يقود هذا التحليل الى اعداد قواعد وقوانين للمسيرة التاريخية . أما الاسلوب الثاني فيأخذ بعملية التركيب بين المعاني والعناصر ، حتى يشكل هذا التركيب تركيبات أصلية واضافات هي عبارة عن مجموعات تندرج فيها الاحداث وتبدو كأجزاء لا يمكن تحليلها لما هو أصغر منها ، أي ان عملية الاستقصاء والتحري تصل الى مداها(٥٥) .

ومع ذلك فهناك العديد من المسلمات والفرضيات التي يؤمن بها المؤرخون كبديهيات في خلفياتهم الفكرية ، دون أن يخضعوها للنقد أو التعبير عنها من وجهة النظر الاخرى . ومن النادر أن نجد باحثا من الباحثين في فلسفة التاريخ يناقش أيا من هذه المسلمات التي يمكن أن نشير الى بعضها على النحو التالي :

- وحدة الطبيعة البشرية من حيث التكوين ، فالجنسيات والقوميات لا ترسم بينها فروقا جوهرية ، كما ان الاختلاف بين البشر من حيث العرق أو الثقافة أو البيئة أو الاجتماع هي اختلافات أرجعتها بعض النظريات الى جذور اقتصادية أو فكرية . . .

- تعقد الطبيعة البشرية ، حيث ان وحدة الطبيعة البشرية ليست بسيطة التكوين فهي معقدة ، وهذا التعقيد لا يوازيه الا تعقد التفاعلات التي تكون بينها وبين العوامل البيئية المؤثرة على طبيعة البشر . ومن محصلة هذه التفاعلات بين الانسان وبيئته يتشكل منظور التاريخ ومجرياته .

- ان الاهتمام بدراسة تاريخ الانسانية وتفهمه ، بما فيه من تجارب وأفعال وخبرات ، هو من المسلمات المقبولة كقاعدة لتشكيل المعرفة التاريخية .

- ثبات السنن الطبيعية وتطور الظواهر الحية في آن واحد ، أي ان هناك سننا في الكون لا بد وأن تبلغ غاياتها ، كما ان الكائنات الحية ، وبخاصة الانسان ، في تطور مستمر ، وبذلك فان ثبات السنن والتطور أمران مترابطان ومتزاوجان في نسق ومسيرة يأخذ بها معظم المؤرخين وان تفاوتت آراؤهم في تحديد تلك المسيرة . وهذه السنن والظواهر هي التي تحكم في النهاية الفعل التاريخي وتسير أحداثه .

- الاخذ بعدة نظريات عند تفسير التاريخ منها نظرية صراع الطبقات ونظرية التحدي والاستجابة ، ويستند معظم المؤرخين في اعتبار مثل هذه النظريات قواعد عامة تؤدي الى تعميمات وتفسيرات ، على نتائج الدراسات المقارنة لمختلف الحضارات الانسانية عبر مراحل العصور التاريخية .

وبعد هذا العرض في محاولة استنباط قوانين وقواعد تحكم المسيرة التاريخية ، وبعد التعرف على بعض المسلمات التي يأخذ بها المؤرخون وفلاسفة التاريخ ، فهل من الممكن القول بوجود قانون فعلي ؟

ان الاجابة على مثل هذا التساؤل تعتبر من الامور الهامة ، فهناك فعلا قوانين تحكم الحوادث التاريخية ، فالكون والوجود يخضعان لادق واعقد القوانين ، قال الله تعالى: «وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون»(٥٦)، وقال تعالى : « والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز الحكيم ، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ، لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون »(٥٧) ؛ وغير ذلك من الآيات الكريمة التي يزخر بها القرآن الكريم وكلها تدل على أن هذا الكون يخضع لنظام دقيق وقانون ثابت . ومن ثم فمن البديهي أن يشمل نظام الكون الدقيق حياة الانسان باعتباره جزءا من هذا الكون مع ما فضله الله به عن سائر الكائنات حيث جعله الله خليفته في الارض يعمرها ويطورها الى الافضل ، كما فتحت الآفاق أمام عقل الانسان كي ينظر ويتدبر ويبدع. ومع ذلك فان التوصل الى قوانين راسخة في مجال البحوث الاجتماعية ما زال يمثل مشكلة بالنسبة للمؤرخين والفلاسفة وغيرهم من العلماء الباحثين في حياة الانسان الاجتماعية والتاريخية والفكرية . ويمكن تتبع بعض أسباب هذه المشكلة على النحو التالي :

- عدم توفر وحدة قياس للظواهر والعلاقات التاريخية .

- صعوبة بحث الحادثة التاريخية لغياب عناصر الاستمرار وعوامل التغير ، ووضعها في صيغة واحدة .

- صعوبة التمييز بين الروابط السببية في وقائع التاريخ والعلاقات الوظيفية والبنائية التي تؤدي الى اخراج الوقائع التاريخية .

ومع ما يعترض الباحثين من صعوبات في التوصل الى قوانين فان هناك محاولات جمة بذلت في هذا الصدد(٥٨) ، واستطاع الباحثون وضع تصورات معينة تساعد في استنباط مثل هذه القوانين ، فنرى ابن خلدون يشير الى قيام الدول ثم تماسكها بالعصبية ، والى ارتباط العمران بالاقتصاد ، والى تأثر الانسان بالاقليم والظروف الجغرافية (٥٩) ، كما أشار جونسون الى استنباط قانون الاستمرار والتعبير ، قانون التكامل وقانون حرية الاختيار (٦٠) .

ومن تلك المحاولات يمكن القول بامكانية ايجاد قوانين تحكم مسيرة التاريخ ، غير ان هذا الامر يتطلب المزيد من الدراسة والجهد مع الاخذ بالاعتبار أن مثل هذه القوانين لا بد وأن تكون مختلفة تماما عن القوانين المتعلقة بالعلوم التطبيقية والمجردة ، فليس هنا ملاحظة تجريبية يمكن متابعتها وتدوين نتائجها . ومع ذلك يمكن اخضاع الملاحظات التجريبية باعتبارها جوهرية في المعرفة والعلم اللذين هما نتاج تفاعل بين التجربة والنظرية .

وخلاصة ما عرض له هذا البحث هو تعدد الآراء والاجتهادات حول تفسير مسار التاريخ وهي تفسيرات شملت الفكر اللاهوتي والمثالي والمادي والعلمي ، وغيرها من المذاهب ، الا أن تفسير مسيرة الانسان عبر مختلف العصور التاريخية يجب أن يتضمن الموازنة والادراك لمسيرة التاريخ الانساني ، فالاسلام أضفى الكثير على القيم الروحية ولم يعتبر الممارسات الفردية للشعائر لاهوتيا بل هي قيم أخلاقية مرتبطة بحياة الانسان اليومية كفرد عامل ضمن مجتمع بشري واسع يسعى الى حياة أفضل .

لقد أهتم المسلمون بالتاريخ وتفسيره نتيجة لاحساسهم بذاتهم الحضارية الخاصة في ظل عالمية الرسالة الاسلامية وقوة الروابط بين الشعوب الاسلامية ، وتصورهم لرسالتهم في المجتمع الانساني ، واقامة الحق والعدل في الارض . وبداية يؤكد القرآن الكريم على الدعوة الى العلم والبحث والتقصي والاعتبار والاستفادة بما حدث للامم السابقة ، كما يتميز المنهج التاريخي للقرآن الكريم بتحقيق الرواية وتعليلها والتأكيد على دور الانسان القائم على العلم والمعرفة ، وبهذا يكون الانسان محورا وغاية ومركزا للنفع والعناية ، وقد سخر الله له الكون بما فيه من كائنات وظواهر طبيعية ، ويشير القرآن في هذا الصدد الى فتح الآفاق أمام الانسان لينطلق بفكره وعقله : « الله الذي خلق السموات والارض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الانهار ، وسخر

لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار »(٦١) . وقال سبحانه وتعالى : « ألم تر أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الارض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ، ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير » (٦٢) . كما قرب القرآن الكريم بين الانسان والطبيعة فلم يعد الانسان يرهب أو يخاف من الظواهر الطبيعية ، فهي آيات الله في الكون وبرهان على قدرته ومجال للتدبر والتفكير ينتفع بها الانسان كما أراد له الله ، فيكشف الاسرار ويتوصل الى ما يدرأ الاخطار ويجلب الخير والسعادة لبني الانسان .

والمتتبع لمعالجة القرآن الكريم للاحداث التاريخية يلمس أن القصص القرآني تمثل قطاعات متكاملة من حياة المجتمعات وتبين أوجه النشاط الانساني ، وبذلك تعددت المحاور وزوايا الرؤية (٦٣) مع غياب تحديد الزمان والمكان لكثير من هذه الاحداث . وذلك لان للخبر او النبأ في مضامين السور هدفا أسمى وأرقى من مجرد الرواية ، فهو للعبرة والعظة واكتساب الحكمة والمعرفة . وينفي القرآن الكريم ان تكون رواياته وأخباره « أساطير » بل هي قصص وبلاغ وذكر ، « نحن نقص عليك احسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن وان كنت من قبله لمن الغافلين » (٦٤) ، « وسكنتم في مساكن الذين ظلموا انفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الامثال »(٦٥) ، « وان كانوا ليقولون ، لو أن عندنا ذكرا من الاولين ، لكنا عباد الله المخلصين » (٦٦) ، « ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا » (٦٧) ، من هنا جاءت الروايات التاريخية متضمنة المادة العلمية كي يعي البشر الحكمة من وراء الحدث التاريخي وينهجون نهجا سليما في حياتهم وسلوكهم معتبرين بما حدث لاقوام سبقوهم كانوا مثلهم بل أقوى وأغنى منهم وعمروا الارض أكثر مما عمروها : « أولم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الارض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون »(٦٨) .

ويؤكد القرآن الكريم على الاسلوب العلمي في استقراء الاحداث والحصول على المعرفة واكتساب الوجود الثقافي ، وهذه أمور تتطلب اعمال الفكر بالنظر والتدبر لاحكام السيطرة على الطبيعة ومواردها التي هي في الاساس مسخرة من الله تعالى لصالح الانسان وخدمته .

تلك محاولة أولوية لفهم علم التاريخ وتطوره ومنهجه أردت منها الاسهام في هذا المجال الهام من العلوم الاجتماعية ، فان اصبت فذاك ما قصدت واستعنت بالله عليه. وان أخطأت فلنا اجر المجتهد الذي يحاول أن يدلو بدلوه في مضمار العلم والمعرفة ، والله الموفق .

الحواشــي :

(١) حسن عثمان ، منهج البحث التاريخي ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ١٢ .
(٢) قسطنطين زريق ، نحن والتاريخ ، بيروت ، ١٩٥٩ ، ص ١٣ .
(٣) Sibree, The Philosophy of History, New york, 1900, p. 60
(٤) صلاح الدين مدني ، المدخل الى التاريخ ، دمشق ١٩٦٧ ، ص ٣٤ .
(٥) اصطلح على تســمية المرحلــة الزمنية السابقة على معرفــة الكتابة بمرحلة ما قبــل التاريخ ويمكن التعرف عليها من خلال التركة الاثرية للانسان المتمثلة بالادوات الحجرية والفخاريــة والعظميــة والرســوم ... الخ .
أما العصر التاريخي فيبدأ منذ معرفة الانسان الكتابة والتسجيل وهي مرحلة تبدأ في منطقة الوطن العربي القديم مع بداية الالف الثالث قبل الميلاد .
(٦) Halphen, L' Introduction a l' Histoire , Paris, 1946, P . 53
(٧) جوزف هورس ، قيمة التاريخ ، ترجمة نسيب وهيبة الخــازن ، بيروت ، ١٩٦٤ ، ص ٢٦ .
(٨) Lewis , B. and Holt , P. : Historians of the Middle East , London 1962 , P. 75 .
(٩) Fowler , Romans Ideas of Deities , London , 1914 , P. 94 .
(١٠) البان ، ج. ويدجيري ، المذاهب الكبرى في التاريخ ، ترجمة ذوقان قرقوط ، بيروت ١٩٧٢ ، ص ٩٤ .
(١١) انظر : السبكي ، قاعدة في الجرح والتعديل وقاعدة في المؤرخين ، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة ، القاهــرة ، ١٩٧٨ .
(١٢) السيوطي ، الشماريخ في علم التاريخ، تحقيق محمد بن ابراهيم الشيباني ، الكويت (بدون) .
السخاوي ، الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، تحقيق القدسي ، بيروت ، ١٩٧٩ .
عبد العزيز الدوري ، بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب ، بيروت ١٩٦٠ .
قسطنطين زريق ، نحن والتاريخ ، بيروت ١٩٦٣ .
عبد الرحمن بدوي ، النقد التاريخي (مجموعة أبحاث مترجمة) ، بيروت ١٩٦٣ .
(١٣) مقدمة ابن خلدون ، طبعة دار الشعب ، القاهرة ، ص ٧ .
(١٤) المرجــع الســابق ، ص ٧ .
(١٥) ساطع الحصري ، دراسات عن مقدمــة ابن خلدون ، بيروت ١٩٦٧ ، ص ١٧٠ . انظــر ايضــا محمد الطالبي ، منهجية ابن خلدون التاريخية ، بيروت ١٩٨١ ص ٣٧ .
(١٦) ظهر العديد من المؤرخين الاوربيين في عصر النهضة الاوربية ، وكان مــن أبرزهم : ليونــاردو برونــي Lenardo Bruni ١٣٧٤-١٤٤٤، ومن مؤلفاته كتاب فلورنسا Storia Florentihi ويعتبر من أفضل مؤلفات عصر النهضة ، نيكولــو ميكافيلي Nicolo Machiavelli ١٤٦٩ - ١٥٢٧ ، وفرانشيكو جيشارديني Francesco Guicciardini ١٤٨٣ - ١٥٤٠ والتر رالي Walter Raleigh وقــد اشتهر بكتابــه « تاريخ العالــم » History of The World كما اشتهر عدد من الرهبان في الاديرة الذين اكبــوا على دراسة الوثائق ومنهم : البندكيون في دير سان مــور Saint Mour بفرنســا ، والراهب فــالا Valla ١٤٠٧ - ١٤٥٧ الذي

اشتهر بنقد وتحليل وثيقة قسطنطين والرسول بطرس المزيفة ، والجزويت في بلجيكا وأهمهم يوحنا بولاند Jean Bolland ١٩٥٦-١٦٦٥، وكذلك جمعية البولنديين Les Bollandistes التي تعتبر من أكبر الجمعيات التاريخية .

(١٧) محمد الالوسي ، علم تحقيق الوثائق والدبلوماتيك ، بغداد ، ١٩٧٨ ، ص ٣ .

(١٨) اشتهر فولتير بمؤلفه عن حياة وأعمال شارل الثاني عشر ملك اسكنديناوة وحروبه مع الروس Histoire de Charles سنة ١٧٣١ ، وتميز الكتاب بدراسته الوثائقية . كما ظهرت ملكة فولتير التاريخية في كتابه البديع « خطابات فلسفية » Letters Philosophiques وهو حافل بالآراء والملاحظات على مسار التاريخ وتصاريف الزمان ، ثم ظهر كتابه المشهور عن عصر لويس الرابع عشر Le Siecle de Louis XIV الذي أبدع فيه في تحليل الاحداث والاشخاص . ويميل كثير من المؤرخين الى اعتبار فولتير مؤسس العلم التاريخي بمفهومه الحالي في الغرب ، رغم انه كان من هواة التاريخ ، كما يضعه العديد من المؤرخين على قمة الفكر الغربي في عصر النهضة الاوربية ، على اعتبار انه فتح مدرسة جديدة في التفكير التاريخي تتسم بالنظرة الشمولية . كما أن دراسته عن عادات الشعوب Essai Sur Les Moeuss تعتبر بصفة عامة أول دراسة تاريخية بمصطلح التاريخ الحديث .

(١٩) مونتسكيو Montesquieu (١٦٨٩ - ١٧٥٥)عاش في عصر التنوير وساهم في اشعال الثورة الفرنسية ، واشتهر بكتابه « روح القوانين » ، أو « روح الشرائع » .

(٢٠) جان جاك روسو Rousseau (١٧١٢ - ١٧٧٨) عاش في عصر التنوير ، وساهم في اشعال الثورة الفرنسية ، واشتهر بكتابة « العقد الاجتماعي » .

(٢١) رانكة Lepold Von Ranke (١٧٩٥ - ١٨٨٦) مسيحي بروتستاني ، ومثالي على مذهب فيخته ، ويعترف بالجانب الانساني في التاريخ . قال بفكرة التطور العضوي للجماعات وكذلك بأهمية العامل الفردي في توجيه الاحداث ، لكنه انكر استخدام التاريخ كعظة وعبرة ، وقال ان التاريخ ينبغي أن يدرس لذاته لا كوسيلة للتعليم والتهذيب . ويعتبر رانكة رائدا للمدرسة الالمانية . وتميز منهجه بالاهتمام بالوثائق التاريخية .

(٢٢) حسين مؤنس ، « التاريخ والمؤرخون » ، عالم الفكر ، المجلد الخامس ، العدد الاول ، الكويت ١٩٧٤ ، ص ٧٦ .

(٢٣) حسين مؤنس ، المرجع السابق ، ص ٧٦ .

(٢٤) كروتشة Bendetto croce (١٨٦٦ - ١٩٥٢) من أبرز مفكري ايطاليا ، ومن أشهر فلاسفة التاريخ في عصرنا ، له ٦٠ مؤلفا ، وأهم مؤلفاته :

History as The Story of Liberty . Theory and History of Aistoriograph.
History : Theory and Practice .

وقد اهتم بمقارنة فلسفات المادية والايجابية في التاريخ .

(٢٥) كولنجوود Collingwood ، من أبرز المؤرخين المعاصرين الممثلين للنزعة التاريخية ويتفق مع كروتشة في عدم صلاحية المنهج التجريبي لعلم التاريخ ، لان الواقعة التاريخية لا تخضع لتجارب معملية من وجهة نظرهما ، كما هو الحال في العلم الطبيعي . له عدة كتب منها : Roman Britain ١٩٣٦ ، وكتاب The Idea of History ١٩٤٤ .

(٢٦) منذ القرن الثامن عشر والمناقشات تدور حول علمية التاريخ ، ويمكن الرجوع الى مجموعة من المؤلفات منها : « علم جديد » لفيكو ، « فكرة التاريخ العالمي » لكانت، « فلسفة التاريخ » لهيجل ، « المادية التاريخية » لانجلز ، « تفسير التاريخ » لماركس ، « دراسة التاريخ » لداناي ، « الايديولوجية الالمانية » لماركس وانجلز « عقم المذهب التاريخي » لكارل بوبر .

(٢٧) أرنولد توينبي Arnold J. Toynbee (١٨٨٩ – ١٩٧٥) له مكانة سامية في التفكير المعاصر ، اشتهر بمنهجه التجريبي ، واتجه بالتاريخ اتجاها شاملا لتاريخ البشر ، ووجه اهتمامه الى العوامل أو المناهج التي تسيره . وهو يؤمن بنظرية التحدي والاستجابة ، ويرى أن الحضارات تنمو وتتطور وتضمحل مثل الكائنات الحية . من أشهر كتبه « دراسة التاريخ A Study of History » انظر : فؤاد شبل ، منهاج توينبي التاريخي ، القاهرة ،ص٧.

(٢٨) مهرجان توينبي : منشورات اتحاد المؤرخين العرب ، ١٩٧٩ ، ص ٧٠ .

(٢٩) الدمرداش سرحان ، المناهج المعاصرة ، مكتبة الفلاح ، ١٩٨١ ، ص ٣ .

(٣٠) جورج سانتيا ، مولد الفكر ، جامعة كولومبيا ، ١٩٦٨ ، مترجم ، بيروت ، ص ١١٩ .

(٣١) انظر : Hans Meyerhoff, : The Philosophy of History in Our Time , Newyork, 1959.

(٣٢) محمد اقبال (١٨٧٣ – ١٩٣٧) فيلسوف وصوفي وشاعر ، من أشهر كتبه « تجديد التفكير الديني في الاسلام » ترجمة عباس محمود العقاد ، القاهرة ، ١٩٥٥ . كما تتضمن قصيدته « حوار بين الله والانسان Message de l' Orient Camte » أبرز أفكاره ، وترجمها عن الفرنسية ، محمد اشنا ، واسمها بالفارسية « بيام يشرمة » .

(٣٣) كوميت ، Augustine Comte (١٧٩٨ – ١٨٥٧) حاول البحث عن قواعد وقوانين لسبر التاريخ ، فانشأ ما يسمى بالايجابية التاريخية La Positive ، أي التزام الدقة العلمية في كتابة التاريخ مع البحث الدقيق عن المنطق وراء كل حادث وتطور .

(٣٤) عرض أفكاره في كتابه The City of God

(٣٥) رينان وهيجل من المؤرخين المتأثرين بالعلوم الفيزيائية والطبيعية ، شأنهم شأن علماء الفلك والانثروبولوجيا الفلسفية وعلماء الحياة بالنسبة لمفهوم الزمن في التاريخ وربطه بأحداث فلكية وكونية بعيدا عن المعتقدات الدينية .

(٣٦) Max Madau , The Interpretation of History , P. 44 .

(٣٧) محمد اقبال ، تجديد التفكير الديني في الاسلام ، ترجمة عباس محمود ، القاهرة ، ١٩٥٥ ، ص ١٥٥ – ٢٣٤ .

(٣٨) استخدم هيجل مصطلحا خاصا عن العقل والفكر Der Geist الذي يعني بالعربية « الروح » وبالانجليزية Spirit وفي الفرنسية **Esprit** ، ولا يقصد بذلك العقل والفكر الانسانيين العاديين ، وانما هو العقل الاعلى الذي يوجه الكون * ونبعت فكرته هذه عن ايمانه الوثيق بالمسيحية الذي يرى فيه اجتماع العنصرين الالهي والانساني ، أي الروح والبدن ، الكنيسة والدولة ، والعبادة والحياة ، والتقى والفضيلة ، وانهما تجتمعان ، في روح أو فكر واحد يعتبر القوة التي تحرك كل شيء ، وهذا هو العقل المطلق . وقد شرح فكره في كتابه عن روح المسيحية Das Christlicha Geist

(٣٩) عمر فروخ ، كلمة في تعليل التاريخ ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ص ٢٢ .

(٤٠) Fritz Stern , The Varieties of History , 1956 , P. 61 - 62 .

(٤١) الروح المحركة للعالم ، وهي الله ، أو الروح المطلقة كما يتصورها بعض الفلاسفة .

(٤٢) J. Sibree, Hegel' s Philosophy of History, P. 14.

(٤٣) يقصد هيجل بالنظام الفلسفي Philosphic System الحقائق والاسس والقواعد التي ترتبط بفترة تطورية معينة من التاريخ .

(٤٤) في رسالته الى Kugelmann عام ١٨٦٨ يقول ماركس ان ديالكتيكية هيجل هي الشكل الاساسي للديالكتيكيات ولكن تجريدها من شكلها المبهم Mystical Form هو بالضبط الشيء الذي يميز اسلوبي » ، انظر : صديقي ، تفسير التاريخ ، الكويت ، ١٩٨٠ ، ص ٨٩ .

(٤٥) المرجع نفسه ، ص ٩١

(٤٦) عمر فروخ ، كلمة في تعليل التاريخ ، ص ١٩ .

(٤٧) احدث كتابه A Study of History ضجة كبرى قبل الحرب العالمية الثانية ، وهو كتاب من عشر مجلدات ، واعيد طبعه واختصاره عدة مرات . فقد اختصره سومرويل Sommerwell عام ١٩٤٧ كما اختصره جليمارد Gilimard تحت عنوان « التاريخ » في باريس عام ١٩٥١ .

(٤٨) Meyerhoff. op. cit. pp. 101 - 102.

(٤٩) حسين مؤنس ، « التاريخ والمؤرخون » عالم الفكر ، المجلد الخامس ، العدد الاول الكويت ١٩٧٤ ، ص ١٠١

(٥٠) Hans Meyerhoff : op. cit, p. 144.

(٥١) ابن خلدون ، المقدمة ، طبعة كتاب الشعب ، ص ٣٣ وما بعدها .

(٥٢) ماكس فيبر Max weber (١٨٦٤ - ١٩٢٠)

(٥٣) جورج زمل (١٨٥٨ - ١٩١٨) من انصار فكرة « نسبية المعرفة التاريخية » ، ومن ابرز مؤلفاته: مشكلات فلسفة التاريخ .

(٥٤) عبد الرحمن بدوي ، « احدث النظريات في فلسفة التاريخ » مجلة عالم الفكر ، المجلد الخامس ، العدد الاول ، الكويت ١٩٧٤ ، ص ٢٢٣

(٥٥) جورج زمل ، مشكلات فلسفة التاريخ ، ص ١٠٨ .

(٥٦) الانبياء ، آية ٢٣ .

(٥٧) يس ، الايات ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ .

(٥٨) انظر : هنري جونسون ، تدريس التاريخ ، ترجمة أبو الفتوح رضوان ، القاهرة ، ١٩٦٥ . عبد الرحمن بدوي ، المرجع السابق . شاكر مصطفى ، « التاريخ هل هو علم » مجلة عالم الفكر ، المجلد الخامس ع الاول الكويت ١٩٧٤ .

(٥٩) ابن خلدون ، المقدمة ، طبعة كتاب الشعب ، القاهرة ، ص ١١٩ .

(٦٠) جونسون ، المرجع السابق ، ص ٣٥ .

(٦١) ابراهيم ، آية ٣٢ ، ٣٣

(٦٢) لقمان ، آية ٢٠

(٦٣) عبد العزيز كامل ، « القرآن والتاريخ » عالم الفكر ، الكويت ١٩٨٢ ، ص٢٣ .

(٦٤) يوسف ، آية ٣

(٦٥) ابراهيم ، آية ٤٥

(٦٦) الصافات ، الايات ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩

(٦٧) الكهف ، آية ٨٣

(٦٨) الروم ، آية ٩

بعض ملامح الاتجاهات الرئيسة في الاستشراق

د. أحمد درغام
جامعة دمشق

نقول : شـرّق : اتجه الى الشرق وأشرقت الشمس طلعت واضاءت والشرق ج أشراق نقطة الافق التي تطلع فيها الشمس في بدء الربيع والخريف وبالتوسع جهة الافق التي تطلع منها الشمس على مدار الايام . المَشرِق والمَشرَق والمَشرُق ج مشارق مكان أو جهة شروق الشمس . والمشرقان والمغربان مشرقا الصيف والشتاء والمشارق والمغارب اختلاف مواضع شروق الشمس وغروبها لانها تشـرق كل يوم في موضـع وتغرب في موضع الى انتهاء السنة . المستشـرق العالم باللغات والآداب والعلـوم الشرقية والاسم : الاستشراق .

خلفيـة تاريخيـة

ارتبطت حركة الاستشراق بشكلها الثقافي مـع حركـة الاسـتشراق بشـكلها السياسي العسكري ، حيث كانت الحملات الصليبية نواتها الاولى . وهذه الحملات وان قامت تحت راية الدين شكلا فان مضمونها الاقتصادي والسـياسي والعسكري عبّر عن التوجه الاوربي لاستغلال الشـرق العربي ونهبه . غير أن الصلة بين الثقافة العربية الاسلامية والثقافة الاوربية كانت قد انعقدت قبل الحركة الصليبية ، وذلك

من محاضرة القيت في كلية الاداب بجامعة دمشق .

اثناء الحروب العربية ـ البيزنطية ، وخلال الوجود العربي في كل من الاندلس وصقلية ، الامر الذي ميز حركة الاستشراق منذ الغزوات الصليبية للشرق بظاهرتين:

أولاهما أنها أصبحت على اتصال مباشر بالاصول التي لم تكن قد انتقلت قبل ذلك الى الغرب الاوروبي .

والثانية أنها أخذت تندفع بمهماتها على خطين متوازيين ومتشابكين : خط سياسي استعماري، وخط آخر يتصل بما تركته المدارس الصقلية والاندلسية ،لدى المثقفين والمفكرين والعلماء الاوربيين ، من رغبة في الاطلاع على المزيد من مصادر الحضارة العربية ومنجزاتها في مختلف فروع المعرفة ، حيث ازدهرت حركة التثقيف الاوربي ، وعلى مدى نحو قرنين (١٠٩٧ ــ ١٢٩١م) بالثقافة العربية ، وحركة نقل منجزات هذه الثقافة الى اللاتينية ٪ وتأثر المدارس والمذاهب الفلسفية الاوربية بالفلاسفة العرب ، كالكندي والفارابي وابن سينا والغزالي وابن رشد ....

بدأ نشاط الدراسات الاستشراقية الغربية لتراثنا الحضاري بشكل واضح وناشط في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وازداد فاعلية في الربع الاول من القرن العشرين، مع أن حركة الاستشراق كان قد مضى علىظهورها زمن يعد بالقرون كما ذكرنا منذ حين . ان هذا الواقع مرتبط بظروفه التاريخية وأسبابه المعينة ، ففي النصف الثاني من القرن التاسع عشر كانت الرأسمالية على عتبة التحول الى عصرها الجديد ، الى تطورها الى أعلى مراحلها : مرحلة الامبريالية ، أي عتبة تحول نظام المنافسة الحرة الى نظام تمركز الاحتكارات الذي دفع بالرأسمالية الى التطور نحو شكلها الجديد ، واعادة تقسيم العالم ، والصراع بين الدول الامبريالية من أجل اعادة التقسيم الذي يضمن لتلك الاحتكارات مواطن خارجية لتوظيف الرساميل المالية ، ومصادر للخامات وأسواقا للتصريف. ان مقدمات هذا التحول الرأسمالي كانت تشتد بروزا وحدة في الربع الاخير من القرن التاسع عشر ، وحدث التحول فعلا في مستهل القرن العشرين . في هذه الظروف ذاتها وللاسباب ذاتها كانت الامبراطورية العثمانية المتداعية ـ بما تحتويه ضمن سيطرتها من أقطار عربية ـ احد مدارات هذا الصراع بين الدول الامبريالية ، لما يتمتع به الوطن العربي من خصائص ومزايا فعلية وواعدة مثيرة لشهوات الاحتكارات الامبريالية وملائمة لاستراتيجياتها الاقتصادية والسياسية .

في سياق هذا التحول نحو عصر الاقتسام الجديد للمستعمرات القديمة والتسابق للاستيلاء على معسكرات جديدة في ركاب الاحتكارات الكبرى ، بدأت حركة

الاستشراق اتجاهها الجديد نحو الدراسات العربية ـ الاسلامية . وفي رأينا أنه لا يجوز الفصل بين اشتداد نشاط الدراسات الاستشراقية ومطلع عصر الامبريالية . فاذا نظرنا الى هذه الدراسات منعزلة عن بدايتها التاريخية مجردة عن الظروف الاجتماعية الاقتصادية في بلدان أصحاب هذه الدراسات ، نكون قد وضعنا المسألة وضعا تجريديا لا علميا .

فمما لا ريب فيه أن التوجه الامبريالي نحو السيطرة على الوطن العربي يتطلب توجها تابعا له يسير في خطه نحو السيطرة على الثقافة العربية ، أي التحكم باتجاهاتها الحديثة على نحو يضمن سيطرة الامبرياليين سياسيا واقتصاديا وفكريا على الوطن العربي والمجتمع العربي . فأخذت حركة الاستشراق وفق مضمونها هذا تفسر التاريخ والتراث العربي تفسيرا غيبيا وقدريا واسطوريا،معتمدة الرؤية المثالية الذاتية فيتحليل الظواهر الاجتماعية وتفسيرها بهدف دعم السيطرة الامبريالية بقواعد فكرية وايديولوجية ، ومكونة « مجموعة » من المفكرين والمثقفين العرب من أصول برجوازية واقطاعية تولت مهمة ترسيخ هذه القواعد في البنية العقلية للمجتمع العربي . ولئن استمرت حالة الاندهاش والانبهار الحضاري والتقليد في أساليب البحث بين أوساط المثقفين العرب فترة من الزمن وفق قانون التطور المتفاوت ، والذي يعني أن الاكثر حضارة يفرض ملامح وجوده وشروطه على الاضعف ، فان لفيفا من المثقفين العرب تجاوز مرحلة الاندهاش الى مرحلة الممارسة .

ولعل د. طه حسين وأحمد أمين واسماعيل مظهر وغيرهم أجرا من أقدم على الخروج على الطرائق الوصفية الانشائية ، على الرغم من أنهم لم يخرجوا عن اطار الفكر المثالي حسب المنهج الاستشراقي .

أبرز اتجاهات الاستشراق الرأسمالي أو مواقف المستشرقين

أولا ـ الاتجاه القائم على **نظرية الجنس** ، أي دراسة الحضارة والتراث من وجهة نظر عرقية . وهذا يعني النظر الى العرب بوصفهم شرقيين في مقابل الغربيين . ويتضمن هذا الاتجاه أن الشرقيين عموما والعرب خاصة محكومون بالقصور العقلي ، أو أن عقليتهم غير قادرة على التفكير التحليلي أو التركيبي ، وبصورة عامة تتصف آفاقهم النظرية بالروحيات بمعناها الغيبي الاسطوري . . . الى غير ذلك من الافتراضات اللاعلمية في تصنيف شعوب العالم وتمييز بعضها عن بعض ، على أساس القابليات المعرفية بحكم التكون الطبيعي .

يمثل هذا الاتجاه الوجه الايديولوجي الاكثر عداء لتطور الشعوب والاكثر تمثيلا لمطامح الامبريالية عدا عن كونه معاديا للعلم وللواقع الفعلي لحركة التطور الاجتماعي على المستوى العالمي . ويحرص هذا الاتجاه على وضع جدار قدري جبري مغلق لا منفذ فيه أمام الشعوب المستعمرة كي تغير واقعها المتخلف الى واقع متقدم موحيا اليها بأن هذا الجدار القدري الجبري تجسيد لطبيعتها القاصرة والعاجزة أبديا عن تجاوز واقعها .

يتجلى هذا الاتجاه في الدراسات الاستشراقية بأشكال مختلفة نذكر منها : ابحاث المستشرق الالماني البرجوازي هنريش بكر (١٨٨٦ — ١٩٣٣ م) والفيلسوف الفرنسي أرنست رينان (١٨٢٣ — ١٨٩٢) حيث وضع نظرية الجنس كأساس مباشر لاحكامه المعروفة على « الفلسفة العربية » وخرج بنظريته القائلة : بأن الجنس السامي ادنى مرتبة من الجنس الآري . ويقصد بالجنس السامي العرب تحديدا ، وبالآري الاوربي . وغني عن القول أن نظرية الجنس هذه أصبحت فيما بعد الاساس النظري والايديولوجي للنازية الهتلرية المعادية للعلم وللانسان وللحضارة البشرية .

ان تقسيم البشر على أساس الجنس والخصائص العنصرية مسألة أصبح بطلانها من بدهيات العلم المعاصر (معروف أن الصهيونية العالمية تبني ايديولوجيتها على أساس الجنس أو العرق) .

ثانيا — الاتجاه القائم على نظرية مركزية الفلسفة في الغرب دون الشرق . وربما كانت هذه شكلا آخر لنظرية الجنس ، ولكنه شكل متميز . فان نظرية مركزية الفلسفة ترجع من حيث جذورها المعرفية الى ما هو ملحوظ أثناء دراسة تاريخ الثقافة البشرية ، من أن وحدة هذه الثقافة تظهر بأشكال تبدو متناقضة ، لذا يسهل جدا اضفاء الطابع المطلق على الخصائض المميزة لكل الثقافات ، واضفاء الطابع المطلق أيضا على الفوارق بين هذه الثقافات بحيث يمكن أن تبنى على هذا الاساس نظرية كاملة . ووفق هذا يجعل أنصار « المركزية الاوربية » صفة التناقض بين التفكير الشرقي والتفكير الغربي قائمة ، ويهملون طابع الوحدة في طرق التفكير البشري ويضعون فوارق كائنة بينها فعلا . (ان الحديث الآن أيضا يجري عن مركزية غربية تشمل أوربا الرأسمالية وأمريكا الرأسمالية) .

ان نظرية المركزية تقوم على جذور طبقية اي على أساس ايديولوجي . ذلك أن الراسمالية المتطورة تحتاج الى تبرير فكري ايديولوجي لسيطرتها في آسية وافريقية . اذ يجد الاوربي العقلاني أو الامريكي البراغماتي تبريرا لسيطرته على الآسيوي

اللا عقلاني أو الزنجي الذي لا يمكن أن تقوم فيه « روح طيبة » كما يقول بعض المستشرقين الاستعماريين .

ثالثا ــ الاتجاه الثالث للدراسات الاستشراقية **اتجاه رجعي محافظ** يقصر عنايته على الجوانب الاكثر محافظة ورجعية في موضوع التراث ، وهو الاكثر اغراقا في الغيبيات وفي عالم المطلق ، مع طمس الجوانب ذات النزعات المادية أو اخفاء الابعاد الاجتماعية الكامنة حتى في الاشكال الغيبية ، كآثار التصوف الفلسفي عند أمثال الحلاج والسهروردي الشهيد ورابعة العدوية شهيدة العشق الالهي . بل لقد حاول الكثير من هؤلاء المستشرقين توجيه المنظومات الفلسفية لامثال الفارابي وابن سينا وابن رشد توجيها يصرفها عن أبعادها المادية ويفرغها من هذه الابعاد ، لتصبح منظومات صوفية أو اشراقية أو دينية . فنجد مثلا المستشرق **كارادي فو** يحاول ارجاع فلسفة الفارابي العقلانية الى فلسفة صوفية ، ونجد المستشرق **ماسينيون** يحسب الكندي والفارابي وابن سينا في عداد المتصوفة، ويعتبر المستشرق **جيلسون** ابن سينا مؤسسا لنظرية الاشراق .

ان الجمع بين الشرق والغرب على الفكر الغيبي اللا علمي هو الامر الجوهري ايديولوجيا للامبريالية ، كما أن التمييز المطلق بين الشرق والغرب هو الامر الجوهري ايديولوجيا للرأسمالية ، بمعنى أن هذا الجمع وهذا التفريق يلبيان مطامح ومصالح قوى اجتماعية معينة في مرحلة تاريخية معينة ، ان الهدف الاساس من هذه المواقف كلها اخفاء كل ما يشير الى علاقة ما في الاعمال الفكرية بواقع الصراع الطبقي كمؤشر لاتجاه التطور الاجتماعي ومحدد اياه .

ونحن لا ننكر أن الحضارة العربية ،ولا سيما شكلها الفلسفي ، كانت ذات مظاهر دينية . فالواقع أنها ارتبطت بالتاريخ الديني كغيرها من حضارات القرون الوسطى . ولكن هذه الميزة الواقعية لا تخفي النزعات العقلية الواقعية . وقد استطاع فلاسفة القرون الوسطى أن يبرزوا ميولهم الفكرية والفلسفية من خلال الاشكال الدينية على نحو واضح حينا وعلى نحو مرموز أحيانا أخرى .

رابعا ــ الاتجاه الرابع وهو **الاتجاه الايجابي** ، أو الاتجاه الموضوعي أو العقلاني في الدراسات الاستشراقية لتراث الشرق . لقد سيطرت الاتجاهات الثلاثة السابقة على هذه الدراسات ولكن لا بد من الاعتراف بأن سيطرتها لم تكن مطلقة . فثمة مباحث استشراقية مهمة عالجت التراث من مواقف هي الى النظر الموضوعي أقرب منها الى الانسياق مع النظر الحزبي المتأثر باتجاهات الايديولوجية الامبريالية .

ويتصف بعض هذه المباحث بمنهجية علمية وبنظرة تاريخية سليمة .. بين هؤلاء الباحثين مستشرقون برجوازيون ومستشرقون ماركسيون .

يقول العالم الفرنسي بول ماسون ـ أورسيل في دراسته لفلسفة الشرق معارضا فكرة « نظرية مركزية الفلسفة » : « لا يوجد في هذه الايام انسان يستطيع الاعتقاد بأن اليونان وروما وشعوب أوربة في العصور الوسطى والحديثة هم دون سواهم أرباب التفكير الفلسفي . ففي جهات أخرى من الانسانية سطعت عدة مواطن للتفكير المجرد وظهرت أشعتها جليا وانتشرت في أنحاء العالم . وبما أن هذه المواطن لم تكن منفصلة بعضها عن بعض كما ظن في الماضي فيجب الاعتراف بأن تفكير الغرب لا يكفي بنفسه ، فتفسيره التاريخي يتطلب اعادة وضعه في وسط انساني واسع النطاق لان التاريخ الصحيح هو وحده التاريخ العالمي » (بول ماسون ـ أورسيل « الفلسفة في الشرق » ص ١٦) .

وحاول عالم الاستشراق الكبير هاملتون جب حول التفكير العربي والعقلية العربية تلمس بعض التفسيرات الواقعية للتاريخ الاسلامي في مثل قوله « ظهرت للاسلام ملامح مختلفة في مختلف الازمنة والامكنة بتأثير العوامل المحلية : الجغرافية والاجتماعية والسياسية فيه » (جب ، دراسات في حضارة الاسلام ص ٣) .

ويبرز اسم المستشرقة الفرنسية **غواشون** من حيث الموقف حيال التراث العربي ايجابيا بوصفها باحثة فلسفية دقيقة الاستيعاب لنصوص الفلسفة العربية الاسلامية، فتكتب عن ابن سينا : « انه ليس عند ابن سينا من حقيقة الا في الوجود فالماهيات التي لم تستقبل الوجود بعد هي باطلة في ذاتها » و « ان عقل ابن سينا العظيم قد وضع نفسه في نقطة يظهر فيها انتاجه كلا واحدا متماسك الاجزاء » وانه « انتاج بعيد جدا عن أن يكون مجرد نقل لنظريات أرسطية الى اللغة العربية » . (غواشون « فلسفة ابن سينا » ص ٤٩ ـ ٥٠ ـ ٥٤) .

الدراسات الاستشراقية الماركسية

انطلق المستشرقون الماركسيون في دراساتهم الاستشراقية من أساس مادي تاريخي من حيث المنهج ، وعلى أساس الاشتراكية العلمية من حيث الايديولوجية . الامر الذي لا نجد في دراساتهم لتراثنا تلك الوجوه السلبية الجوهرية التي وجدناها

لدى المستشرقين والباحثين الذين شكلوا أو كانوا « ورشة عمل » لدى الدوائر الاستعمارية الامبريالية .

يتخذ المستشرقون الماركسيون الموضوعة الماركسية أساسا لدراساتهم ، والقائلة بأن تاريخ تطور المجتمع البشري مرّ ويمرّ بمراحل يحدد كل مرحلة منها شكل من أشكال العلاقات الاجتماعية المثلة لانماط من الانتاج المادي تتعاقب وتتداخل في خط تصاعدي متعرج . وذلك بناء على أن علاقات الانتاج المادي هي العامل المحدد لسير العملية التاريخية ، من عصر العلاقات المشاعية البدائية الى عصر العلاقات العبودية، فعصر العلاقات الاقطاعية فالعصر الرأسمالي ، ثم عصر الاشتراكية فالشيوعية العليا . وهذا ما يعبر عنه بموضوعة **التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية .**

ويمكن القول : ان مختلف الدراسات الماركسية في موضوع التراث يتفق مع الخط العام للتوجهات التقدمية والديمقراطية لحركة التحرر العربية في مرحلة تطورها الحاضرة ، ومع ايديولوجية القوى الطليعية لهذه الحركة . ذلك بعد أن كانت السيطرة المطلقة في مجال معرفة التراث للدراسات الاستشراقية الرأسمالية التي يتعارض معظمها ويتناقض مع هذا الخط .

* * *

إيلاف قريش

ملاحظات حول عوامل السيادة الملكية قبل الإسلام

د. صالح درادكة

الجامعة الاردنيـــة

تحاول هذه الدراسة التعرف على عوامل السيادة المكية قبل الاسلام مع التركيز على دور الايلاف ضمن هذا الاطار ، اذ من الصعب الحديث عن الايلاف بمعزل عـن العوامل الاخرى لما بين هذه العوامل من تداخل .

يحتل الايلاف بين العوامل المكية أهمية خاصة ، ذلك أن الايلاف اختراع قرشي هيأ لمكة القوة المادية اللازمة . ورغم هذه الاهمية لم يحظ من الدارسـين بالاهتمام الذي يستحقه ، ففي الغرب لم تدرس هذه الظاهرة التاريخية دراسة وافية اللهم الا ما كان من اشارات مفيدة ، أشار اليها ج. كستر في معرض حديثه عن مكة والحيرة وصلتهما بالقبائل العربية (١) . وما كتبه لامانس(٢) عـن الايلاف لا يعط الصـورة المطلوبة . وحاول محمد حميد الله (٣) تلافي هـذا النقص ، ومـع اعترافه بجـدارة الموضوع بالبحث ولومه الباحثين الغربيين على تقصيرهم ، لـم يصل الى تحقيـق الغرض المطلوب الذي يشفي غلة الباحث .

وفي المشرق العربي ظهرت هنا وهناك مقالات حول الايلاف (٤) توجهت وجهات مختلفة ، وكان في هذه المقالات الكثير من الفائدة ، الا أن الحاجـة لدراسة جـادة للايلاف ما زالت قائمة .

الايلاف عند المفسرين واللغويين

قبل أن نمضي في استعراض نشأة الايلاف ودوره في السيادة المكية علينا أن نعرف شيئا عن معاني الايلاف .

اختلف القراء في قراءة « الايلاف » ، فمنهم من قرأها « لألاف » بغير ياء بعد الهمزة ، ومنهم من قرأها بياء ساكنة من غير همزة « ليلاف » ، ومنهم من قرأها بهمزتين مخففتين بكسر الاولى وتسكين الثانية على وزن « لععلان » ، وقرأها الباقون بهمزة بعدها ياء ساكنة مثل : « ليعلاف »(٥) .

ويرى ابن جرير الطبري أن الصواب من القراءة : « لايلاف قريش ايلافهم » باثبات الياء فيهما بعد الهمزة من آلفت الشيء أولفه ايلافا ، لاجماع الحجة من القراء عليه ، وللعرب في ذلك لغتان : آلفت ، وألفت (٦) .

لقد أورد المفسرون واللغويون معاني متعددة للأيلاف ، نورد المشهور منها :

آلفت : وتعني المؤالفة (٧) .

ألفت : من الإلف والتأليف أي الجمع والتقريب (٨) .

وقيل انها مشتقة من الالف أي الاعتياد على الرحلتين أو مؤالفة الاقامة والاجتماع بمكة في جوار الحرم (٩) .

وقيل في معاني الأيلاف : الأجارة ، فيؤلف : يجير ، ولذلك سمي أبناء عبد مناف ، بالمجيرين كما سموا بالألاف ، وهم هاشم ، وعبد شمس والمطلب ونوفل (١٠).

وذهب بعضهم الى أن الأيلاف الوارد ذكره في القرآن الكريم يعني : الأحلاف والاتفاقات والعهود ، وبالتوسع في المصطلح يعني الميثاق (١١) . وفي رواية لابن عباس انها تعني : العهد والذمام (١٢) . وزاد أصحاب المعجم الوسيط على ما تقدم القول : انها الامان والعهد يؤخذ لتأمين خروج التجار من أرض الى أرض (١٣) . ويرى بعض الباحثين المحدثين انها تعني الحماية أي الحلف الذي يضمن الامن (١٤) .

ان هذا التفاوت في معاني الأيلاف انما يرجع الى التفاوت في فهم المعنى العام

للأيلاف كظاهرة عملية لقريش ، أو فهم المعاني اللفظية من حيث علاقتها بنعمة الاستقرار والاجتماع في حرم الله ، والاعتياد على القيام بالرحلات التجارية بأمن وطمأنينة بفضل الاحلاف أو العصم أو الحبال (١٥) التي أخذها سادة قريش من زعماء الدول المجاورة ، ومن رؤساء القبائل النازلة على طرق القوافل . ويتضح من خلال هذه الدراسة المعنى العملي المقصود بالأيلاف .

* * *

ان ظاهرة الايلاف وليدة عوامل طبيعية وتاريخية ، فمن الناحية الطبيعيه كانت مكة ولا تزال منطقة صحراوية لا يمكن لأهلها الاعتماد على الزراعة في عيشهم ، وذلك بعكس يثرب ، فلا بد والحالة هذه من الاعتماد على التجارة أو أية حرفة أخرى لتأمين معاشهم . أما ما يتعلق بالعوامل التاريخية فيقصد بها نشوء مكة حول ماء زمزم وتطورها وعلاقة الكعبة بذلك . فموقع مكة على الطرق التجارية وقداستها باحتضانها أول بيت أقيم للناس ، وما نشأ عنه من تنظيمات جعلها عرضة لاطماع القبائل المتجولة في المنطقة .

فقد استوطنتها جرهم وتقاضت رسوما مقابل الدخول اليها (١٦) ، وقصدها الزوار من كل فج ، وفيهم الملك والامير والشيخ ، ومعهم الهدايا والقرابين(١٧) . ولعل هذه الزيارات كانت المقدمة التي قامت عليها علاقات مكة الخارجية فيما بعد . وبعد جرهم استولت عليها خزاعة . وبقيت خزاعة سيدة المكان حتى أخرجتها قريش بقيادة قصي بن كلاب(١٨) . وتعتبر فترة قصي المكية الاساس الذي قامت عليه عظمة حفيده هاشم بن عبد مناف صاحب الأيلاف . ولقد نسبت التنظيمات المشهورة في مكة ابتداء لقصي مثل : الندوة ، والسدانة والسقاية والحجابة ، ثم تبع ذلك نظام الحمس ، ولا شك أن لهذه التنظيمات غايات أقتصادية ، ويفهم ذلك من الهدايا والرسوم التي كانت تقدم أو تجبى من الزائرين أو العابرين لمكة ، بالاضافة الى دور العوامل السابقة في احترام القبائل العربية لمكة وسكانها قريش ، وهذه العلاقة بدورها مهدت لنجاح قريش في تأمين سير القوافل التجارية .

وكان لنظام الحمس(١٩) أثره في تمتين الروابط القرشية مع القبائل العربية الاخرى واظهار قريش بمظهر متميز في بلاد العرب . وشايع قريش في تحمسها لطقوسها وتمايزها فريق من العرب يرون ما تراه قريش، بل ان بعضهم أعلن استعداده للذود عنها وعن طقوسها ، وتطوع للدفاع عن ذلك ، كما فعل الفريق الذي تزعمه صلصل بن أوس من بني عمرو بن تميم(٢٠) . ولما قررت غطفان أن تنشىء حرما كحرم مكة ، هاجمهم زهير بن جناب الكلبي وحطم حرمهم (٢١) .

ان تضافر مجموعة العوامل السابقة وما نتج عنها جعل من مكة محور حركة بشرية تمخضت عن حركة تجارية محلية في البداية ، تطورت مع الزمن وبفعل الظروف الدولية المواتية أيضا . فقد خلف تجار قريش تجار اليمن في الوساطة التجارية العالمية بعد احتلال الاحباش لليمن ، واستفادت قريش من العلاقات العدائية بين الفرس والروم فنهجت نهجا حياديا في تعاملها مع المعسكرين ، الامر الذي مكنها من الاتجار مع العراق والشام (٢٢) .

ولا يغيب عن الذهن انه لم يكن يسمح للتجار الاجانب بالدخول داخل الامبراطوريتين لان الفرس والروم لم يكونوا يثقون بهم ، لذلك اقتصر دخول تجار مكة على أسواق معينة ، مثل الحيرة وبصرى وغزة على أطراف الدولتين (٢٣) .

ولذلك كان على التجار العرب أن يقدموا تضحيات كثيرة ، كدفع الضرائب الباهظة والمستمرة ، والضرائب الحدودية في أرض القبائل ، كما كان عليهم أحيانا أن يسلموا الرهائن . وفرضت مكة بدورها ضرائب ورسوم مماثلة (٢٤) .

لقد استدعت هذه الاوضاع أن يعمل زعماء قريش على تأمين وصول قوافلهم بأمان الى كل الاسواق العالمية الممكنة ، وبخاصة تلك المحيطة بجزيرة العرب كسورية والعراق والحبشة ومصر . وقد تحقق لقريش هذا الحلم على يد هاشم بن عبد مناف الذي كان عهده نقطة تحول في تاريخ مكة . ولعل عظمة قريش الدينية والاجتماعية والاقتصادية التي تحققت جعلت من عمرو بن مناف « هاشم » مثلا أعلى أفاضت الروايات في ذكر شمائله ، ويهمنا واحدة من هذه الشمائل، وهي «الأيلاف» .

تذكر المصادر العربية أن سنوات من الجدب أصابت مكة ، ذهبت بالاموال . فخرج هاشم الى الشام وأظهر من الكرم وحسن المعاملة ما أفاضت به أخباره حتى بلغت قيصر — ولعله أحد حكام الروم في سورية — فأمر باحضاره وأعجبته صورة هاشم وحديثه فأظهر له ودا ومحبة . ولما أيقن هاشم من ود الحاكم الروماني ، أخبره أن قومه قريش هم تجار العرب ، وطلب اليه أن يكتب لهم أمانا بدخول بلاد ، يبيعون فيها أدم الحجاز وثيابها فيكون أرخص بيعا للروم ، فكتب الحاكم الروماني أمانا لمن يقدم من التجار القرشيين الى بلاده . وأقبل هاشم بذلك الكتاب ، وجعل كلما مر بحي من العرب بطريق الشام يأخذ من أشرافهم ايلافا . والأيلاف أن يأمنوا عندهم في أرضهم بغير حلف ، وانما هو أمان الطريق(٢٥) . وكانت قوافل التجار قبل ذلك تتخفر بالحرس والأدلاء من القبائل المجاورة ، وكان هؤلاء بدورهم أدلاء للقوافل يعرفون مواقع الآبار والعيون ، ويتقاضون مقابل خدمتهم أجورا يتفق عليها (٢٦) .

وبحسب الروايات العربية يكون هاشم بن عبد مناف أول من أخذ الأيلاف ، ثم أخذه المطلب ثم عبد شمس ثم نوفل أصغرهم (٢٧) .

اخذ أبناء عبد مناف الأيلاف من رؤساء القبائل لأسباب منها ، ان ذؤبان العرب وصعاليك الاعراب وأصحاب الغارات وطلاب الغوائل كانوا لا يرون للحرم حرمة ولا للشهر الحرام قدرا ، كبني طيء وخثعم وقضاعة ، وسائر العرب يحجون البيت ويدينون بالحرمة له(٢٨) . ومنها أن الاساليب السابقة للأيلاف لم تكن كافية للحفاظ على أمن القوافل . وتطلق المصادر العربية على الامان الذي أخذه هاشم من ملك الروم واشراف قبائل العرب ايلافا تارة ، وتارة أخرى عهدا أو ميثاقا أو حبلا أو عصما(٢٩) .

يذكر أبو علي القالي بوضوح أن هاشما أخذ عهدا من قيصر وايلافا من شيوخ القبائل ، ويعني بايلاف القبائل أن يأمن التجار في أرضهم بغير حلف(٣٠) . والعهود هي المعاهدات والاتفاقيات ، اذ ان رعاية التجارة المكية فيها كسب لقريش التجار وللدول المعاهدة ، ولو لم يكن فيها كسب للدول المعاهدة لما سمحت للتجار بدخول بلادها .

وتأليف القبائل عملية ترويض كبيرة تتطلب جهدا وخبرة طويلة . فقريش التي خبرت طبائع الناس ـ وبخاصة طبائع البدوي ـ من خلال الاحتكاك الدائم في المواسم الدينية والاقتصادية ، هي وحدها القادرة على ابتكار الاسلوب الافضل للتعامل معهم ، وقد نجح أبناء عبد مناف في تأليف القبائل على طول الطرق التجارية نحو الشام واليمن والعراق ، وبعد أن كانت هذه القبائل تغير على القوافل وتنهب ما تحمله . أصبحت عنصر الامان ، تجوز بالقوافل حتى تبلغها مأمنها .

ولم يكن هذا الامان بدون مقابل « أي غير مشروط كما ذهب بعض الباحثين المحدثين »(٣١) فقد أشركت قريش القبائل في تجارتها ، فحملت لرؤسائها البضائع وكفتهم حملانها ، وأدت اليهم رؤوس أموالهم وربحهم . وحقق هاشم بهذا الاسلوب العملي الامن للقوافل ، واستفاد رؤساء القبائل باشراكهم في المشاريع التجارية المكية « فكان المقيم رابحا والمسافر محفوظا كما يقول الجاحظ »(٣٢) .

وكان تحقيق الامن مطلبا عزيزا في منطقة الحجاز وبلاد العرب ، وتحقق هذا المطلب بالايلاف ، فانطلقت السفارات التجارية في كل اتجاه وازداد حجم القوافل وتنوعت السلع ، كل ذلك بفضل الامان الذي أحرزه المكيون للتجار . فحق لله سبحانه وتعالى أن يمن على قريش بقوله : « أولم نمكن لهم حرما آمنا يجبى اليه ثمرات كل شيء » (٣٣) .

وتذكر المصادر أن اخوة هاشم فعلوا مثله بأخذ عهود الامان لتجارة قومهم من دول أخرى غير سورية، فأخذ عبد شمس بن عبد مناف عهدا من صاحب الحبشة، وأخذ المطلب بن عبد مناف عهدا من ملوك اليمن ، وأخذ نوفل بن عبد مناف عهدا من ملوك العراق . وكان كل واحد منهم يأخذ الأيلاف من رؤساء القبائل ما بين مكة والجهة التي أخذ العهد من حاكمها (٣٤) .

يسمي البلاذري(٣٥) عهود ابناء عبد مناف بالعصم . ومعناها المنع . وعصمه تعني منعه مما يوبقه(٣٦) . ويسمي الطبري(٣٧) بدوره هذه العهود المأخوذة من الملوك والرؤساء : حبالا ، ومفردها حبل : وهو الرباط ، وجمعها أحبل وأحبال وحبال وحبول ، والحبل : العهد والذمة والامان(٣٨) . وبعض المصادر تسمي هذا حلفا أو ميثاقا ، والحلف العهد يكون بين القوم ، وحالفه أي عاهده ، والميثاق(٣٩) : العهد . والعهد كما هو واضح يفيد المعاني السابقة أي الميثاق والامان ، واليمين يستوثق بها من الطرف الثاني .

والمعاني السابقة التي استخدمتها المصادر العربية . تفيد عقد اتفاقيات بين ابناء عبد مناف ورؤساء الدول التي ذكرناها سابقا . وذكرت بعض المصادر أن ابناء عبد مناف أخذوا العهود من حكام مصر وبلغت تجارتهم أنقرة(٤٠) . وتحقق هذه الاتفاقيات منفعة متبادلة تشبه في غاياتها وأهدافها المعاهدات بين الدول في العصر الحاضر .

اما ايلاف القبائل فيعتمد بالدرجة الاولى على خبرة القرشيين بالطبائع البدوية وتانيسها وتأليفها ، بأساليب تحمل البدوي على التخلي عن كثير من الطبائع المكتسبة، أي أن الأيلاف عملية تأليف واعتياد على وضع جديد ، نجح ابناء عبد مناف في ايجاده حتى أصبح لدى القرشيين والقبائل الاخرى عادة يصعب الخروج عليها . وقد دعي أبناء عبد مناف بالمؤلفين وأصبح التأليف فضيلة ومنقبة ، فهذا الجاحظ يقول : « خير الناس آلفهم للناس »(٤١) ولعل هناك علاقة ما بين هذا القول وفعل قريش في الأيلاف، ومن ثم في السياسات القرشية المتبعة ، وربما كانت منها سياسة المؤلفة قلوبهم فيما بعد . ويبدو من حديث هاشم لقيصر أن الجلود والثياب الحجازية هي السلع المهمة في التجارة المكية مع سورية ، ويبدو أيضا انه حتى عهد هاشم ابن عبد مناف كانت التجار نشاطا فرديا ، واستمر هذا النشاط الفردي ولم ينقطع حتى بداية العهد الاسلامي ، وذكر عدد من الصحابة في عداد من كان يقوم بتجارته الخاصة .

فقد اشتهر عبد الله بن أبي ربيعة بالتجارة بالعطر اليمني . وكان يبعث الى أمه

في مكة من هذا العطر حيث كانت بدورها تبيعه نقـدا او دينا ، واذا باعت دينا كتبت مقدار الدين في كتاب(٤٢) . وكان دحية بن خليفة الكلبي يتجر مع بلاد الشام بالزيت والطعام (٤٣) ، وكان حكيم بن حزام يتجر بالبر الى اليمن وبلاد الشام ، وعمرو بن العاص كان تاجر أدم وعطر يختلف الى مصر(٤٤) . وبعد ايلاف هاشم وأخذه عهـد الامان من حاكم سورية ، انطلقت المشاريع التجارية الكبرى من مكة، ونظمت الرحلتان في الصيف والشتاء . وقد يستدل من طلب هاشم لأمان قيصر الروم أن تجار قريش كانوا يتعرضون لمضايقات من قبل رجال الحكم الروماني . ولعل هؤلاء التجار كانوا يعالجون مشاكل رجال القبائل البدوية بطرقهم الخاصة ، ولم تكن هذه المعالجة سهلة، فلربما كانت تكلفهم غاليا ، ولا تكون بعد ذلك النتائج مضمونة ، وبقي هذا الحال حتى نظم أبناء عبد مناف العلاقات التجارية مع رؤساء القبائل بشكل حاسم ودائم .

وذكر ابن سعد أن قيصر كتب مع كتاب أمانه لهاشم كتابا آخر للنجاشي طلب اليه فيه أن يأذن لتجار قريش بدخول بلاده (٤٥) .

والراجح من خلال مقارنة الروايات حول ايلاف هاشم ، أن سفارات أبناء عبد مناف الى البلدان المذكورة آنفا ، انما كانت بعد عودة هاشم من سورية . ويرجح ذلك قول بعض المصادر بأن أخوة هاشـم انما قامـوا بعملهم ــ اي أخذ عهـود الامان ــ بعد وفاة هاشم (٤٦) . كما أن هاشما لم يطلب مقابلة الحاكم الروماني لتحقيق هذا الغرض وانما جاء اللقاء مع الحاكم الروماني محظ صدفة ، وان هاشما استغل هـذه المقابلة بذكاء . وأغلب الظن أن هذا التحول التجاري الكبير انما حصل في مطلع القرن السادس الميلادي ، لان هاشما ــ على الاغلب ــ توفي في هذه الفترة ، بدليل تصريح بعض المصادر بأن هاشما كان معاصـرا لقباذ الملك الفارسي ، والحارث ابن عمـرو الكندي اللذين عاشا في مطلع القرن السادس الميلادي (٤٧) . ومن الحوادث الثابتة في التاريخ لقاء عبد المطلب لأبرهة الحبشي عام الفيل ، وهو العام الذي ولد فيه الرسول صلى الله عليه وسلم ، واتفقت المصادر أن هذا الحدث الكبير كان سنة ٥٧٠ م ، وتذكر المصادر أن عبدالمطلب كان حينذاك شيخا وقورا ، أي ان عمره ما بين ٦٠ ــ ٨٠ سنة، وهذا يرجح صواب ما ذهبنا اليه في تحديد تاريخ ايلاف هاشم في مطلع القرن السادس الميـلادي (٤٨) .

وظاهرة الايلاف ابتكار قرشي نقل تجار مكة من تجار محليين الى وسطاء عالميين وبسياسة متوازنة وواضحة في محيط العلاقات الدولية ، وبتظيم نقابي مكي ، ومع القبائل العربية في الشمال أولا ، ثم تطورت لتضم معظم القبائل العربية داخل الجزيرة وخارجها (٤٩) . ولم يكن بالامكان نجاح هـذا النظـام لولا الاصلاحات التـي بداها قصي بـن كلاب .

ومما يجدر ذكره أن هاشما مات بغزة والمطلب مات بردمان من أرض اليمن . ونوفل مات بسلمان جهات فارس، ولم يمت في مكة سوى عبد شمس بن عبد مناف(٥٠). مما يشير الى توسع دائرة التجارة المكية في عهد أبناء عبد مناف . ومما ساعد في توسع دائرة التجارة المكية أن فارس كانت تفرض الضرائب المرتفعة لمرور الحرير والتوابل أيام السلم ، وينقطع مرور السلع أيام الحرب فلا يبقى أمام تجار هذه السلع الا الطريق الغربي الذي يصل اليمن بسورية برا (كان يطلق على الطريق الجنوبية المحاذية للبحر العربي ، طريق البخور ، وتتصل هذه بالطريق السابقة)(٥١) .

وقد أدرك المكيون دورهم ازاء هذا الطريق فاستخدموه بكفاية عالية وفق سياسة الحياد التي اتبعوها ، ووفق مصالح متبادلة مع الدول المجاورة . وحرص المكيون على مبدأ الادارة الجماعية ممثلة بالملأ (مجلس دار الندوة) الذي قاد قريش في المجالات الاقتصادية والدينية والاجتماعية والسياسية .

وكانت قريش تعلق على ايلاف القبائل أهمية أكبر مما تعلقه على عهود الدول . لذلك نهجت سياسة ترضية مع أبناء القبائل المقيمة على طول الطرق التجارية . ولعل في قصة أبي ذر الغفاري يوم اعتدى عليه القرشيون لاعلان اسلامه ، ما يوضح هذه الحقيقة ، فقد صاح العباس بن عبد المطلب بالمعتدين على أبي ذر قائلا : « ويلكم ألستم تعلمون انه من غفار وانه من طريق تجارتكم الى الشام » فترك القرشيون أبا ذر وشأنه لما سمعوا مقالة العباس (٥٢) .

لقد كافح القرشيون طويلا ليخرجوا من محيط التجارة المحلية ، الى دائرة التجارة العالمية ، ولم يمض وقت طويل حتى أصبحوا أساتذة في فن التجارة يضرب ببراعتهم الامثال ، ويستدلون ذلك من قول عبد الرحمن بن عوف : « لو رفعت حجرا لرجوت أن أصيب تحته ذهبا وفضة »(٥٣) . واتخذ القرشيون على الطرق التجارية المحطات والبيوت لا يدخلها أحد غيرهم ، ويحلون بها وهم في طريقهم الى اليمن والشام والعراق . فقد ذكرها الطبري في تفسيره للآية : « ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون » (٥٤) .

وساعد حلف قريش مع تميم كبرى القبائل العربية شمال شرق مكة على تأمين سير القوافل القرشية ، ذلك أن تميما من أكبر التجمعات القبلية الشمالية ، تمتد منازلها شرقا من وادي الرمة ـ عقدة المواصلات شمال الجزيرة ـ وحتى وادي الباطن عند الطرف الشمالي الغربي من خليج العرب . وهذا يعني أن بطون تميم كانت تتحكم بطرق المواصلات التجارية ما بين مكة والحيرة (٥٥) . ومما زاد من أهمية

تميم في محيط العلاقات السياسية والاقتصادية أن الردافة ـ منصب ينوب فيه الردف عن ملك الحيرة ـ في الحيرة كانت لاحد بطون تميم(٥٦) . وهكذا نجد أن تميما أصبحت شريكة ادارية في الحيرة ومكة ، ولو أن طبيعة العلاقات بين تميم وقريش كانت تقوم على اسس أقوى وأمتن . ونظرا لأهمية تميم أصبحت القبائل في المنطقة تطلب ودها وتعقد المحالفات معها .

وكانت تميم على حلف مع قبيلة كلب ، أخطر القبائل العربية على تجارة قريش. لان مواطنها انتشرت ما بين أعالي الحجاز الى بادية الشام (٥٧) . ويبدو أن كلبا ارتبطت بقريش وحافظت على هذا الارتباط ، لاننا نجد كلبا تقف في وجه الدعوة الاسلامية وتحاول التضييق على الرسول (ص) اقتصاديا ، عن طريق التعرض للتجار الانباط الذين كانوا يحملون الدقيق والزيت للمدينة ، والحاق الاذى بهم لمنعهم من ايصال بضائعهم الى المدينة ، مما اضطر الرسول (ص) أن يجهز حملة في السنة الخامسة للهجرة لتأديبهم (٥٨) . كذلك كان تحالف تميم مع أسد وطيء يخدم التجارة القرشية ، اذ تمكنت قريش من ارسال قوافلها آمنة في منطقة ملكة ـ الحزن (٥٩) ونحو دومة الجندل (٦٠) الى العراق .

وقد ادركت قريش اهمية تميم في المعادلة القبلية فأشركتها في الادارة المكية ومنحتها بعض امتيازاتها ، كاشراكها في الاشراف على الاجازة والافاضة ، كما أسند لتميم دور الحكومة في سوق عكاظ (٦١) . وكانت قريش حليفة قديمة لبني كنانة وبني بكر . كما كانت على علاقات ودية مع القبائل الضاربة على جنبات الطريق التجاري نحو الشمال. مثل جهينة ومزينة وغطفان .. وكانت غطفان مع أسد حليفين، واسد مع تميم ، وتميم مع قريش ، وكذا أشجع وسليم وبني أسد ، وكان لها مع هذه القبائل حلفاء يعيشون في مكة ويعتبرون أنفسهم من القبيلة القرشية جريا على النظام القبلي (٦٢) . وأقامت غطفان وهوازن وهلال محالفات مع أشراف قريش أساسها العلاقات الاقتصادية (٦٣) . كذلك كانت قبائل عامر بن صعصعة تنزل بين ديار هوازن وسليم وثقيف. وكانت ثقيف على صلة دائمة بقريش ، اذ ان الطائف كانت مصيف رجالات مكة الذين يملكون فيها الحدائق والاطيان ، وكانت خزاعة في مر الظهران (٦٤) ولها علاقة مماثلة مع قريش (٦٥) .

وكان لقبيلة عذرة صلات قديمة مع قريش لا بد وأن توطدت بالأيلاف ، فكان لعذرة حلف مع جهينة ، جعل الاخيرة تحترم المصالح المكية وتسهل مرور القوافل التجارية في منطقة المدينة ، ويمكن القول نفسه على قبائل بليّ وبقية بطون قضاعة النازلة على طول الطريق التجاري من مكة الى الشام (٦٦) .

نظرت قريش الى طريق العراق بأهمية لا تقل عن طريق الشام ، لصلة هذا الطريق بطريق الحرير القديم ، حيث كان التجار العرب المكيون يحصلون على حرير الصين وتوابل الهند . وكان الجزء الشرقي من هذا الطريق تحت النفوذ الفارسي ، بينما كان الجزء الغربي خارج هذا النفوذ . وحاول الفرس مرارا السيطرة على هذا الطريق الى مكة ، ولعل حادثة البراض وقيام حرب الفجار كانت من المحاولات لتحقيق هذا الغرض ، علاوة على المحاولات الاخرى التي قامت بها فارس للسيطرة على بلاد العرب بعامة والطريق التجاري الى مكة بخاصة (٦٧) . وكذلك استمر الروم في محاولاتهم للسيطرة على الطريق التجاري الغربي بين اليمن والشام عبر الحجاز (٦٨) .

وكانت بطون جذام تنزل على طول الطريق التجاري بين الحجاز والشام ومصر . ولم تذكر المصادر أن جذاما ناصبت القوافل القرشية العداء . وقد حالف بعض رجال قبيلة سليم زعماء مكة واستغلوا معا مناجم المعادن الواقعة في ديار بني سليم (٦٩) . وكانت تنزل مع سليم قبيلة هوازن القوية . وكان لها حلف مع ثقيف . كما كانت سليم على صلات حسنة مع يهود يثرب الذين كانت صلاتهم وثيقة بقريش (٧٠) .

وحول مكة وجهات البحر كانت تنزل بطون كنانة مثل : القين وغفار وبكر وبلحارث ومدلج وضمرة بن بكر وليث بن بكر والديل بن بكر ، وذلك في المنطقة ما بين مواطن هذيل وأسد بن مدركة ، وهذه البطون على صلة قوية بقريش بحكم الانتماء المشترك الى كنانة مثل بني عامر بن لؤي ، وبني فهر (٧١) .

ومن الجدير ذكره أن قريش الظواهر كان لها دورها في حماية المصالح المكية فكانت تغزو وتغير دفاعا عن قريش البطاح ، التي كانت تسميهم « الضب » للزوم الحرم . ودخل قسم منهم مكة مثل بني حسل بن عامر ، وصاروا مع قريش البطاح وهم رهط سهيل بن عمرو واخوته . فأما من دخل في العرب من قريش فليسوا من هؤلاء . وتفخر قريش الظواهر من قريش البطاح لظهورهم للعدو ولقائهم المناسر « طلائع الجيش » (٧٢) ، والى الجنوب من مكة كانت تتناثر قبائل عدة على طول الطريق الى اليمن ، ففي تبالة تنزل خثعم ، وفي نجران بنو الحارث بن كعب . وكان لمكة في هذه المواطن عيون كثيرة (٧٣) كما كانت هذه القبائل ترتبط بعلاقات حسنة مع قريش ، وكانت مراكب التجار ترسو في ميناء الجار حاملة الطعام من مصر الى الحجاز (٧٤) . وكان لقريش لأغراض الامن محالفات عسكرية مع القبائل كالقارة والحيا والمصطلق وبني الحارث بن كنانة ، لكي تعاون قريش في الحروب اذا داهمتها . وسمي هؤلاء الاحلاف « بالاحابيش » (٧٥) .

وبحكم موقع مكة ودورها التجاري وتوسطها القبائل العربية أصبحت سوقا دائمة للتبادل التجاري ، تحصل القبائل القريبة منها على حاجياتها (٧٦) ، هذا علاوة على سيطرة مكة على الاسواق الثلاثة التي تقوم قربها : عكاظ ومجنة وذي المجاز ، كما كان لها مراكزها التجارية في بصرى وأذرعات على طريق الشام (٧٧) .

وعلاوة على المصالح الاقتصادية المشتركة بين قريش والقبائل ، فقد أمعنت قريش في تعزيز هذه الروابط عن طريق التزاوج مع هذه القبائل . وتشير جريدة النساء التميميات اللواتي تزوجن رجالا من أسر قرشية شريفة الى هذه السياسة القرشية بوضوح(٧٨) . وتأثر شيوخ القبائل بقريش وأخذوا يشاركون في الرحلات التجارية ويتفاخرون بالاسفار وزيارة البلدان ودخول المدن والارياف ومقابلة الملوك والامراء(٧٩) . وقد ارتقت حرفة التجارة في نظر العرب واعتبرت من أشرف المهن ، وأصبحت قريش بتجارتها تضارع بشهرتها في المجال الدولي شهرة حمير وفارس والحبشة . ففي رواية انه وجد مكتوبا على بعض الآثار : « لمن ملك ذمار ، لحمير الاخيار ، لمن ملك ذمار ، للحبشة الاشرار ، لمن ملك ذمار لفارس الاحرار ، لمن ملك ذمار لقريش التجار » (٨٠) .

كانت مكة ملتقى الطرق البرية العالمية ، وقد استعملت هذه الطرق وجلبت من مختلف الاطراف السلع التجارية المطلوبة ، فعرفت طريق الهند والصين ، وحصلت من سوق الصين الرئيسي في « سرنديب » على الحرير وخشب الصندل كما جلبت من الهند التوابل ، وكانت هذه السلع أكثر ما تباع لسكان الامبراطورية الرومانية ، ولذلك كان الروم يحرصون على ضمان وصولها اليهم ، كما كانت منتوجات الصين والهند تصل بلاد العرب ثم الامبراطورية الرومانية عن طريق البحر من سيلان عبر المحيط الهندي الى السواحل الغربية للبحر الاحمر . وقد ظل هذا الطريق ابان العصور المتوالية متصلا بالتجارة المصرية ، خاصة في عصر النفوذ الروماني حيث كان وسيلة الاتصال الاكثر أهمية بين الشرق والغرب وذلك حتى بداية القرن السادس الميلادي (٨١) .

وكان النشاط التجاري يتحول من طريق الى آخر حسب تطور الاحوال السياسية في المنطقة التي غلب عليها الصراع بين الفرس والروم بغية توسيع رقعة النفوذ لتشمل فيما تشمل بلاد العرب ، ومن ثم السيطرة على محاور المواصلات العالمية لضمان وصول السلع المطلوبة . ومما زاد هذا الصراع ضراوة أن الفرس كانوا يفرضون على السلع المارة ببلادهم ضرائب باهظة ، وكان الرومان يشترون هذه السلع بأثمان عالية لأن التجار يضيفون هذه الضرائب الى أسعار السلع .

وحاول الرومان تركيز طرق المواصلات التجارية بطريقين الاول : طريق الفرات حيث كانت السفن القادمة من الشرق عبر المحيط الهادي والخليج العربي تفرغ حمولتها عند نهاية هذا الخليج ثم تحمل برا عبر الطريق البرية داخل سورية والبحر الابيض المتوسط ومصر ، وقد قامت على هذ الطرق محطات تحولت مع الزمن الى مدن مزدهرة مثل الحيرة والبتراء وتدمر . وقد ازدهر هذا الطريق في الفترة السابقة على ازدهار التجارة المكية أي حتى مطلع القرن السادس الميلادي تقريبا (٨٢) .

وتضاءلت أهمية هذا الطريق بعد انفجار الصراع بين الدولتين الساسانية والرومانية ، فأخذ الرومان يبحثون عن بديل له ، وتعاونوا مع الاحباش لتحقيق هذه الغاية ، فكان من محاولات الاحباش للسيطرة على اليمن ما هو معروف ومشهور . وعلى أثر الاحداث التي وقعت بين الفرس والروم والاحباش واليمن ازدهر الطريق التجاري البري من اليمن الى الشام عبر الحجاز ، وأضحى هذا الطريق الشريان الرئيسي للتجارة بسبب وصله بين أكبر سوقين استهلاكيين في المنطقة ، اليمن وما يتصل بها من بلاد ، وسورية وما يتصل بها من بلاد . وهذا التحول حول مكة من محطة صغيرة يقدم أهلها الخدمات للحجاج الى امبراطورية تجارية يطلب ودها الملوك والامراء . ويذكر ابن حوقل(٨٣) ان لهذا الطريق فرعين أحدهما يمر بتهامة والآخر عبر البوادي قبل أن يلتقيا في مكة . وكان هذا الطريق يمر بأكثر من عشرين محطة منها : تبالة وبيشة وجرش وصعدة (مدينة الجلود) وأخيرا صنعاء(٨٤) .

واما الطريق الى الشمال من مكة فيتكون من مرحلتين أساسيتين : الاولى ، حجازية تنتهي عند يثرب التي تأتي بعد مكة من حيث الاهمية الاقتصادية في الحجاز. أما المرحلة الثانية فتمتد من يثرب الى بصرى ، وفيه أيضا محطات تختلف في المسافات الفاصلة فيما بينها . وهناك طريق ثالث هام يصل مكة بالخليج العربي يقطع اليمامة ويصل الى موانىء الخليج ، والبحرين وجرها . ومن المراكز المهمة في هذا الطريق دومة الجندل التي كانت تعتبر عقدة مواصلات المنطقة الشرقية التي تتلقى بضائع الهند والبلاد الشرقية . وكان يقام بدومة الجندل سوق موسمية تعرض فيها منتوجات البلدان المختلفة ، المحلية والاجنبية . ومن السلع المحلية المشهورة في سوق دومة الجندل : اللبان والمر واللادن والعقيق من اليمن ، والعطور والذهب والعاج وخشب الابنوس والرقيق من افريقيا الشرقية ،والقمح في بعض الاحيان من مصر ومن اليمامة . وكانت هذه البضائع تصل مكة أولا ثم يقوم التجار بتسويق جزء منها في الاسواق العربية (٨٥) .

ومن الشام كان التجار يجلبون الى مكة زيت الزيتون والقمح (من حوران

والبلقاء) والخمور والجواري والمواد المصنعة كالاسلحة والمنسوجات (٨٦) .

وكانت المنتوجات المصرية تصل مكة عن طريق ميناء الجار . وقد أطلق المقدسي على هذا الميناء « خزانة مصر »(٨٧) .. وكان يصل الى جزيرة العرب من فارس المسك والعنبر والجواهر (٨٨) . ومما ساهم في ازدهار التجارة المكية التعاون بين مكة والطائف التي كان بها عدد من الصناعات كدباغة الجلود والاسلحة والآلات الزراعية وأدوات الصيد (٨٩) . وكان العود الهندي والمسك والعنبر والقرفة (سيلان) من الاطايب المفضلة واستمرت كذلك في الاسلام ، فقد ذكر عن الرسول صلى الله عليه وسلم قوله « عليكم بالعود الهندي »(٩٠) كما ورد المسك في القرآن في سورة المطففين، « وختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون »(٩١) .

يذكر محمد حميد الله نقلا عن ابن الكلبي أن القرشيين كانت لهم رحلتان في كل عام ، واحدة الى اليمن في الشتاء ، وأخرى الى سورية في الصيف ، وشيئا فشيئا بدا لهم ذلك شاقا . ويتساءل حميد الله ، هل كان ذلك لان القرشيين أصبحوا اغنياء أم لأن سفراءهم أصبحوا كبارا في السن ؟! وحينذاك بدأ سكان تبالة وجرش . وكذلك سكان بعض المناطق المحاذية لليمن يتولون نقل بضائعهم حتى مكة ، فكان تجار البر يحملون بضائعهم حتى المحصَّب جنوب مكة ، والتجار البحريون يحملون بضائعهم حتى جدة (٩٢) . ان ما أورده حميد الله يتعارض مع استمرار الرحلات القرشية ، ويكفي أن نذكر أن معركة بدر كان من أسبابها اعتراض المسلمين واحدة من هذه الرحلات ، كما انه من المعروف أن الغرباء كانوا لا ينقطعون عن دخول مكة تجارا أو وكلاء تجار ، ثم ان شهرة قريش بالرحلتين لا تعني أنهم لم يكونوا يرحلون الا رحلتين، اذ كان تجارهم يضربون في الآفاق معظم أيام السنة (٩٣) . كان من نتائج تزايد الثروة لدى تجار مكة عنايتهم بفقراء المدينة حتى أصبح البحث عن الفقراء واشراكهم في المشاريع التجارية جزءا لا يتجزأ من النشاط الاقتصادي العام . وهذا ما جعل بعض المفسرين يرى أن « لأيلاف قريش » تعني تراحم قريش وتواصلهم(٩٤) . وقد بدأ هذه العملية الجريئة هاشم بن عبد مناف ، ولعله أراد تمتين أواصر المجتمع المكي بتأليف قلوبهم وجعلهم جميعا شركاء في صنع المستقبل لتنجح سياسته في ايلاف القبائل . وقد أشار الشاعر مطرود بن كعب الخزاعي (٩٥) لهذه الصفة عند أبناء عبد مناف فذكرها بقوله :

والخالطين فقيرهم بغنيهم ... حتى يكون فقيرهم كالكافي

تذكر بعض المصادر أن ظاهرة اجتماعية سلبية ظهرت في مكة قبل الأيلاف بفعل

الفقر والجوع عرفت باسم « الأعتفاد » ويعني انه اذا اصاب احدى العائلات المكية ضيق وجوع ، يخرج أفراد هذه العائلة الى الصحراء ويضربون على أنفسهم الاخبية بالتناوب حتى يموتوا دون أن يعلم بهم الناس (٩٦) . واستمرت هذه الظاهرة حتى زمن هاشم بن عبد مناف ، الذي أوضح لقومه سوء هذه العادة وعواقبها الخطيرة على المجتمع المكي ، وبين أن الأعتفاد لا يتناسب مع شرف قريش وسمعتها الطيبة بين العرب ، وطلب الى قومه قطعها بالتوسيع على المحتاجين واشراكهم بمشاريع التجارة حتى يصبح الفقير غنيا(٩٧) كما هو واضح من شعر مطرود الخزاعي السالف الذكر(٩٨).

يذكر الجاحظ أن قريش أخصبت بفعل الأيلاف واتاها خير الشام واليمن والحبشة ، فحسنت حالها وطاب عيشها(٩٩) . وأبلغ تعبير عن الوضع الجديد الذي حققه الأيلاف لأهل مكة قول الله سبحانه وتعالى : « أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف »(١٠٠) يعني الضيق الذي كان به أهل مكة قبل ان يسن لهم هاشم الأيلاف . ويقصد بالخوف ذلك الذي كان يحيق بتجارهم بين العرب خشية العدوان عليهم . ومصداق ذلك قوله تعالى : « تخافون أن يتخطفكم الناس » (١٠١) .

لقد ذهب كستر الى أن فكرة مخالطة الفقير على الغني كانت المثل الاعلى في المجتمع الجاهلي وقد قررها الشعر ، وهي تقليد هام في المثل الجاهلية انعكس في العناية بالاسر المحتاجة ، على أن اعتناق الاسلام اعتبر انحرافا عن هذا المثل (١٠٢) .

ان ما ذهب اليه كستر هو صحيح باستثناء ما جاء في العبارة الاخيرة حيث أورد رواية فيها لوم لأحد أبناء الاغنياء المطعمين لاعتناقه الاسلام وتتهمه بأنه هدم ما بنى أبوه باتباعه محمد (١٠٣) . وما ذهب اليه كستر يخالف المعروف والمالوف في المجتمع العربي ابان الدعوة الاسلامية ، فقد جاءت الدعوة لصالح الفقراء والمحرومين ونحن في غنى عن ايراد الآيات والاحاديث في هذا المعنى ، كما أن ما أخذ على محمد صلى الله عليه وسلم في حينه ، أن أتباعه من الفقراء والموالي والعبيد . ولعل كستر لم يوفق في فهم العبارة السالفة الذكر والمراد بها لوم نعيم بن عبد الله باعتناقه الاسلام وخروجه على جماعة قومه الذين يتزعمهم والده ويجمعهم حوله . وكان التقليد الجاهلي يحكم بأن يخلف الابن أباه في مآثر الزعامة واطعام الطعام لا الخروج عليه .

وكما قرر المجتمع المكي محاربة الفقر فقد قرر أيضا محاربة الظلم . ومن أجل هذه الغاية كان حلف الفضول ، حيث تعاقدت خمسة بطون قرشية أن لا تدع مظلوما بمكة الا وتنصره . وكان مما تعاقدوا عليه أيضا مواساة أهل الفاقة ممن ورد مكة بفضول أموالهم (١٠٤) . ومن الواضح أن حلف الفضول جاء بعد مماطلة في صفقة

تجارية بمكة ، وهو بأهدافه وغاياته الاقتصادية يقع ضمن سياسة الايلاف .

وكانت الشراكة المكية تتم بالتراضي ، وغالبا ما تقسم الارباح مناصفة ، أي ان صاحب المال يتقاضى نصف الارباح والتاجر الذي يسافر بالاموال يأخذ النصف . وكان الكل منهمكا بزيادة ثروته (١٠٥) . وجلبت هذه الحركة معها أعمال الصيرفة ، وتكدست في مكة العملات المتداولة ، ومهر الصيارفة بمعرفة أنواعها وأوزانها وأصالتها وزيفها ، والاماكن التي ضربت بها (١٠٦) . وأغلب العملات المستعملة كانت الدينار الرومي والدرهم الفارسي والحميري (١٠٧) . وكذلك مهر القرشيون بالاعمال التجارية ، وعرفوا أساليب الوساطة والمضاربة والسمسرة والمقايضة والتأمين ، وتداينوا بالربا الفاحش ، ونجد صدى ذلك في آيات من القرآن الكريم حملت على جشع التجار المكيين وذمت الربا والتعامل به ، ثم حرم الاسلام الربا واعتبره من الكبائر (١٠٨) .

وكان من اثر التجارة على المجتمع المكي شيوع الغنى والترف والاسراف . فقد ذكرت الروايات أن عبد الله بن جدعان مثلا كان يشرب بكأس من الذهب ويأكل في صحاف الفضة ، كما ذكر الكثير عن رؤوس أموال التجار ، من أمثال عبد الرحمن ابن عوف ، وعثمان بن عفان ،وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص، وغيرهم كثير(١٠٩).

ويستفاد من القرآن أن الترف قد شاع في الاوساط المكية وأصبح هم الناس متاع الدنيا وشهواتها . ومصداق ذلك قوله تعالى : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب » (١١٠) .

وعلى الرغم مما اخذ على بعض المكيين من اسراف وترف وقسوة في التعامل مع المسلمين الاوائل فان الاجراءات المكية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية السابقة للاسلام حققت تكوين قاعدة متينة للانطلاقة المكية التي حصلت في عهد هاشم بن عبد مناف ، واستمرت في تعاظمها فيميادين المعرفة والاجتماع والاقتصاد والسياسة، وتوج هذا التعاظم بانفجار الاسلام من مكة ليعم ضياؤه أنحاء المعمورة على أيدي رجالات مكة .

الهوامش :

(١) ج كستر ، الحيرة ومكة ، وصلتهما بالقبائل العربية ، ترجمة الدكتور يحيى الجبوري ، بغداد ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م .

واصل هذا الكتاب بحثان :

(a) Al-Hira, Same note on its relations with Arabia, Arabica V. 15 (1968) Leiden.

(b) Macca and Tamim, Aspects of their relations, Journal of the Economic and Social.History of Orient, V. 8 (1963). Leiden.

(2) H. Lammens, La Mecque a la veille de l'Hegire,(extract from melange Univ . St. Joseph, Beirut, ix ., Fasc.
— H. Lammens, Enc. of Islam « Macca ».

(3) Muhammad Hamidullah, AL - Ilaf, ou les Rapports Economiques - Diplomatiques de la Mecque pré-islamique,(extrait des melanges Louis Massignon, Inst. Français de Damas, 1957.

(٤) ظافر القاسمي ، الايلاف أو المعونات غير المشروطة ، مجلة المجمع العربي - دمشق مجلد ٣٤ ، نيسان ١٩٥٩ ، ص ٢٤٣ - ٢٥٥ . وابراهيم بيضون ، الايلاف القرشي ، بحث في التكوين الاقتصادي لمكة قبل الاسلام ، مجلة تاريخ العرب والعالم ، عدد ٤٢ نيسان ١٩٨٢ ، ص ٢٣ - ٣٥ . وعدد ٤٣ أيار ١٩٨٢ ، ص ٢٣ - ٣٢ .

(٥) القرشي ، أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن علي الجوزي البغدادي (٥٠٨ - ٥٩٧ هـ) زاد المسير في علم التفسير ، المكتب الاسلامي للطباعة والنشر ، ط ١ ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م تفسير « سورة قريش » ص ٢٤١ وما بعدها .

(٦) الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ) جامع البيان عن تأويل القرآن المشهور باسم تفسيرالطبري ، تحقيق محمد سعيد العريان ، دار الفكر ، ١٩٧/٣٠ وما بعدها .

(٧) ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١ هـ) لسان‌العرب ،دار صادر بيروت مجلد ٩ ، مادة « ألف » .

(٨) ن . م

(٩) انظر تفسير « سورة قريش » في تفاسير : الطبري ، وابن كثير ، والبغوي ، والصابوني ، وسيد قطب . وبقية التفاسير لا تخرج عن ذلك .

(١٠) انظر الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، دار المعارف بمصر ، ٢٥٢/٢ . والزمخشري ، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر ٤٦٧ - ٥٣٨ هـ ، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت - لبنان ٢٣٥/٣ .

(١١) انظر بن حبيب ، أبو جعفر محمد (ت ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م) المحبر رواية أبي سعيد بن الحسين السكري ، باعتناء الدكتورة ايلزه ليختن شتيتر ، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ص ١٦٢ . وقارن حميد الله ، الايلاف ص ٢٩٩ .

(١٢) تفسير الطبري « رواية ابن عباس » تفسير سورة قريش ١٩٧/٣٠ وما بعدها .

(١٣) ابراهيم مصطفى ، أحمد حسن الزيات ، حامد عبد القادر ، محمد علي النجار ، أشرف على طبعة عبد اسلام هارون ، المعجم الوسيط ، المكتبة العلمية ، طهران ، مادة « ألف » .

(١٤) انظر H. Birkeland, THE LORD GUIDETH, Oslo, 1956,P. 106-110. وقارن كستر م . ج « الحيرة ومكة وصلتهما بالقبائل العربية » ترجمة يحيى الجبوري ، جامعة بغداد ١٣٩٦ هـ ـ ١٩٧٦م ، ص ٤٧ ـ ٤٨ . وقد اعتمد بيركلاند فيما ذهب اليه على رواية أبي حيان في البحر المحيط ، تفسير سورة قريش ٥١٥/٨ .

(١٥) انظر تاريخ الطبري ٢٥٢/٢ .

(١٦) ابن هشام أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري ، (ت ٢١٣ ، ٢١٨ هـ) السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا وزميله ط ٢ ، دار المعارف بمصر ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٥ ، ١١٢/١ .

(١٧) انظر العيني ، شرح البخاري ص ٣٦٥ . يعلق حميد الله على خبر زيارة الاسكندر لمكة فيقول : « واذا كان المقصود به الاسكندر فان المصادر اليونانية لا تفيدنا في ذلك ، على الرغم من أن سفره من مصر الى الهند لا يلغي الامكانية النظرية لزيارة هذا المكان ، فهو ملك وثني ذو اعتقادات نظرية » الايلاف ص ٢٩٤ . وانظر أيضا الازرقي ، أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد ، اخبار مكة المشرفة ، رواية أبي اسحق بن أحمد بن اسحق بن نافع الخزاعي نسخة مصورة عن الطبعة الهندية ١٢٧٥ هـ ، ٨٤/١ . والحموي ، الامام شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي ، معجم البلدان ، دار الكتاب العربي ، بيروت مادة « مكة » . وابن عبد ربه ، أحمد بن محمد ت ٣٢٨ هـ العقد الفريد ، تحقيق محمد سعيد العريان ، دار الفكر « رواية العتبي ٥٩/٢ ـ ٦٠ » .

(١٨) ابن هشام ١٢٦/١ ، ويذكر أن هذا الشعر لحذافة بن جمح ، انظر : (١) من المصدر السابق.

(١٩) انظر اللسان مادة «حمس» وابن سعد ، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع البصري ت٢٣٠هـ ، الطبقات الكبرى ، دار بيروت ـ دار صادر ، بيروت ١٣٧٦ هـ ـ ١٩٥٧م ، ٧٢/١ . وانظر عن الحمس : ابن هشام ١٩٩/١ وما بعدها ، والازرقي ١١٩/١ ـ ١٢٣ ، والمحبر ١٧٨ وما بعدها والجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر ت ٢٢٥ هـ / ٨٦٩م ، كتاب البلدان ، نشر وتعليق صالح العلي ، مستل من مجلة كلية الآداب ـ بغداد ١٩٧٠م ص ٤٧٢ وما بعدها ، والقيرواني ، أبو علي الحسن بن رشيق (٣٩٠ ـ ٤٥٦ هـ) ، العمده في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ط ٤ دار الجيل ـ بيروت ١٩٧٢م ، ١٩٧/٢ وما بعدها المرزوقي، احمد بن محمد بن الحسن ، الامكنة والبقاع ، حيدر أباد ١٣٣٢ هـ ، ١٦٦/٢ وما بعدها ، السهيلي ، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله (٥٠٨ ـ٥٨١ هـ) /١١١٤ ـ ١١٨٥م ، الروض الانف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام ، ومعه السيرة النبوية لابن هشام ، بعناية : طه عبد الرؤوف سعد « مكتبة الكليات الازهرية ، ٢٢٩/١ والافغاني ، سعيد ، أسواق العرب

في الجاهلية والاسلام ، دار الفكر ، ط ٣ بيروت ١٣٩٤ هـ ـ ١٩٧٤م ص ٧٥ وما بعدها ، وكستر ، ص ٦٢ وما بعدها .

(٢٠) انظر الاصفهاني ، أبو الفرج على بن الحسين ، ت ٣٥٦هـ / ١٩٧٦م ، كتاب الاغاني ، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ، ١٥/١٩ وما بعدها ، وكستر ٦٣ ـ ٦٤ .

(٢١) ن . م

٢٢) انظر حول ذلك : ابن حبيب ، المنمق في أخبار قريش ـ تحقيق خورشيد أحمد فاروق طبعة الهند ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤م ص ٣١ ـ ٣٢ . اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب الكاتب المعروف بابن واضح الاخباري ت ٢٨٤ هـ تاريخ اليعقوبي ، تحقيق محمد صادق بحر العلوم ، المكتبة الحيدرية ، النجف ١٣٨٤هـ /١٩٦٤م ٢١٣/١ . الجاحظ ، البلدان ، ص ٤٧٠ . الازرقي ١٠٤/١ ، ١٠٧ . تفسير الطبري ١٩٩/٣٠ ـ ٢٠٠ ((تفسير سورة قريش)) . القالي ، أبو علي اسماعيل بن القاسم ، ذيل الامالي والنوادر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م، ص ٢٠٤ . والسهيلي ٢٢٥/١ . حميد الله ص ٢٩٧ ، ٣٠٧ . م . وات ، محمد في مكة ، تعريب شعبان بركات ، منشورات المكتبة العصرية ـ صيدا ـ بيروت ص ١٨ . الافغاني ص ٧٥ . وأحمد ابراهيم الشريف ، الندوة الثالثة لدراسات تاريخ الجزيرة العربية ـ الرياض .

(٢٣) لامانس ، ص ٤٣٨ .

(٢٤) ن . م

(٢٥) القالي ، ذيل الامالي ص ٢٠٤ .

(٢٦) بليابيف ، العرب والاسلام والخلافة العربية ص ١٣٥ ـ ١٣٦ .

(٢٧) الثعاليبي ، أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعاليبي النيسابوري ٣٥٠ ـ ٤٢٩ هـ ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ، القاهرة ١٣٢٦ هـ ـ ١٩٠٨م ص ٨٩ ـ ٩٠ .

(٢٨) ن.م ص ٨٩ وحول هاشم وأخذه الايلاف ، انظر : ابن هشام ١٣٦/١ ، ابن سعد ٧٥/١ ـ ٧٦ ، والازرقي ٦٧/١ وما بعدها والسهيلي ١٦١/١ ، والطبري ، تاريخ ٢٥٣/٢ ، وابن أبي الحديد، عز الدين أبو حامد عبد الحميد بن هبة الله ت ٦٥٦ هـ ، شرح منهج البلاغة ، دار الفكر ـ بيروت ١٩٥٦م ، ٤٥٨/٣ .

(٢٩) انظر ابن هشام ١٣٦/١ . والبلاذري ، أحمد بن يحيى ت ٢٧٩ هـ/٨٩٢ م انساب الاشراف ، ج تحقيق محمد حميد الله ، دار المعارف بمصر ١٩٥٦ م. ٥٩/١ . والمسعودي ، أبو الحسن علي ابن الحسين ت ٣٤٦ هـ ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ط ٤ مطبعة السعادة بمصر ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤م ، ٥٩/٢ ـ ٦٠ . والقرطبي ، ابو عبد الله محمد ابن أحمد الانصاري ، الجامع لأحكام القرآن ((تفسير القرطبي)) ط ١ ، ١٣٦٩ هـ / ١٩٥٠ م، ٢٠٤/٢٠،وتفسير الزمخشري ٢٣٥/٢ ،والقالي، ذيل الامالي ٢٠٤ـ٢٠٥، والمنمق في أخبار قريش ص ٣١ وما بعدها ، والمحبر ١٦٢ .

(٣٠) ذيل الامالي ص ٢٠٤ .

(٣١) انظر ظافر القاسمي ، الايلاف ، ص ٢٥٥ .

(٣٢) الجاحظ ، رسائل الجاحظ ، جمع حسن السندوبي ص ٧١ ، وثمار القلوب ص ٨٩ ، وذيل الامالي ٢٠٤ .

(٣٣) سورة القصص ، آية ٥٧ . وانظر حول ذلك تفسير القرطبي ٢٠٩/٢٠ « تفسير سورة قريش » .

(٣٤) انظر حول العهود والايلاف لأبناء عبد مناف ، المحبر ص ١٦٢ ، والمنمق ٣١ - ٤٠ ، وذيل الامالي ص ٢٠٤ وما بعدها ، والبلاذري ، أنساب ٥٩/١ ، واليعقوبي ، تاريخ ١ / ٢١٣ .

(٣٥) أنساب ٥٩/١ .

(٣٦) اللسان « عصم » .

(٣٧) تاريخ ٢٥٢/٢ .

(٣٨) اللسان « حبل » .

(٣٩) اللسان « حلف » ، وثق .

(٤٠) انظر الجاحظ ، البلدان ص ٤٧٢ ، وابن سعد ٧٥/١ .

(٤١) البلدان ص ٤٦٦ .

(٤٢) الاغاني ٦٤/١ ، وجواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، بيروت ١٩٦٨ ، ٢٩٣/٧ .

(٤٣) ن . م .

(٤٤) ابن بكار ، أبو عبد الله الزبير (١٧٢ - ٢٥٦ هـ) جمهرة نسب قريش واخبارها ، تحقيق محمود محمد شاكر ، مكتبة العروبة ، القاهرة ١٣٨١هـ ، ص ٢٦٧ رقم ٦٤٤ . والكندي ، أبو عمر محمد بن يوسف ، كتاب الولاة وكتاب القضاة ، بعناية رفن كست ، مطبعة الآباء اليسوعية ، بيروت ١٩٠٨م ، ص ٦ - ٧ .

(٤٥) الطبقات الكبرى ٧٨/١ .

(٤٦) الجاحظ ، الرسائل ، جمع السندوبي - من كتاب فضل هاشم ص ٧٠ .

(٤٧) ابن سعيد الاندلسي ، أبو الحسن علي بن موسى ٦١٠ - ٦٨٥ هـ ، نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب ، تحقيق نصرت عبد الرحمن ، عمان ١٩٨٢ « رواية البيهقي » ص ٣٢٧ . وانظر صالح درادكة ، الردافه ، ملحق (١) .

(٤٨) حول مقابلة عبد المطلب لابرهة الحبشي، ومولد الرسول الكريم، انظر ابن هشام٩٤/١ ،والبلاذري، أنساب ٦٧/١ ، والطبري ، تاريخ ١٣٣/٢ - ١٣٤ .

(٤٩) انظر بيضون « المقالة الثانية » ص ٢٨ .

(٥٠) ابن هشام ١٣٦/١ - ١٣٩ . المحبر . مروج الذهب ٩٠/٢ . تاريخ الطبري ٢٥٣/٢ .

(٥١) م. وات ص ٣٣ .

(٥٢) البخاري ، أبو عبد الله محمد بن اسماعيل ، صحيح البخاري ، دار الجيل ، بيروت ٥٩/٥ . ابن حجر العسقلاني ، شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد ت ٨٥٢ هـ /١٤٤٩ م « الاصابة في تمييز الصحابة » دار احياء التراث العربي ، بيروت ١٣٢٨هـ ، ٤ / ٦٢ رقم (٣٨٤) .

(٥٣) ابن سعد ٣ /١٢٦ .

(٥٤) سورة النور ، الآيتان : ٢٨ ، ٢٩ ، وانظر تفسير الطبري للآيتين السابقتين .

(٥٥) انظر G. Levidelle vida, Tamim, E. I. (1) 1964. vol.II,P . 643 - 644.

(٥٦) انظر صالح درادكة ، الردافة ص ٢٢ وما بعدها .

(٥٧) أحمد ابراهيم الشريف ، دور الحجاز في الحياة السياسية العامة في القرنين الاول والثاني للهجرة، ط١ ، دار الفكر العربي ، مصر ١٩٦٨م ص ١٠ . وكستر ص ٥٨ .

(٥٨) انظر الواقدي ، محمد بن عمر ت ٢٠٧ هـ كتاب المغازي ، تحقيق مارسدن جونز مصورة عن طبعة اكسفورد ١٩٦٦ ، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات ، بيروت ٤٠٢/١ ـ ٤٠٣ . ابن سعد ٦٢/٢ ـ ٦٣ ، المحبر ١١٤ ((غزوة دومة الجندل)) وياقوت ((دومة الجندل)) . اتخذت كلب ضمنها ((ود)) في دومة الجندل . انظر أبي الكلبي ، أبي المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي ، كتاب الاصنام ، تحقيق أحمد زكي ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب سنة ١٣٤٣ هـ ـ ١٩٢٤م، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٣٨٤ هـ ـ ١٩٦٥ ص ١٠ .

(٥٩) موقع قريب من الكوفة من أجل مرابع العرب ـ ياقوت ـ حزن يربوع .

(٦٠) المزروقي ، الامكنة ١٦٢/٢ ، كستر ٥٨ .
ودومة الجندل حصن قرب جبلي طيء بين تيماء ووادي القرى ، وهو حصن اكيدر الملك الكندي، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد غزاه في السنة الخامسة للهجرة كما وجه اليه خالد بن الوليد من تبوك سنة ٩ هـ . ياقوت ((دومة الجندل)) .

(٦١) كستر ص ٧٦ .

(٦٢) أحمد ابراهيم الشريف ، دور الحجاز ص٢٢ . وانظر الاصفهاني، الحسن بن عبد الله ت٣١٠هـ، بلاد العرب ، تحقيق حمد الجاسر وصالح العلي ، دار اليمامة ـ الرياض ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨ . ص ٦١ ((الحليفان أسد وطيء)) .

(٦٣) القلقشندي ، أبو العباس أحمد بن على (٨٢١هـ / ١٤١٨م) ـ نسخة مصورة عن الطبعة الاميرية، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، مصر ٣٤٥/١ .

(٦٤) مر الظهران : الظهران واد قرب مكة . وعنده قرية يقال لها ((مر)) ياقوت ((مر الظهران)) .

(٦٥) أحمد ابراهيم الشريف ، دور الحجاز ص١٣ .

(٦٦) ابن حزم ، أبو محمد علي بن أحمد ٣٨٤ ـ ٤٥٦ هـ جمهرة أنساب العرب ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار المعارف بمصر ١٣٩١ ـ ١٩٧١م . ص ٤١٩ ـ ٤٢٠ . وابن دريد ، أبو بكر محمد ابن الحسن ٢٢٣ ـ ٣٢١ هـ ، الاشتقاق ، تحقيق عبد السلام هارون ، مطبعة السند المحمدية، ١٣٧٨ ـ ١٩٥٨م ، ص ٣٢٠ . أحمد ابراهيم الشريف ، دور الحجاز ، ص ١٠ .

(٦٧) من بين المحاولات الفارسية السيطرة على سواحل الخليج العربي ، ثم سيطروا على اليمن ومنها محاولة السيطرة على مكة عن طريق نشر الزندقة في عهد قباذ والحارث بن عمرو الكندي ثم حادثة البراض . انظر ابن هشام ١٨٤/١ وما بعدها ، واليعقوبي ، تاريخ ١٢/٢ ، ونشوة الطرب ص ٣٢٧ .

(٦٨) استمرت محاولات بيزنطة منذ حملة ايليوس غالوس ٢٤ ق.م على اليمن الى تنصير وتنصيب عثمان ابن الحويرث القرشي ملكا على مكة . انظر ابن هشام ٢٢٤/١ ((عثمان بن الحويرث)) .والزبيري، أبو عبد الله المصعب بن عبد الله ١٥٦ ـ ٢٣٦ هـ ، كتاب نسب قريش بعناية ا . ليفي بروفنسال ط ٢ ، دار المعارف بمصر ١٩٧٦ م ص ٢٠٩ ـ ٢١٠ ، والزبير بن بكار ص ٤٢٥ ، ونشوة الطرب ص ٣٥٠ .

(٦٩) الشريف ، دور الحجاز ص ١٢ .

(٧٠) ن . م .

(٧١) ن . م .

(٧٢) انظر البلاذري ، أنساب ٣٩/١ ـ ٤٠ .

(٧٣)اليعقوبي ، البلدان . مطبوعات المطبعة الحيدرية ، النجف ، ص ٧٥ .

(٧٤) ن . م .

(٧٥) الاشتقاق ص ٢٨٢ ، ابن سعد ٤٧/٢ ، ٧٠ ، وابن حزم ٢٦٣ .

(٧٦ ابن الاثير أبو الحسن علي بن أبي الكرم ت ٦٣٠ هـ ، الكامل في التاريخ المطبعة المنيرية ، القاهرة ١٣٨٤ هـ ، ٢٤١/١ ، والشريف ، دور الحجاز ص ٤٥ . وابن كثير ، أبو الفداء الدمشقي ت ٧٧٤ هـ ، والبداية والنهاية ، مكتبة المعارف ـ بيروت ـ ومكتبة النصر ـ الرياض ، ط ١ ١٩٦٦ ، ٤٥/٣ .

(٧٧) جواد علي ٣٠٦/٧ وما بعدها .

(٧٨) كستر ص ٨٩ ـ ٩٣ .

(٧٩) جواد علي ٣٠٦/٧ .

(٨٠) انظر ابن هشام ٧٠/١ ، والهمداني ، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب ت ٣٥٠ ـ ٣٦٠ هـ، كتاب الاكليل ، ج ٨ تحقيق محمد بن علي الاكوع ، مطبعة الكاتب العربي دمشق ١٣٩٩ ـ ١٩٧٩م، ٢٢٩/٨ .

(٨١) بيضون ، المقالة الاولى ص ٢٣ .

(٨٢) ن . م .

(٨٣) ابن حوقل ، ابو القاسم النصيبي ، صورة الارض ، منشورات مكتبة الحياة ـ بيروت . ص ٤٦ ـ ٤٧ .

(٨٤) ن.م وانظر اليعقوري ، البلدان ٣١٧ وما بعدها (ط . ليدن) وابن خرداذبة ، المالك والممالك ١٣٤ ـ ١٣٦ ، والاصطخري ، أبو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري ، المعروف بالكرخي ، كتاب مالك الممالك ، نشر دي جوج ، ١٩٧٢م . ص ٢٣ وما بعدها .

(٨٥) انظر ابن شبه ، أبو زيد عمر بن شبه الخيري البصري ١٧٣ ـ ٢٦٢ هـ ، تاريخ المدينة ط ٢ تحقيق فهيم شلتوت ، دار الاصفهاني للطباعة بجدة ، على نفقة السيد حبيب محمود محمد ١٤٠٢ هـ ، ٤٣٥/٢ ((ذكر أن اليمامة كانت تزود مكة بالقمح)) . وانظر جواد علي ٢٢٠/١ .

(٨٦) اليعقوبي ، تاريخ ٢٧٠/١ .

(٨٧) أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، تحقيق دي جوج ، بريل ١٩٠٦ ص ٩٧ . بيضون المقالة الثانية ص ٢٦ .

(٨٨) الافغاني أسواق العرب ص ٢٥١ .

(٨٩) لامانس الطائف ص ١١٩ ، وبيضون المقالة الثانية ص ٢٦ .

(٩٠) البخاري ١٦١/٧ * جواد علي ٢٣٧/٧ .

(٩١) الآية ٢٦ . وحول السلع التجارية انظر الجاحظ ، التبصرة بالتجارة ص ٣٤ وما بعدها واليعقوبي، بلدان ص ٥١ (ط . النجف) . ثمار القلوب ص ٤٢٣ . جواد علي ٢٢٧/٧ وما بعدها .

(٩٢) الايلاف ص ٣٠٠ .

(٩٣) مما يشير الى أن الرحلات التجارية كانت لا تنقطع . فقد خرج المسلمون بعد هجرتهم عدة مرات في سنة واحدة لاعتراض القوافل التجارية بين الشام ومكة . انظر مغازي الواقدي ٩/١ وما بعدها ، وابن هشام ٥٩٠/١ وما بعدها ، وابن سعد ٥/٢ وما بعدها وابراهيم شعوط ، اباطيل يجب أن تمحى من التاريخ ، المكتب الاسلامي ، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م ص ٢٤ .

(٩٤) انظر تفسير سورة قريش عند السيوطي ، الدر المنشور ٣٩٧/٦ *

(٩٥) انظر ذلك في البلاذري ، أنساب ٦٠/١ ، الازرقي ٦٨/١ ، والديار بكري ، حسين بن محمد ابن الحسين ، الخميس في أحوال النفس نفيس ، المطبعة الوهبية ، مصر ١٢٨٣ هـ ، ١٥٦/١ .

(٩٦) انظر تفسير القرطبي ٢٠٤/٢ - ٢٠٥ ، السيوطي ، جلال الدين ت ٩١١ هـ ، الدر المنشور في التفسير المأثور ، دار المعرفة ، ١٣٧٧ هـ ، ٣٩٧/٦ ، الشامي ، محمد بن يوسف الصالحي ت ٩٤١ هـ ، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ، تحقيق مصطفى عبد الواحد ، القاهرة ١٩٧٢ م ، ٣١٧/١ ، كستر ص ٥٠ .

(٩٧) ن . م

(٩٨) ن . م

(٩٩) الجاحظ ، الرسائل ، جمع السندوبي - فصل هاشم - ص ٧٠-٧١، وانظر ثمار القلوب ص٩٠ .

(١٠٠) سورة قريش آية ٤ *

(١٠١) سورة الانفال ، آية ٢٦ .

(١٠٢) كستر ٥١ - ٥٢ .

(١٠٣) انظر ابن هشام ١٤١/١ ، وكستر ٥٢ .

(١٠٤) لامانس ٤٣٩ .

(١٠٥) ن . م .

(١٠٦) ن * م ٤٤١ .

(١٠٧) ن . م ٤٤٠ .

(١٠٨) انظر على سبيل المثال ، سورة البقرة ، الآيات : ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٨ . وسورة آل عمران ، آية ١٣٠ ، وسورة النساء ١٦١ ، وسورة الروم ٣٩ .

(١٠٩) انظر مروج الذهب ٣٤١/٢ ، وانظر ترجمة عبد الله بن جدعان في نشوة الطرب ٢٥٣/١-٣٥٥ ، وفي الالوسي ، محمود شكري ، بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب ، تحقيق محمد بهجة الاثري، مصر ١٣٤٢ هـ ٨٧/١ وما بعدها ، وتراجم الصحابة الآخرين في ابن سعد ٥٣/٣ ، ١٠٠/٣ ، ١٢٤/٣ - ٢١٤/٣ .

(١١٠) آل عمران ، آية ١٤ .

أَوْضَاعُ الفَلّاحِينَ في العِراقِ وَالشَّامِ
في صَدْرِ الإسْلامِ

د . نجدة خماش
جامعة دمشق

اهتم الخليفة الراشدي الثاني ، عمر بن الخطاب ، باحلال الحق والعدل والمساواة في كل منطقة وصل اليها المد الاسلامي ، بتطبيق النظم الاسلامية ومراقبة ولاته مراقبة دقيقة صارمة ، الا ان أوضاع كل منطقة وتقاليدها الاجتماعية والادارية السابقة ، والعوامل السياسية في العصر الاموي وما نجم عنها من ظروف اقتصادية ، اوجدت نوعا من التمايز بين عصر وآخر ، كما سيتبين من دراستنا لأوضاع الفلاحين في العراق والشام في صدر الاسلام .

كانت جل اراضي السواد ،الذي اصبح مرادفا للعراق(١) ، مستغلة زراعيا ،لأنها منطقة سهول لا عوائق فيها ولا شواهق تشينها ولا مفاوز موحشة تحول دون تواصل العمارة فيها ، والانهار مطردة من رساتيقها وبين قراها ، مع قلة جبالها وآكامها(٢) ، هذه المنطقة كانت تكاد تخلو من الوجود الفارسي . فالفرس الذين كانوا يشكلون الطبقة الحاكمة في البلاد ، اداريين وملاكين وجنود ، تمركز سكناهم في مناطق معينة من العراق . وكان استقرارهم اكثر ما يكون في شرق دجلة خاصة بالقرب من المدائن وعلى ضفاف نهر ديالى ، كما كانت لهم حاميات على حدود العراق الغربية . على شكل مسالح ، كان أهمها في عيون الطف والأيلة والخريبة وبانقيا وأليَس والحيرة والعذَيب وعين القمر والأنبار ، اما المنطقة بين دجلة والفرات فكان عامة سكانها من

النبط(٣) . ويظهر هذا في أخبار الفتح ، فبعد انتصار خالد على المسالح الفارسية غرب الفرات ، أخذت غارات قواده وغارات المثنى بن حارثة من بعده تصل الى نهر دجلة دون أية مقاومة فارسية تذكر ، ولا نجد ذكرا لمعاهدات صلح سوى التي عقدها خالد ، في خلافة ابي بكر ، مع الحيرة ،وقريات من السواد هي بانقيا وأليس(٤)، كماأن سعد بن أبي وقاص بعد انتصاره في القادسية وصل المدائن دون ان يلقى مقاومة لهروب كثير من السكان وخاصة الدهاقين وأصحاب الملكيات (٥) .

تشعر الروايات أن الفلاحين في السواد كانوا في وضع من العبودية للدهاقين واصحاب الملكيات أيام الحكم الساساني ، ولهذا فقد اعتبروا تبعا لهم (٦) . ويذكر ابن الكلبي في اشارته الى ابتداء الدهقنة « فجعل لكل قرية دهقانا وجعل أهلها له خولا وعبيدا وألبسهم لباس المذلة وأمرهم بطاعته » (٧) ويذكر سيف قول أحد الدهاقين لسعد بعد سبي جماعات من الفلاحين ، انما هؤلاء علوج لأهل فارس لم يجرؤوا عليك ، فدعهم حتى يفرقَ الله لكم الرأي (٨) . ذلك أن الفلاحين كانوا تابعين للارض ومجبرين على السخرة وعلى الخدمة العسكرية كمشاة « فكانت كثرتهم العظمى تسير وراء الجيوش كأنها ذاهبة الى اذلال أبدي وبغير أجر يحفزها ولا مكافآت أخرى » (٩) وكانت الجزية تفرض عليهم ، وعلى العامة من سكان المدن كذلك ، الا أن حالة العامة من سكان المدن كانت أحسن نسبيا لأنهم ، وان كانوا يدفعون الجزية ، فقد كانوا معفيين من الخدمة العسكرية (١٠) .

سار المسلمون بالفلاحين الذين لم ينهضوا بقتال في العراق هذه السيرة التي أصر الخليفة الأول على أن يلقنها خالدا ويحمله عليها ، ولذلك سار خالد في هؤلاء الفلاحين ما كان أبو بكر قد تقدم اليه فيهم ، « لم يحرك هو وأمراؤه أحدا منهم في شيء من فتوحهم وسبى أولاد المقاتلة الذين كانوا يقومون بأمر الاعاجم ، وأقر من لم ينهض من الفلاحين وجعل لهم الذمة »(١١) . وفي رواية أخرى لسيف بعد معركة المذار أن خالدا أقر الفلاحين ومن أجاب الى الخراج من جميع الناس بعد مادعوا وصارت أرضهم لهم(١٢) . وحصل أثناء الفتح وبعد معركة القادسية أن قامت القوات العربية ، أثناء ملاحقتها للفلول الفارسية ، بسبي جماعات من الفلاحين غربي دجلة قبل دخول المدائن (١٣) ، فقام سعد بارجاعهم الى قراهم عن طريق الدهاقين (١٤) . وفي كور دجلة والأهواز كانت عمليات السبي أكثر منها في السواد كما يظهر ، لأن الوجود الفارسي في هذه المنطقة يختلف عنه في السواد ، فقد كانت الأهواز تحوي مدنا فارسية وقلاعا وحصونا فتحت عدة مرات ، ولكن عمر كتب اليهم أن لا طاقة لكم بعمارة الأرض فحلوا ما في أيديكم من السبي واجعلوا عليها الخراج (١٥) .

بعد معركة القادسية سنة ١٤ هـ لحق كثير من اهل السواد بالمدائن ، فبعث سعد بن ابي وقاص رسائل الى عمر بن الخطاب يسأله رأيه في أهل السواد ، فيمن تم وفيمن جلا وفيمن ادعى أنه استكره وحشر فهرب ، ولم يقاتل أو استسلم ، « فانا بأرض رغيبة والأرض خلاء من أهلها وعددنا قليل ، وقد كثر أهل صلحنا وان اعمر لنا وأوهن لعدونا تألفهم » مكان جواب عمر «اما من اقام ولم يجل وليس له عهد فلهم ما لأهل العهد . بمقامهم لكم وكفهم عنكم اجابة وكذلك الفلاحون اذا فعلوا ذلك ، وكل من ادّعى ذلك فصدق فلهم الذمة »(١٦) . كما أمره بتخلية سبيل الفلاحين الذين سبوهم وأن لا يتعرّض لهم بأذى (١٧) .

ونحن نعلم ان الفقهاء جميعا يجمعون على أن السواد فتح عنوة ، واذا كان بعض علوج السواد أو الفلاحين قد شارك في القتال ضد العرب ، فانما فعل ذلك مجبرا مساقا . أما كثرتهم الكثيرة فقد كان اعتصامها بأرضها هو موقفها ، واستطاعت ان تجد في سيرة العرب بالأرض اسس هذه المسالمة والقناعة ، ونجد هذا الموقف في بعض حوادث الفتح ، فكانوا اذا أغار عليهم المسلمون نقبوا عليهم نقيبا منهم فوجهوا الى خالد أو المثنى ، أو غير خالد والمثنى من القواد ، ليصالح عنهم ويضمن السلامة لهم (١٨) . أما طبقة الدهاقين ، فهي التي تولت مقاومة الحركة الاسلامية ، فقد حارب الدهاقين المسلمين ، فلما أقرهم المسلمون على بعض عملهم ارتضوا حكمهم وتعاونوا معهم ، وترك المسلمون لملاك الارض أرضهم فأسلموا لهم قيادهم ، فلما أثارهم الفرس قبل القادسية وأطمعوهم بالامارة وقالوا من سبق الى الثورة فهو امير ، ثاروا وانتقضوا (١٩) . انهم كانوا يدورون مع الحفاظ على نفوذهم حركة وسكونا ، مداراة بالصداقة او مجاهرة بالعداوة ، وهم الذين ثاروا على المثنى بعد خالد ، وعلى سعد بعد المثنى ، ولذلك فان العرب لم يكونوا مرتبطين معهم بصلح او بأية التزامات ، بل وضعوهم موضع من قاوم الفتح واعتبروا أراضيهم أرض عنوة ، ومن ثم طلب العرب من سعد بن أبي وقاص أن يقسم السواد بينهم ، ولكنه أبى أن يتخذ هذا الاجراء قبل أن يستشير عمر الذي ارتأى بدوره ، بعد أن استشار عددا من المهاجرين والانصار ، أن يقر اهل السواد في أرضهم ويضرب على رؤوسهم الجزية وعلى أرضهم الخراج(٢٠) .

لا يوجد بين أيدينا روايات تشير الى ما فرض من الجزية والخراج في السواد ، قبل التنظيم الضريبي الذي تم عام ٢١ هـ ، سوى رواية السري عن شعيب ، ان المسلمين أخذوا أهل السواد بخراج كسرى ، وكان خراج كسرى على رؤوس الرجال على ما في أيديهم من الحصة والاموال(٢١) ، وان الناس الزموا الجزية في عهد كسرى ما خلا اهل البيوتات والعظماء والمقاتلة والهوابذة

والكتاب ، ومن كان في خدمة الملك ، وصيروها على طبقات اثني عشر درهما وثمانية وستة واربعة دراهم في الشهر كقدر اكثار الرجل واقلاله ، ولم يلزموا الجزية من كان أتى له من السن دون العشرين أو فوق الخمسين ، وكانت هذه الجزية تجبى في ثلاثة أنجم كل نجم أربعة أشهر (٢٢) . وفي رواية أبي عبيد أن عمر بن الخطاب بعث حذيفة بن اليمان وسهيل بن حنيف وانهما قلجا الجزية على أهل السـواد ، على كل انسان أربعـة دراهم في كل شهر،ثم حسب اهـل القريـة وما عليهـم لدهقان كل قرية وقالا :على قريتك كذا وكذا فاذهبوا وتوزعوا بينكم ، فكانوا يأخذون الدهقان بجميع ما على أهل قريته (٢٣) . وفقا لهذه الرواية ، نجد أن متوسط ما كان على الفلاح أن يدفعه كان (٤٨) درهما في السنة ، وهي جزية مرتفعة بالقياس الى ما طبق بعد التنظيم ، الا اذا اعتبرنا أن هذا المبلغ يتضمن ما يجب أن يدفعه الفرد من جزية عن راسه وخراج عن ارضه ، استنادا الى روايـة يوردها البلاذري عن مصر ، بـأن أهل الجزية بمصر صولحوا في خلافة عمر بعد الصلح الأول مكان الحنطة والزيت والعسل والخل على دينارين ، فألزم كل رجل اربعة دنانير فرضوا بذلك (٢٤) .

نتيجة لقرار عمر عاد الفلاحون في السواد الى ارضهم ، وصالح العرب الدهاقين ورؤساء الطساسيج على الجزاء والذمة (٢٥) ، وحافظ الدهاقين والفلاحون برجوعهم على ملكية اراضيهم ، ولما كان العرب المسلمون قد فرضوا الجزية على أهل الذمـة كافة بغض النظر عن مستواهم الاجتماعي ، فان عددا كبيرا من الدهاقين دخلوا في الاسلام بعد الفتح ، وكان جلهم من دهاقين الكور والطساسيج(٢٦) ، فضمن لهم دخولهم الاسلام وضعهم الاقتصادي والاجتماعي ، اذ أنهم أعفوا من الجزية وفرض لهم في شرف العطاء ، وأشار عمر الى علو شأن هؤلاء حين أدخلهم في الديوان فقال : « قوم أشراف أحببت أن أتألف بهم غيرهم »(٢٧) .

وقد تبين لنا من رواية أبي عبيد أن العرب كانوا يأخذون الدهقان بجميـع ما على أهل قريته ، أي ان الدهاقين كانوا مسؤولين عن جمع الضرائب من السكان في المرحلة الاولى وقبل تحديد الضرائب على الأرض والسكان سنة ٢١ هـ . وكان لاجراء المسح وتحديد ضريبة كل فلاح أن ساعد على تحرير الفـلاح من سيطرة الدهقان ، الذي اصبح في ظل الادارة العربية جابيا فقط الى جانب الجباة العرب ، واصبح الفلاح هو المسؤول أولا وأخيرا عن دفع ما عليه من خراج أرضه وجزيـة راسه ، لاسيما وأن العرب اعتبروا الفلاحين أحرارا لا رقّ عليهم (٢٨) . ففي روايـة سيف عن الشعبي أن بعض الناس يزعمون أن أهل السواد عبيد ، « ولو كانوا عبيدا لما أخذ الجزاء منهم ، فقد أخذ السواد عنوة ، فدعوا الى الرجوع ، فرجعوا ، وقبل منهم الجزاء ، وصاروا ذمة ، وانما يقسَّم من الغنائم ما تُغنَم ، فأما ما لم يغنم

وأجاب أهله الى الجزاء من قبل ان يتغنم فلهم حرث السنة بذلك » ، وفي رواية سيف عن مسلم مولى حذيفة أن المهاجرين والأنصار تزوجوا في أهل السواد ، يعني في أهل الكتابيين منهم ، ولو كانوا عبيدا لم يستحلوا ذلك ولم يحل لهم أن ينكحوا اماء أهل الكتاب(٢٩) .

وبالرغم من أنه اتفق مع السكان في البداية أن يقوموا باصلاح الطرق والجسور والقناطر وسد البثوق « فكان الفلاحون للطرق والجسور والاسواق والحرث والدلالة ، مع الجزاء عن أيديهم على قدر طاقتهم ، وكانت الدهاقين للجزية عن أيديهم والعمارة وعلى كاهم الارشاد وضيافة ابن السبيل من المهاجرين » (٣٠) ، فان العرب أصبحوا هم المسؤولين، بعد التنظيمات التي تلت الفتح ، عن حفر الانهار وبناء القناطر والجسور وسد البثوق حين الحاجة الى ذلك على نفقة بيت المال (٣١).

وراعى الخلفاء الراشدون حالة الارض والسكان في تقدير الخراج والجزية ، اذ أن عمر بن الخطاب أمر ، بعد التنظيم ، أن يوضح على الدهاقين الذين يركبون البراذين ويتختمون بالذهب على الرجل ثمانية وأربعين درهما وعلى اوسطهم من التجار على راس كل رجل أربعة وعشرين درهما في السنة وعلى الاكرة وسائر من بقي منهم على الرجل أثني عشر درهما (٣٢) . أما فيما يتعلق بالخراج فان الروايات التي يوردها البلاذري والتي تنسب الى عهد عمر بن الخطاب كلها تشير الى أن الخراج فرض على كل جريب حسب نوع المحاصيل (٣٣) ، كما أن الروايات المتعلقة بالخراج عند أبي يوسف وأبي عبيد كلها تظهر اختلاف مقادير الخراج على الجريب الواحد من المحصول نفسه ، وقد يعود ذلك الى اختلاف خصوبة الارض من مكان لآخر ، وبعد المناطق عن الأسواق وقربها منها . ولما كانت الدولة في العهد الراشدي تجبي ضرائبها من الزرع بالنقد والعين ، أي أنها كانت تأخذ مع النقود منتجات عينية ، فان هذا كان يخفف عن الفلاحين بعض الأعباء فلا يضطرون الى بيع منتجاتهم بأسعار رخيصة كي يحصلوا على نقود لتسديد الضرائب .

هذا ما كان من أوضاع الفلاحين في العراق في العصر الراشدي ، فاذا انتقلنا الى الشام نجد أنها ، كالعراق ، منطقة تحتم جغرافيتها أن تكون حرفتها الاولى الزراعة كذلك ، الا أن أراضيها الزراعية ليست متصلة اتصال أرض السواد ، فهناك سهول ساحلية وأخرى داخلية تفصل بينها الجبال والوهاد ، وقد انتشر الروم ومرتزقتهم في مدن الساحل(٣٤) ، وفي المدن الداخلية كايلياء وبصرى ودمشق وحمص وتدمر وحلب . وبما ان المدينة ذات الحكومة المحلية (Municipality) كانت مسؤولة عن الاراضي والقرى والضياع التابعة لها ، وكانت الاساس في البناء

المالي العائد لعهد ديوكليسيان (٢٨٤ ــ ٣٠٥ م) ، فاننا نلاحظ كثرة المعاهــدات التي عقدها القادة العرب في الشـام ، وكل هذه المعاهدات تنص بوضوح على وجود جزية وخراج ، وتميز بوضوح بينهما ، كما تنص على أن المدن صولحت بالرغم من مقاومتها في باديء الأمر ، وأن الارض أخذت عنوة . ولذلك نجد الفقهاء يؤكدون على أن مــدن الشام والجزيرة فتحت صلحــا ، وباقي الأرض ، أي الريــف ، عنــوة(٣٥) . ويطلق المؤرخون على الفلاحين في الشـام كما أطلقوا على الفلاحين في السواد اسم العلوج او النبط ، ولم يكن وضعهم بأفضل من وضع اخوانهم في العراق ، فقد استنتــج (فرديناند لوت Ferdinand Lot) من دراسته للقوانين الواردة في مدونة جستنيان وفي سنوات مختلفة واماكن مختلفة أن ضريبة الرأس أصبحت بعد القرن الرابــع الميلادي تجبى فقط من الفلاحين ، وغدت سمة لهذه الطبقة من المجتمع(٣٦) ، ودلالة على المذلة كما يتبين من التعبير Plebaie Capitationis . ومما يؤكد ذلك أن الروايات التي تتحدث عن جبلة بن الأيهم ، بالرغم من اختلافها في بعض النقــاط ، فانها تتفق بأن عمر عرض الاسلام على جبلة مع اداء الصدقة أو البقاء على دينه ودفع الجزية ، فأنف منها(٣٧) لأنه عربي والجزية لا يدفعها الا العلوج ، وهذا دليل على أن ضريبة الرأس كانت مفروضة على الفلاحين في العهد البيزنطي .

وكان من أهم التطورات التي نجمت عن نظام الضرائب الذي فرضته دولة الروم ــ نظرا لفداحة ما استتبعه من اعباء ، ولانتشـار نظام الحماية ، ثم لحرص الدولــة على توفير الأيدي العاملة في وقت كان عدد السكان فيه يتناقص ــ ان تحوّل الفلاحون الى أرقاء للارض(٣٨) مقيدين بها ، وأصدرت الدولة التشريعات اللازمة لاجبارهم على الاقامة .

انتشر العرب بالفتوح في بلاد الشام كلها ، الا أنهم لم يتعرضوا لجماعات القرى بأي أذى أو ضرر ، كما يتبين من عهود الصلح الكثيرة ، فكانت خطتهم منذ البداية قائمة على عدم الاضرار بالفلاحين ، بل ان قادة العرب بذلوا جهودهم لبعث الطمأنينة في نفوسهم وابقائهــم في الأرض ، كما لا نجد ذكــرا لهرب ، او سبي ، جماعات مــن الفلاحين في الشـام ، الذين اعتبروا أحرارا بالرغم من أن ارض الريف أخذت عنوة . لأن عمر بن الخطاب رفض أن يقسم أرض الشام وما فيها من شجر وزرع (٣٩) على المقاتلين العرب . وكان من رأيه تركها لأصحابها مقابل وضع الخراج على أرضهم والجزية على رؤوسهم فتكون فيئا للمسلمين « المقاتلة والذريةولمن يأتي بعدهم »(٤٠) .

كانت الجزية في باديء الأمر في الشـام جريبا ودينارا على كل جمجمة (٤١) ثــم

عدلت بعد التنظيم فجعلها عمر أربعة دنانير على أهل الذهب واربعين درهما على أهل الورق ، وجعلها طبقات لغنى الغني واقلال المقل وتوسط المتوسط ، وتتفق رواية عمرو الناقد عن اسلم مولى عمر مع رواية عمرو بن حماد بن ابي حنيفة عن أسلم مولى عمر ، أن عمر بن الخطاب كتب الى امراء الأجناد يأمرهم ان يضربوا الجزية على كل من جرت عليه الموسى ، على أهل الورق على كل رجل أربعين درهما وعلى أهل الذهب اربعة دنانير ، الا أن الرواية الأولى تضيف وأن عليهم من أرزاق المسلمين من الحنطة والزيت مدان حنطة وثلاثة اقساط زيتا كل شهر لكل انسان بالشام والجزيرة ، وجعل عليهم ودكا وعسلا . أما في الرواية الثانية فتذكر ارزاق المسلمين وضيافة ثلاثة أيام(٤٢) . ويبدو أن الارزاق فرضت على أهل الريف فقط دون أهل المدن لأن الأرض لهم وبامكانهم دفعها ، فيذكر أبو يوسف : « انهم انما فعلوا ذلك لأن أهل الرساتيق هم اصحاب الأرضين والزرع وأهل المدائن ليسوا كذلك »(٤٣) ، ولعل هذه الأرزاق كانت تشكل الضريبة على الأرض في هذه الفترة المبكرة ، وبما أن الروايات المتعلقة بما فرض من خراج بعد ذلك غير متوفرة ، فاننا نستنتج ، استنادا الى ما ذكره الماوردي من ان عمر بن الخطاب راعى في كل أرض ما تحتمله في الشام(٤٤). واستنادا الى التعديل الذي حدث في خلافة عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦ هـ)، نستنتج ان الاجراءات التي تمت في الشام قد تكون شبيهة بتلك التي تمت في سواد العراق ، من مسح للاراضي ، واختلاف فيما فرض على الأرض باختلاف نوع الحاصل وطريقة الري والبعد والقرب من الأسواق . ونلاحظ رفق عمر بن الخطاب بالفلاحين مما ورد في صلح ايلياء « أن لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم » . وفي الرواية التي يوردها أبو عبيد عن ابي مسهر بن سعيد بن عبد العزيز عندما سأل عمر بن الخطاب عامله سعيد بن حذيم (والي حمص سنة ٢٠ هـ) عن سبب تباطئه في ارسال الخراج، فبين له انه انما يؤخرهم الى غلاتهم ، فقال عمر : « لا عزلتك ما حييت » ، قال ابومسهر ، ليس لأهل الشام حديث في الخراج غير هذا ، ويعلق أبو عبيد ، وانما وجه التأخير الى الغلة الرفق بهم ، ولم نسمع في استيفاء الخراج والجزية وقتا من الزمان غير هذا (٤٥) .

وكانت الضريبة في الشام كما في العراق تجبى عينا ونقدا ، فكان أهل الذمة اذا جاؤوا بعرض قبل منهم ، مثل الدواب والمتاع وغير ذلك ، يؤخذ منهم بالقيمة ، ولم يكن يؤخذ منهم في الجزية ميتة ولا خنزير ولا خمر (٤٦) ، لأن عمر بن الخطاب كان قدنهى عن اخذ ذلك منهم في جزيتهم ، وطلب من أهل الذمة أن يولوها أربابها لبيعها ، وأن يأخذ عامل الخراج اثمانها اذا كان هذا أرفق بأهل الجزية (٤٧) .

أما في العصر الأموي ، فنلاحظ هذا الاتجاه في جباية الضرائب نقدا من جهة

والتشديد في أوزان الدراهم التي تجبى من جهة ثانية ، فقد فرض يزيد بن معاوية الخراج على أرض السامرة بالاردن وجعل على راس كل منهم دينارين ، وفرض الخراج على أرض السامرة بفلسطين وجعل على راس كل منهم خمسة دنانير ، وكان أبو عبيدة بن الجراح قد صالحم على جزية رؤوسهم وأطعمهم أرضهم ، مقابل ان يكونوا عيونا وأدلاء للمسلمين (٤٨) . وكان عمر بن الخطاب قد قسط الخراج في العراق ورقا وعينا والدراهم تؤدي فيه عددا ، ففسد الناس ، فكانوا يؤدونه بالطبرية ووزن الدرهم أربعة دوانق (كل دانق قيراطان ونصف) ويستبدون بالوافي ووزنهمثقال (مثقال الفضة في العراق ١٢ قيراطا) (٤٩) . فلما ولي زياد بن أبي سفيان ، طلب أداء الوافي فشق ذلك على الناس (٥٠) . وبالرغم من أن عبد الملك فحص عن النقود والأوزان والمكاييل وضرب الدنانير والدراهم العربية الا أن ولاة العراق كما يبدو كانوا يطالبون أثناء تحصيل الضرائب عملات ذات وزن معين بدلا من العملات المتوافرة لدى الاهالي ويستولون على فروق النقد . كما ان الولاة ، رغبة منهم في دفع الفلاحين الى الزراعة ، كانوا قد عمدوا الى فرض الخراج على الأرض المزروعة وغير المزروعة ، وعادوا لأخذ هدية النيروز والمهرجان ، لأنه كان من عادة الفرس أن يتقدموا الى العمال والأمراء بالهدايا ، وبلغ من تأصل هذه العادة انها كانت جزءا من النظام المالي في الامبراطورية الساسانية . ولهذا نلاحظ في العراق شيئا لم نلاحظه في الشام ، يتقدم الفلاحون أو الدهاقين بالهدايا الى خالد او ابي عبيد أو المثنى أو الى امرائهم (٥١) ويحار هؤلاء القواد والأمراء ماذا يفعلون بها ، أيردونها على أصحابها أم يحتفظون بها .. ؟ .. ويكتبون بذلك الى الخليفة ، ثم يستقر بهم الأمر ان يتقبلوها على أنها من بعض الجزاء المفروض ، فيكتب أبو بكر الى خالد : « ان تقبلها منهم واحتسبها من الجزاء الا أن تكون من الجزاء »(٥٢) . هذه الهدايا أصبحت في العصر الأموي ، كما يبدو ، تعتبر حقا لهم في أعناق هؤلاء الناس وواجبا في ذمتهم . فلما كانت خلافة عمر بن عبد العزيز كتب الى واليه على العراق ، أن لا يحمل خرابا على عامر ولا عامرا على خراب ، وان لا يأخذ من الخراب الا مايطيق ولا من العامر الا وظيفة الخراج في رفق وتسكين لأهل الأرض ، كما أمره الا يأخذ في الخراج الا وزن سبعة ليس لها أس ولا أجور الضرابين ولا اذابة الفضة ولا هدية النيروز(٥٣) .

ونلاحظ في العراق كذلك ظاهرة لم نلاحظها في الشام ، وهي ظاهرة هجرة الفلاحين من الريف الى المدن . والسبب في ذلك أن انتشار الاسلام في العراق كان أسرع من انتشاره في الشام ، ولن نتطرق في هذا البحث الى الأسباب التي ساعدت على انتشار الاسلام في العراق ، فهذا موضوع يستحق أن يفرد له بحث خاص ولكننا نستطيع أن نشير الى الأسباب الخاصة التي تميزت بها هذه المنطقة . فمن

المؤكد أن القلق الديني الذي كان قد استحوذ على الفرس خلال الفترة السابقة للاسلام ، وتباين النظرات الدينية ، وتعدد المذاهب بين زرادشتية ومانوية ومزدكية ، وتطاحنها هذا التطاحن الشديد ، كان عنصرا مساعدا في سرعة انتشار الاسلام بعد غلبة المسلمين ، ومن المؤكد أن الفرس كانوا أهل حكم وسياسة ، وكانت لهم تقاليدهم في الادارة وحظوظهم من السلطان ، فلما وجدوا أنهم غلبوا على أرضهم خافوا كذلك ان يغلبوا على سلطانهم . اما العامة ، فقد يكون ما غلب عليها هو الدين ، او غلبت عليها سماحة الحرية التي أتاحها الاسلام ، وفرصة الانقاذ التي منحها لها. وأما الخاصة ،من الذين كانوا يلون السلطان والادارة من مثل الاساورة والدهاقين ورؤساء المقاطعات ، فقد انفوا أن تستلب منهم سيطرتهم هذه التي يعيشون بها ولها ، ولذلك حبب اليهم ، بعضهم او كثرتهم ، ان يستجيبوا للاسلام ، وربما كان ذلك يعني بالنسبة اليهم الاسهام في هذا النظام الجديد الذي يقيمه المسلمون الغالبون ، والمشاركة فيه ، والابقاء على ما كان من حظوظهم في الحكم والادارة .

ولعلنا نفهم من هنا فرق ما كان بين الفرس والروم ، فقد كان الروم يحاربون في غير أرضهم ، ولذلك انصرفوا عنها ، وكان هذا وما تبعه من حروب الثغور هو الصورة التي كيفت علاقاتهم بالمسلمين . أما هنا ، مع الفرس ، فقد كان للمسألة وجه آخر ، كان الفرس يحاربون في عقر دارهم ، فلما غلبوا عليها لم يكن في وسعهم أن ينصرفوا عنها كما فعل الروم ، لأن العرب استطاعوا بعد استيلائهم على المدائن عاصمة الفرس أن ينساحوا فيما وراء ذلك في كل اتجاه وان يقضوا على الدولة الساسانية ويسيطروا على كل المناطق التي كانت خاضعة لها ، ولذلك فان الكثرة المطلقة من الناس لم تكن تملك الا أن تتلاءم مع الوضع الجديد بأن تتبنى الاسلام أو أن تستتر وراءه كاتمة ميولها وعواطفها ، وهذا ما أدى الى وجود أعداد كبيرة من الموالي في العراق ، والذين بلغ عددهم في الكوفة فقط في خلافة معاوية (٢٠) الفا(٥٤). ولا شك أن هذه الاعداد ازدادت بازدياد انتشار الاسلام ، لان الادارة العربية لم تحافظ على النظام الاقطاعي الساساني المحكم الذي كان يسيطر على الفلاحين ويجبرهم على البقاء في أرضهم ، كما أن التشريع المالي الاسلامي كان واضحا كما يبدو فيما يتعلق بأرض العنوة ، فمن أسلم فهو حر مسلم وتطرح الجزية عن راسه(٥٥) ، أما الارض فيبقى الخراج عليها لانها فيء للمسلمين ، وله الخيار في أرضه ان شاء أقام فيها يؤدي ما كانت تؤدي ، وان شاء تركها فقبضها الامام للمسلمين مع ما في يديه مما كان في أيدي أهل فارس ، فان شاء أنفق الامام عليها من بيت مال المسلمين واستأجر من يقوم بها ويكون فضلها للمسلمين ، وان شاء أقطعها رجلا ممن له غناء عند المسلمين(٥٦) . غير ان الواقع العملي اختلف عن التشريع النظري ، فالاحداث في العراق وما يذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق كلها تدل على أن من أسلم رفعت

الجزية عن رأسه وله الخيار في أرضه ، ان شاء أقام فيها يؤدي ما كانت تؤدي ، وان شاء تركها وصار ما بيده من الارض بين أصحابه من أهل قريته يؤدون عنها ما كان يؤدي من خراجها ويسلمون له ماله ورقيقه وحيوانه ، ولا يرون انه وان أسلم أولى بما كان في يديه من أرضه من أصحابه من أهل بيته وقرابته ولا يجعلونها صافية للمسلمين . كما نفهم من نص يورده ابن عساكر أن القرية كانت مسؤولة عن دفع مبلغ الخراج متضامنة ، فاذا أسلم الذمي أسقطت الجزية عن رأسه وبقيت الارض لأهل القرية يقومون بزراعتها ودفع الخراج عنها(٥٧) وبما ان انتشار الاسلام بين أهل القرى في الشام كان بطيئا ، فان الفلاحين لم يشعروا بازدياد الآعباء عليهم كما حدث في العراق ، حيث حدثت هجرة واسعة من الفلاحين الى البصرة والكوفة ادت الى الاضرار بالاراضي الزراعية ، التي حرمت من الايدي العاملة ، فنقص انتاجها . وازدادت أعباء من ظل في الزراعة من الفلاحين ، الامر الذي كان يدفعهم بدورهم الى مغادرة أراضيهم أو تحمل حياة صعبة مضنية .

ويبدو أن هذه المشاكل وصلت حدا خطرا زمن الحجاج بن يوسف الثقفي فاضطر الى اصدرا أمره بارجاع من كان لهم أصل في القرى الى قراهم ، عندما كتب اليه عماله «بأن الخراج قد انكسر وأن أهل الذمة قد اسلموا ولحقوا بالامصار»(٥٨) . وقد دفع عمل الحجاج هذا الى اتهام البعض له بأنه أخذ الجزية ممن أسلم ، بينما نرى ، وفقا للرواية السابقة ،وهي رواية عراقية ، أن ارجاع الفلاحين الى قراهم جاء بطلب من العمال لانكسار الخراج بنتيجة اسلام أهل الذمة ولحاقهم بالامصار ، أي ان قلة الايدي العاملة في الاراضي الزراعية كانت وراء هذه الشكوى التي تحمل في طياتها عدم قدرة الدهاقين على جمع الآموال المطلوبة من أراضيهم ونواحيهم نتيجة لذلك . وقد كان بامكان الحجاج أن يعمد الى احصاء الموالي في البصرة والكوفة وأن يستوفي الجزية منهم ، وهو أمر لم يحدث ولم يشر اليه مصدر من المصادر ، مما يدل على أن غاية هذا الاجراء هي تعمير الريف واستيفاء خراجه . وهنا لا بد من كلمة بحق الحجاج ، وهي دقته في جباية الاموال واستيفائها حتى من كبار أشراف العرب . ففي سنة ٧٨ هـ قدم عليه المهلب بعد أن فرغ من حرب الآزارقة ، وكان عزم على أن يوليه خراسان ، فحاسبه قبل أن يبعثه واخذه بألف ألف درهم من خراج الآهواز . هذا بالرغم من المكانة الكبيرة التي كانت للمهلب عند الحجاج واكرامه له ولابنائه(٥٩) . وعندما خرجت بعض الاراضي من أيدي أهلها الى قوم مسلمين بهبات وغير ذلك وأصبحت عشرية ، عاد الحجاج فصيرها خراجية ، وهو عمل لا يخالف الشرع لآن الخلفاء الراشدين كانوا يعارضون فكرة شراء المسلمين للاراضي الخراجية كرها أو طوعا، لانهم كانوا يفضلون بقاءها وقفا على آخر هذه الامة من المسلمين المجاهدين وقوة على جهاد من لم يظهر عليه(٦٠) .

وجه الحجاج اهتمامه للزراعة والفلاحين بعد أن تم القضاء على الخوارج الأزارقة والصفرية ، وعلى ثورة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ٨٥هـ ، فاسلف المزارعين الفي الف درهم(٦١) . واذا كانت المصادر تذكر ان خراج العراق في عهد عمر بن عبد العزيز بلغ المائة والعشرين ألف ألف درهم ، وذلك بعدله وعمارته ، وهو اكثر مما جُبي في عهد الحجاج(٦٢) ، فان ذلك يعود ولا شك الى الاجراءات الكثيرة التي كان الحجاج قد اتخذها بعد استتباب الامن في العراق ، من حفر للانهار والقنوات واقامةالقناطر والجسور واستصلاح للمغايض والآجام ، وتجفيف لمساحات واسعة من أرض البطائح ، وهذه ولا شك قد أعطت أكلها في خلافة عمر بن عبدالعزيز (توفي الحجاج سنة ٩٦ هـ وأصبح عمر بن عبد العزيز خليفة سنة ٩٩ هـ) .

واذا كانت هناك روايات تشير الى بعض الأعباء الاضافية التي ربما أثقلت كاهل الفلاح في العراق ، فان الوضع في الشام كان مختلفا ، فسياسة معاوية المالية التي أصبح على الولايات بموجبها ارسال الفائض من الأموال الى بيت المال المركزي، أدت الى تدفق الأموال على الشام ، بالاضافة الى أخماس الغنائم التي كانت ترسل اليها ، مما ادى الى انتعاش الشام وتمتع أهلها كافة بمميزات خاصة ، فنحن مثلا لانجد ذكرا لضرائب اضافية في الشام كتلك التي أشير اليها في العراق ، مما ساعد على ازدهار الزراعة في الشام وبقاء الفلاحين في ارضهم ، على عكس ما حدث فيالعراق في العصر الأموي ، أو في الشام زمن هارون عندما ترك بعض أهالي فلسطين أراضيهم من كثرة الخراج (٦٣) ، أو عندما اشترك عدد كبير من الفلاحين في ثورة المبرقع اليماني سنة ٢٢٧ هـ في فلسطين والاردن ، اذ يشير الطبري الى أن اتباعه كانوا قوما من فلاحي تلك الناحية وأهل القرى وأنهم كانوا في حدود مائة الف (٦٤) .

وتدل الاشارات التي ترد في مصادرنا ، أو التي توصل اليها علماء الآثار الى اهتمام الامويين بالزراعة في الشام ، هذا الاهتمام الذي كان ينعكس بدوره على الفلاحين الذين كانت لهم كلمتهم المسموعة كما يبدو ، والدليل على ذلك أن نهر يزيد كان نهرا صغيرا يجري فيه شيء يسير يسقي ضيعتين في الغوطة لقوم يقال لهم بنو فوقا ، ولم يكن لأحد فيه شيء غيرهم ، فماتوا في خلافة معاوية بن أبي سفيان ، ولم يبق لهم وارث ، فأخذ معاوية ضياعهم وأموالهم ، فلم يزل كذلك حتى مات معاوية ، وولي ابنه يزيد ، فنظر الىأرض واسعة لا يسقيها سوى نهر صغير ، فأمر بحفره فمنعه من ذلك أهل الغوطة ودافعوه ، فلطف بهم على أن ضمن لهم خراج سنتهم من ماله، فأجابوه الى ذلك (٦٥) . وكانت المياه توزع عن طريق الأقنية وما يسمى المواصي ، كما كانت هنالك أنهار عديدة متفرعة عن بردى ، فكان الخليفة يأمر بأن توزع المياه بالعدل على هذه الأنهار عندما تقل المياه في بردى ، وقد بلغ عدد الأنهار المتفرعة عنه في عهد هشام بن عبد الملك ما يزيد على ثلاثة عشر نهرا (٦٦) .

ان الروايات المتناثرة القليلة بين أيدينا لا تسمح لنا باعطاء صورة مفصلة دقيقة عن أوضاع الفلاحين ، الا انها توضح أمرا بالغ الأهمية ، وهو أنه كان من الأصول الكبرى التي قام عليها الفتح العربي تحرير الأرض في الأقطار المفتوحة وانقاذها من سيطرة الطبقة الحاكمة العليا ، وترك زمامها للفلاحين العاملين عليها واستنقاذهم من ألوان الاضطهاد أو الضغط أو الاحتكار . كما الحت كتب الصلح على أن الجزية مقابل المنعة ، يمنع المسلمون الفلاحين، ويحمونهم ويمكنونهم من أرضهم في زراعتها واستثمارها واقتطاف خيراتها ، فيستحق المسلمون لذلك هذه الجزية يتقوون بهـا على امورهم ، فاذا لم تكن منعة لم تكن الجزية . واذا أضفنا الى ذلك المساواة بين الجميع في تحمل العبء ، والغاء الامتيازات التي كانت تتمتع بها طوائف معينة كانت تعفى من ضريبة الراس أو غيرها ، كالطبقات الارستقراطية في الشام ، وأهـل البيوتات والعظماء والهوابـذة والأسـاورة والكتاب في العراق والمناطـق الشرقية ، أمكننا القول أن الادارة الاسلامية خففت أعباء الفلاحين من جهة ورفعت مكانتهم الاجتماعية ، وصان لهم التشريع الاسلامي حريتهم وكرامتهم بعد أن كانوا ادنى طبقة اجتماعية ، سواء في العراق أم في الشام .

* * *

الهوامش :

(١) البلاذري ، فتوح ص ٢٤٢ ، الماوردي ، ص ١٧٣ ، ١٧٤ ، ابن رسته ، الاعلاق النفسية ص ١٠٤ ، ابن الجوزي ، تاريخ عمر بن الخطاب ص ١٢٢ ، ١٢٣ .

(٢) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة السواد .

(٣) ابن منظور ، لسان العرب مادة نبط ، الخطيب البغدادي ، ح١ ص ٥٧

(٤) الطبري ح٣ ص ٣٤٤ ، ٣٤٦ ، ص ٣٤٥ ، البلاذري ، فتوح ص ٢٤٥ .

(٥) الطبري ح٤ ص ٥ .

(٦) المصدر السابق ح٣ ص ٥٢٢ ، ح٨ ص ٧١ .

(٧) المصدر السابق ح١ ص ٣٧٩

(٨) المصدر السابق ح٤ ص ٥ ، ابو يوسف ص ١٣٨

(٩) كريستنسن ، ايران في عهد الساسانيين ص ١٦٨ ، ٣٠٦ نقلا عن امين مارسيلين

(١٠) المرجع السابق ، ص ٣٠٦ .

(١١) الطبري ح٣ ص ٣٥٠ .

(١٢) المصدر السابق ح٣ ص ٣٥٢ ، ٣٥٤ .

(١٣) خليفة بن خياط ، تاريخ ح١ ص ١١٣ ، الطبري ح٤ ص ٥ ، ٣٠ .

(١٤) الطبري ، ح٤ ، ص ٥ .

(١٥) البلاذري ، ص ٣٧٠ ، ٣٧١ .

(١٦) الطبري ح٣ ــ ٥٨٤ ــ ٥٨٦ .

(١٧) المصدر السابق ح٤ ص ٥ ، ٣٠ ، أبو عبيد ، كتاب الاموال ــ ٢٠٠ ــ ٢٠٦ يحيى بن آدم ص ٤٨ .

(١٨) الطبري ، ح٣ ص ٣٦٨ ، ٣٦٩ .

(١٩) المصدر السابق ح٣ ص ٤٤٩ .

(٢٠) يحيى بن آدم ، الخراج ، ص ١٣ ، البلاذري ، فتوح ، ص٢٦٨ ، الطبري ح٣ ، ص ٥٨٦ .

(٢١) الطبري ح٣ ، ص ٥٨٦ .

(٢٢) المصدر السابق ، ح٢ ص ١٥١ ، الدينوري ، الاخبار الطوال ، ص ٧١ .

(٢٣) ابو عبيد ، الاموال ص ٧٤ .

(٢٤) البلاذري ، فتوح ، ص ٢١٨ .

(٢٥) الطبري ح٣ ، ٥٨٥ ، ٥٨٧ ، ٥٨٩ ، ح٤ ص ٥ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٣٧ ، خليفة ابن خياط ح١ ص ١٢٩ .

(٢٦) كان الدهاقين يتدرجون في المركز ما بين دهقان كورة ودهقان طسوج ودهقان قرية ، ويذكر كريستنسن أن الدهاقين انقسموا الى خمسة اقسام يتميز بعضها عن بعض بملابس مختلفة ، وأحيانا كان الدهاقين هم الرؤساء وملاك الاراضي والقرى وأحيانا لم يكن الدهقان نفسه الا أول فلاحي الناحيـــة ، وفي هذه الحال لم يكن له قِبَل الفلاحـــين ما للســادة مالكي الارض من الارستقراطية الرفيعة ، وانما كان ممثل الحكومة أمام حراثي الدولة : (كريستنسن ص ١٠٠) .

(٢٧) اليعقوبي ح٢ ص ١٥٣ ، المقدسي ، بدء ، ح٥ ص ١٦٩ ، البلاذري ، فتوح ، ص ٢٦٤ .

(٢٨) الطبري ح٣ ، ص ٥٨٧ ، أبو عبيد ، الاموال ، ص ٢٠٦ .

(٢٩) المصدر السابق ، ح٣ ، ص ٥٨٨ .

(٣٠) المصدر السابق ، ح٤ ، ص ٣٢ ، البلاذري ، فتوح ص ٢٧٨ .

(٣١) ابو يوسف ، الخراج ، ص ١١٨ ، ١١٩ .

(٣٢) المصدر السابق ، ص ٤٥ ، البلاذري فتوح ص ٢٧٠ ، ٢٧١ .

(٣٣) البلاذري ، فتوح ص ٢٦٨ ــ ٢٧٠

(٣٤) المصدر السابق ، ص ١٢٤ *

(٣٥) البلاذري ، فتوح ص ١٢٣ ، ١٣٢ ، ياقوت الحموي ، معجم البلدان ح٣ ص ٦٤٧، ابويوسف، الخراج ، ص ٨٢ ، ابو عبيد ، ص ٤٠٠) .

(36) Daniel Dannette, **Conversion and the poll - tax in early Islam,** pp. 54 - 55.

Ostrogorsky,**History of the Byzantine State,** trans.Jaan Hussy, P. 34.

(٣٧) البلاذري ، فتوح ص ١٤٢ .

(38) M. Baynes, **The Byzantine Empire,** pp. 102-105

Ostrogorsky, OP. CIT., p. 38.

(٣٩) محمد حميد الله ، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ، ص ٣٧٦ .

(٤٠) ابو يوسف ، الخراج ، ص ٣٠ .

(٤١) البلاذري ، فتوح ص ١٣١ ، ١٢٠ ، الطبري ، ح٣ ص ٤٤٤ .

(٤٢) البلاذري ، فتوح ، ص ١٣١ ، ابو عبيد ، الاموال ص ٥٥ .

(٤٣) ابو يوسف ، ص ٤٨ .

(٤٤) الماوردي ، الاحكام السلطانية ، ص ١٤٨ .

(٤٥) ابو عبيد ، ص٦١ .

(٤٦) الصولي ، ادب الكاتب ص ٢١٥ *

(٤٧) ابو يوسف ، ص ٦٩ .

(٤٨) البلاذري ، فتوح ، ص ١٦٢ ، ١٦٣ .

(٤٩) ولترهينتس Walter Hintz ، المكاييل والاوزان الاسلامية وما يعادلهـا بالنظـام المتري ، ترجمة الدكتور كامل العسلي ، ص٩ .

(٥٠) ابو هلال العسكري ، الاوائل ، ح٢ ص ٣٢ .

(٥١) الطبري ح٣ ص ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٢٦١ ، ٣٦٢ .

(٥٢) المصدر السابق ح٣ ص ٣٦١ ، ٣٦٢ .

(٥٣) ابويوسف ، الخراج ، ص ١٣٠ ، ابو عبيد ، الاموال ، ص ٤٦ ، ٤٧ ، اليعقوبي ، تاريـخ ح٢ ص ٣٠٥ .

(٥٤) الدينوري ، الاخبار الطوال ، ص ٢٨٨ .

(٥٥) يحيى بن آدم ، ص ٧ ، ابن عبد الحكم ، ص ١٥٤ .

(٥٦) يحيى بن آدم ، ص ٧ ، ابو يوسف ، ص ٧٥ ، ابن عبد الحكم ، ص ١٥٤ .

(٥٧) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، المجلدة الاولى ، ص ٥٩٣ .

(٥٨) الطبري ، ح٦ ص ٣٨١ .

(٥٩) المصدر السابق ح٦ ص ٣١٩ ، ٣٢١ .

(٦١) ابن عساكر ، المصدر السابق ، المجلدة الاولى ص ٥٩٤ .

(٦١) ابن رسته ، الاعلاق النفيسة ص ١٠٥ .

(٦٢) الماوردي ، الاحكام السلطانية ص ١٦٧ .

(٦٣) البلاذري ، فتوح ، ص ١٤٩ ، ١٥٠ .

(٦٤) الطبري ، ح٦ ، ص ١١٦ ، ١١٧ .

(٦٥) ابن عساكر ، المصدر السابق ، المجلدة الثانية ، القسم الاول ، ص ١٥٢ .

(٦٦) المصدر السابق ، ص ١٥٢ .

* * *

مُلاحظات
حول نمط الحكم في ولايات التخوم
في الدور العباسي الأول

د . نبيه عاقل
جامعة دمشق

لعل أصعب ما واجه الادارة العباسية في الدور الأول من أدوار حياتها ، قضية الحكم في المقاطعات التي كانت تقع على اطراف دولة الاسلام ، والتي يمكن تسميتها بمقاطعات التخوم ، ولها خصوصيات جغرافية وبشرية فرضت على الدولة سلوكية ادارية ، نحاول في الصفحات التالية الكشف عن بعض خصائصها ، وبيان الأساليب التي اضطرت الادارة العباسية الفتية لاتباعها ، لضمان استمرار سيادتها على هذه المقاطعات .

وتتناول هذه الدراسة مقاطعتين اثنتين من هذه المقاطعات ، كمثالين ، هما : خراسان ، في الشمال الشرقي ، وافريقية في الغرب . وكان اختيارنا لهذين المثالين بسبب تماثل بعض ظروفهما ، ففي كلا المقاطعتين نجد حدودا مفتوحة ، فهي بالتالي عرضة لهجوم خارجي عليها . كما أن هذه الحدود لم تكن مجرد خط مرسوم على الخريطة ، بل هي مزيج مما يمكن تسميته بـ « الحدود الداخلية » التي تفصل بين مساحات تدين بالولاء للدولة ، واخرى لا تدين بمثل هذا الولاء ، وفي خراسان كما في افريقية ، كانت هناك شعوب محلية حريصة على استقلالها ، متشبثة بتقاليدها الموروثة وتنظيماتها الاجتماعية . على أن هذا التشابه لم ينف وجود تمايز في مجالات أخرى . فسكان الامارات الجبلية في خراسان كانوا مختلفين في نواح

عديدة مع المجتمع البربري الافريقي ، الأمر الذي اضطر السلطة العباسية لأن تتعامل مع كل منهما بما يناسب أوضاعها ، وما تتطلبه هذه الأوضاع من ترتيبات ادارية مناسبة . وقد انعكس هذا الوضع الخاص على حرية الدولة في انتقاء الأشخاص الذين يمكن ان توسد اليهم المسؤولية الادارية ، وحد من حرية اختيار الولاة ، بقدر ما حد من نوعية الصلاحيات التي يمكن لهؤلاء الولاة أن يتمتعوا بها .

ففي خراسان مثلا ، كان لابد أن يكون الوالي مقبولا من الحامية العباسية المحلية ، دون أن يلقى اختياره معارضة من الزعماء المحليين . وفي افريقية ، كان على الوالي أن ينتصر أو يسيطر على العنصر البربري المحلي ، وان يتمكن من كسب ولاء الجند المحليين الذين كانوا حريصين على الدوام على الاحتفاظ بمكانتهم المتميزة . وقد ادى هذا الى جعل اختيار الولاة محصورا في فئة من الرجال لهم جذور أو صلات بالمقاطعات ، أو سواهم ممن يستطيعون أن يستقطبوا الولاء المحلي ويجتذبوا الاتباع الذين تعتمدهم السلطة في تثبيت وجودها . وحين يتسلم الوالي سلطاته ، كان لا بد له من السير بحذر في ادارته شؤون الولاية ، لأنه سيواجه بأمور ومشكلات ان لم يكن قادرا على التعامل معها فستطيح به ، أو بهيبة من يمثله . فاذا ما كان كعبد الجبارالأزدي،الذي ولي خراسان للمنصور (١٤٠ هـ) ، والذي كان شديد الاستجابة للضغوط المحلية ، فسيجد نفسه خارجا على سلطان الدولة ثائرا عليها (ثورة الأزدي عام ١٤١ هـ) . أما اذا أراد أن يفرض اوامر الدولة دون أن يأخذ بالاعتبار الظروف والحاجات المحلية ، فسيجد نفسه معزولا من منصبه كما كان الحال مع محمد العكي والي افريقية زمن الرشيد . وكان على الوالي ، في الوقت نفسه ، أن يراقب بحذر كبير « الجبهة الداخلية » ، وأن يرعى شؤونها . فعلي بن عيسى بن ماهان الذي استطاع ارضاء فئة « الابناء » والخليفة معا ، آل أمره الى الفشل لانه لم يفلح في استرضاء بعض العناصر المحلية المتنفذة . وطبيعي أيضا أن الامور كانت تختلف من ولاية الى أخرى ، وذلك حسب طبيعتها الجغرافية وتركيبها السكاني ، ودورها في الحياة العامة للدولة . فأحداث خراسان مثلا كان لها صداها في جميع أصقاع الدولة ، كما كان لها أثرها في رسم سياسة الخلافة بوجه عام . أما افريقية التي كانت تظهر على الدوام ميولا انفصالية ، فقد كان ما يجري فيها لا يؤثر على مجريات السياسة العامة ، وذلك لبعدها عن العاصمة من جهة ، ولما كانت تسعى اليه على الدوام من انفصال عن جسد الدولة . ويتضح ما ذكرناه بصورة جلية في الفترة التي تلت وفاة الخليفة هارون الرشيد ، فخراسان ، وللمرة الثانية خلال قرن واحد من الزمن ، تربعت مكان الصدارة وغدت في موضع القلب من جسد الدولة . ترسم سياستها وتلعب الدور الاهم في الاحداث وتستقطب أبرز الرجال ، ويلجأ اليها

الخليفة المأمون ليقيم فيها ردحا من الزمن . في حين ان افريقية ذات النزعة الانفصالية كما أسلفنا ، لا تلبث بعد موت الرشيد أن تستقل تحت حكم الاسرة الاغلبية ، وتبتعد رويدا رويدا عن مركز السلطة العباسية .

وعلى الرغم من هذين المسارين المتمايزين اللذين أخذتهما الحياة والاحداث في خراسان وافريقية بعد فترة غير طويلة من قيام حكم بني العباس ، فان الباحث يجد العديد من وجوه الشبه بينهما ، مما يجعل المقارنة مجدية لالقاء الاضواء على مشكلة نمط الحكم في ولايات التخوم في الدور العباسي الاول .

خراســـان

كانت خراسان احدى أكبر مقاطعات خلافة بني العباس ،وتشكل الحد الشمالي الشرقي للدولة . كما كان لها مكان فريد في التاريخ العباسي . ففي خراسان شهدت الحركة العباسية مولدها ، وكان لما يجري فيها من أحداث أثره البالغ على بقية أرجاء الدولة . ويمكن ايضاح ذلك بالقول انه اذا ما قامت مشكلة ما في مصر مثلا ، فان هذه المشكلة لن تتعدى آثارها حدود مصر ، ولن تعتبر هما الا لوالي مصر ، ولن تترك بصماتها على بقية ولايات الدولة . أما اذا قام ما يماثل ذلك في خراسان فان الدولة باسرها ستتأثر بما حدث في هذا الاقليم . ولربما كان ذلك بسبب اتساع رقعتها ، وانها تأتي الثالثة من حيث أهميتها الاقتصادية وما يدخل من وارداتها الى بيت مال الدولة ، اذ كان لا يفوقها في مقدار ما تدفعه من ضرائب الا السواد ومصر . ولعل أهم ما يجعلها على هذا المقدار من الخطورة والنفوذ انها كانت موطن الغالبية العظمى من الجند الذين تعتمدهم الدولة في عملياتها العسكرية . وقد كان الجند الخراسانية، على الرغم من سكناهم في العاصمة بغداد، يولون أهمية كبرى لما يجري في موطنهم الاصلي خراسان ، ويتابعون ما يجري فيه ويتأثرون بأحداثه أشد التأثر .

ان أهم ظاهرة تلفت النظر في اقليم خراسان هي ظاهرة التنوع ، ولا سيما على الصعيد الجغرافي ، فهذا الاقليم الذي كان يمتد على رقعة واسعة من الارض تبلغ من الري الى سمرقند ما يعادل ألف ميل ، يتصف بتنوع كبير في المظاهر الجغرافية ، ويمكن تقسيمه الى ثلاث مجموعات طبيعية هي :

أولا : مناطق الواحات ووديان الانهار . وتضم زرفشان ، وواحة مرو ، وخوارزم في دلتا نهر سيحون (oxus) ، ومدنا كبرى كنيسابور والري وما كان فيهما من نظام للاقنية على جانب كبير من التقدم . وتتصف هذه المناطق بازدحام السكان من جهة ، وبنشاط زراعي واسع من جهة اخرى .

ثانيا : المناطق الجبلية ، كمنطقة جبال الهندوكوش التي تقع جنوب نهر سيحون، وجبال كِش والخُتّل بين نهر سيحون وزَرَفْشان ، ومنطقة فرغانة التي تقع الى الشرق من سمرقند .

ثالثا : المناطق الصحراوية والتي تضم صحارى كراكوم Karakum وكيزيل كوم Kizil kum التي تجاور أسفل نهر سيحون (oxus) وتعزل المناطق المأهولة عن بعضها وتجعلها مزقا لا تواصل بينها .

وطبيعي أن هذا الاختلاف في البيئة الجغرافية سيؤدي الى قيام بنى اجتماعية وسياسية متباينة . ففي المدن الكبرى التي قامت في الواحات تمتعت الدولة بسلطان كبير ، اذ سكنها العرب الفاتحون وسيطروا على الحياة العامة . وخير مثال على هذا النوع من المدن : مرو ، وبلخ وهرات ونيسابور وسمرقند . وقد ادت السيطرة العربية على هذه المدن الى ضعف سلطان الحكام الايرانيين المحليين ، واضطرارهم للتخلي عن هذا السلطان الى العرب الوافدين . ولا بد من الملاحظة في هذا المجال ان الطبقة العليا من السكان الايرانيين المحليين حافظت في ظل السيادة العربية على شيء كثير من ثروتها ومكانتها الاجتماعية البارزة . وكان بعضهم يعيش في قلاع حصينة ، ولا سيما في منطقة بخارى ، التي يذكر أحد المؤرخين(١) أنها كانت تضم سبعمائة قلعة لوجهاء ايرانيين يتمتعون بالسلطان والنفوذ .

أما الحال في المناطق الجبلية فكان مختلفا ، اذ أن الطبيعة الجغرافية لهذه المناطق سمحت باستمرار وجود بقايا النظام القديم وبعض رجالاته ، في حين اختفى هذا النظام كليا من المناطق السهلية . ففي ممالك الوديان الصغيرة في أعالي نهر سيحون ، ك : أشروسَنَة ، التي تقع في الجبال التي تطل على وادي فرغانة ، والاجزاء النائية من بادغيس ، استمرت بعض الاسر الحاكمة ، كأسرة الافشين واجداد الطاهريين ، في الحفاظ على سلطتها ومكانتها في المناطق التي تقيم فيها ، ولم يكن للعرب فيها الا بعض مظاهر السيادة الشكلية . ويصح الامر نفسه على خوارزم ، التي استطاعت الحفاظ على استقلالها عن النفوذ العربي على الرغم من كونها منطقة واحات ، ولم تتسرب اليها الا قلة قليلة من العرب . وكان اقتصاد غالبية هذه المناطق اقتصادا رعويا فقيرا . ويتضح فقر هذه المناطق ، اذا ما قورن بمدن السهول الغنية ، مما تورده لنا المصادر حول عائدات الضرائب التي كانت تجبى من هذه وتلك ، ففي حين كان مجموع الضرائب التي تجبى من هرات (١٫١٥٩٫٠٠٠) درهم ، ومن نيسابور (٤٫١٠٨٫٠٠٠) درهم ، كانت ضرائب أشروسنة لا تتجاوز الـ (٥٠٫٠٠٠) درهم ، وضرائب صَغَنيان Saghaniyan) (٤٨٫٥٠٠) درهم ،

اما بمنيان فكانت ضرائبها لا تتجاوز (٥٠٠٠) درهم (٢) . ولكن هذه المناطق على فقرها كانت مهمة بالنسبة للخلافة ، لانها كانت مصدرا مهما لتمويل جيش الخلافة بالرجال ، على الرغم مماكان يحمله هؤلاء الرجال من حقد وكراهية للدولة العباسية وحرص على استقلال بلادهم عنها ، مما جعلهم في كثير من الاحيان مصدر خطر على سيادة الدولة .

لقد لعب حكام خراسان دورا هاما في تاريخ الدولة العباسية في الدور الاول من ادوار حياتها . وعلى الرغم من ان الجغرافيين العرب يقدمون لنا قوائم طويلة بأسماء هؤلاء الحكام وألقابهم (شاه ، اخشيد ، خاقان ... الخ) ، فانهم مقلون في الحديث عن منجزاتهم والاحداث التي جرت في زمنهم . ولعل أفضل وصف لاعمال وحياة حاكم من حكام هذه الامارات يمكن أن يستخلص من وصف محاكمة الافشين ، حاكم أشروسنة ، الذي كان من القواد البارزين في بلاط المعتصم ، والذي اتهم بالعصيان زمن هذا الخليفة ، وبالارتداد عن الاسلام ، الامر الذي يستوجب انزال عقوبة القتل اذا ثبت عليه مثل هذه التهمة . كما كان من بين التهم التي وجهت للافشين قيامه بأعمال وممارسات مخالفة للاسلام ، منها انزاله العقوبات ببعض الاشخاص لانهم كانوا يقومون بالدعوة للاسلام ويحاولون نشره بين السكان المحليين في امارته ، وأنه عقد اتفاقا مع ملوك الصغد يعمل بموجبه معهم على منع انتشار الاسلام في تلك الاصقاع ، واحتفظ ببعض الكتب الدينية الوثنية التي كانت متداولة بين السكان المحليين قبل الفتح الاسلامي لبلادهم ودخولهم في الاسلام ، وأنه كان يطلب من أتباعه أن يعتبروه الهاً وان يخاطبوه بهذه الصفة .

ويبدو من هذه المعلومات التي نستقيها من أخبار محاكمة الافشين حول السياسة التي اتبعها في ادارة مقاطعته ، وما وجه اليه من تهم توضح ممارساته المعادية للاسلام ومحاولته الوقوف في وجه انتشار هذا الدين ، أن الافشين ، وقد يكون العديد من حكام مقاطعات خراسان سواه ، كانوا يجهدون لان يعطوا حكمهم صفة دينية مستوحاة من الاديان المحلية السابقة للاسلام ، وذلك كجزء من محاولاتهم للانفصال عن جسد الخلافة في بغداد ، والاستقلال بما تحت أيديهم من ارض . وتذكر المصادر القابا عديدة لهؤلاء الحكام، ولكن اللقب الاكثر شيوعا هو لقب « دهقان » ، و سنعتمد هذا اللقب في دراستنا هذه .

وطبيعي ان ينجم عن الانقسامات الاجتماعية والجغرافية صراعات سياسية ، وهذه الصراعات هي التي أدت بالنهاية الى قيام الثورة العباسية والحرب الاهلية . ومما يؤسف له أننا لا نملك الكثير من المعلومات حول الحياة السياسية في خراسان في

هذه الفترة ، اذ لم يصل الينا أي من التواريخ المحلية التي عالجت أحداث الدور العباسي الاول في هذه المقاطعة ، ولا بد للباحث من ان يتسقط المعلومات والاخبار مما يتوافر له من مصادر متأخرة ، وغالبا ما تكون هذه المعلومات متضاربة ومشوشة ولا ترسم الصورة الحقيقية الواضحة لاحداث الفترة التي هي موضوع بحثنا . ولهذا فان جل ما نعرفه عن هذه الفترة يعتمد على الظن والتقدير والتخمين ، ولكن لابد لنا من أن نبذل كل جهد مستطاع لاستخدام هذه المعلومات ، على قلتها ، وتوظيفها في محاولتنا لتقصي أخبار هذه المقاطعة ودراستها دراسة معمقة ، لما كان لخراسان من دور رئيسي في حياة خلافة بني العباس في الدور الاول من أدوار حياتها .

كانت أهم المشكلات التي تواجه الخلفاء في هذا الاقليم مشكلات ثلاث ، هي : ١ ـ مشكلة اختيار الولاة ونوعية الصلاحيات التي يمنحونها ، ٢ ـ مشكلة الثورات المحلية والعلاقات مع الدهاقين ، ٣ ـ مشكلة الحدود الشرقية . وواضح ان هذه المشكلات الثلاث مرتبطة بعضها بالبعض الاخر ، وسنحاول فيما يلي دراسة كل منها دراسة مستقلة .

ولعل أول ما يجب أن نشير اليه في هذا المجال ان مساحة ولاية خراسان كانت تختلف من فترة الى أخرى . ففي زمن أبي مسلم الخراساني كان والي خراسان يحكم غالبية ايران ، بما في ذلك منطقة فارس (Fars) ، ولا تدخل في ولايته همذان أو أذربيجان أو السند . وبعد مقتل ابي مسلم تقلصت مساحة الولاية الى حد كبير ، ولكنها ظلت تمتد من مدينة الري الى أقصى الحدود الشمالية الشرقية . وكان حكام المقاطعات التي تقع وراء نهر سيحون (oxus) يعتبرون اتباعا لولاة خراسان . أما سِستان (Sistan) فكان أمرها غير ثابت . ففي زمن أبي مسلم كان حكام سستان من أتباعه وهو الذي يعينهم . ولكن حين آل الامر الى معن بن زائدة عام ١٥١هـ / ٧٦٨ م ، فقد كان الخليفة هو الذي يعين حكام سستان(٣) . ومنذ أن آل الامر الى الخليفة المهدي ، عاد أمر تعيين حكام سستان الى والي خراسان الذي كان يعتبر المسؤول عن هذه المقاطعة . وكان مركز الحكومة ، حتى قيام الحرب الاهلية ، في مدينة مرو ، وذلك فيما عدا فترة السنوات العشر حين كان المهدي يحكم من الري ، وذلك بين ١٤١ ـ ١٥١ هـ/ ٧٥٨ ـ ٧٦٨ م . ويبدو أن المهدي كان يتولى المسؤولية كاملة في مقاطعات المشرق ، وكان يولي خراسان من يدير شؤونها نيابة عنه .

ومنذ مقتل ابي مسلم ، وحتى آل أمر الخلافة الى هارون الرشيد ، كانت العادة أن يولى خراسان ولاة من الاسر العربية الخراسانية التي كانت معروفة بولائها

للعباسيين منذ قيام دعوتهم وثورتهم ، وبالتالي كانت تربطهم بالبيت العباسي روابط وشيجة . ويمكن هنا أن نطرح قضية أحد ولاة خراسان المشهورين ، ألا وهو عبد الجبار بن عبد الرحمن الازدي ، فقد كانت علاقة عبد الجبار بالعباسيين قديمة وتعود الى الفترة التي سبقت ثورتهم . وحين آل الامر اليهم سماه الخليفة العباسي الاول أبو العباس السفاح صاحبا نشرطته ، واستمر كذلك زمن خليفته المنصور . وبسبب هذا الماضي الذي لا تشوبه أية شائبة شعر المنصور أنه خير من يولى على خراسان عام ١٠٤ هـ . ولم تمض سنة على تعيينه حتى اعلن العصيان على الخليفة . ولا نعرف بدقة السبب الذي دعاه لاتخاذ هذا الموقف ، والذي يبدو أنه قرر ان يكون على رأس الجماعة التي كانت تريد زعزعة السلطان العباسي في خراسان، واتخذ من قضية قديمة، كانت تثار منذ أيام بني امية ، ذريعة لهذه الثورة . وتتلخص هذه القضية بأن بعض الزعامات المحلية كانت ترى أن الضرائب التي تجبى من خراسان يجب أن تصرف في خراسان لا أن ترسل الى العاصمة . فتذرع عبد الجبار بهذا الامر ، واضاف عليه ذريعة أخرى حين طلب منه الخليفة المنصور أن يرسل بعضا من أفراد جيشه لينضموا للجيش العباسي في معاركه مع الامبراطورية البيزنطية ، فرفض طلب الخليفة مدعيا بأن الترك المقيمين قرب الحدود الشرقية لولايته يقومون بتحركات مريبة ، وأنه لذلك لا يستطيع أن يلبي طلب الخليفة . وأراد الخليفةان يتحقق من صدق دعواه ، فعرض عليه أن يرسل له جيشا يساعده ضد الترك ، ولكن عبد الجبار رفض عرض الخليفة بحجة أن الموسم في خراسان سيىء وانه لا يستطيع أن يتكفل باطعام الجيش القادم من العاصمة ، وطبيعي أن كل هذا لم يكن يرقى الى حد اعلان العصيان ، ولكنه اثار في ذهن الخليفة مخاوف وشكوك جعلته يمعن التفكير في أمر هذه الولاية . فخراسان بالنسبة للمنصور ، لم تكن سوى ولاية من ولايات الدولة لا تختلف عن سواها : ضرائبها تعود الى بيت مال العاصمة ، وجيشها يشكل جزءا من جيش الخلافة يتحرك بأمر الخليفة وينفذ كل ما يطلب منه من مهام . أما عبد الجبار ، فكان يرى في خراسان ، على ما يبدو ، مقاطعة متميزة لابد وان تعامل معاملة خاصة ، وأن يكون لها ما يشبه الاستقلال(٤) .

ودون ان ندخل في تفاصيل ثورة الازدي ، يمكننا القول ان المنصور سحق هذا العصيان بعد أن كلفه ذلك دماء كثيرة ، الامر الذي حدا به لان يفكر في أسلوب جديد في ادارة شؤون خراسان . لذا أرسل ابنه المهدي الى الري وسلمه مسؤولية ادارة الجزء الشرقي من دولته (٥) . وقام المهدي من جانبه بتعيين ممثلين له في مرو من بين القادة العسكريين العرب الخراسانيين . وقد كان لهذا الاجراء محاسن عديدة أهمها ان سلطة الدولة لم تعد ممثلة بالخليفة القابع بعيدا في بغداد ، بل بابنه المقيم في الري. كما أن خراسان حصلت على ما يمكن تسميته بـ « الوضع الخاص » ، دون أن يهدد

هذا الوضع وحدة الدولة ككل . وقد سارت الامور في خراسان بعد تعيين المهدي على ما يرام ، اذ أن وجوده في خراسان اكسبه خبرة في الحكم من جهة ، وجعله على صلة وثيقة بعامة الناس هناك من جهة أخرى . على أن هذا التدبير لم يتح لـه أن يعيش طويلا ، اذ انه بعد عودة المهدي الى بغداد ليتسلم الخلافة بعد وفاة أبيـه ، سـمي حَمَيْد بن قَحْطَبَة ، واليا على خراسـان . وكان حميد هذا ، سليل احدى أعرق الاسر العربية ، وعادت خراسان ولاية كبقية الولايات تتبع الخليفة المقيم بعيـدا في بغداد ، ويحكمها الجند العرب الخراسانيون . لكن لا حميد بن قحطبة ، ولا من تلاه من الـولاة ، راودتهم أحـلام الانفصال ، ولـم نعد نسمع عـن ثورات يقـوم بهـا حكام المقاطعـات .

واستمر حال خراسان على هذا المنوال حتى العام ١٧٧ هـ / ٧٩٣ م ، حين قرر الخليفة هارون الرشيد تعيين الفضل بن يحي البرمكي واليا عليها . فآل برمك ينتمون الى طبقة مختلفة تمام الاختلاف عن تلك التي كان ينتمي اليها أسلافهـم في الولاية : فهم ايرانيون من جهة ، ومن فئة الدهاقين مـن جهة أخرى . وقـد قرر الفضل بن يحي خلال فترة ولايتـه القصيرة ان يتعـاون تعاونا وثيقـا مع جماعـة الدهاقين . ويتضح ذلك من الحملات العسكرية التي وجهها ضد بعض المقاطعـات . فقد هاجم كابول وانضم اليه في هذا الهجوم أمراء ودهاقنة طُخارِستان ، ومن بينهم حاكم بَمْيان الذي اعاده الفضل الى عرشه . كما قام بحملة أخرى ضـد أُشروسَنَة وتوصل الى اتفاق مع ملكها الذي كان يرفض من قبل مقابلة أي والٍ مسلم . ورأى الفضل أن يقوم في ولايته بأعمال تذكر له فيما بعد ، فقام باشادة عدد من الابنيـة وبنى عددا من القلاع والحصون على الحدود ، وقدم المساعدات لمسـجد بخارى . وبالاضافة الى ذلك جنَّد ما يقارب الخمسين ألف جندي من رجال خراسان ، سمّاهم بـ « العباسية » ، أرسل منهم عشرين الفا الى بغداد ، وأبقى ثلاثين الفا فيخراسان(٦) . وأغلب الظن أن غالبية هؤلاء الجنود كانوا من بين فئـة الدهاقين وأتباعهم . ويذهب البعض الى القول بأن البرامكة أرادوا أن يجعلوا من الجند الذين أرسلوهم الى بغداد جيشا خاصا بهم يحميهم ويأتمر بأمرهم ، ولا سيما وأنهم كانوا في هذه الفترة في أوج قوتهم ولابد لهم من جند يكون ولاؤهم خالصا لهم . كما أنهم ارادوا أن يجعلوا منهم السد الذي يقف في وجه الفئة الاخرى من الجند ، وهي الفئة التي كانت تعرف باسم « الخراسانية » الذين كانوا معروفين بعدائهم لآل برمك وأشياعهم . ويبدو أن من تبقى في خراسان من الجند الذين جندهم الفضل بن يحي قد سرحوا زمن ولايـة علي بن عيسى علىهذا الاقليم ،كما أن بعضهم انضم الى جيش رافع بن الليثوالمأمون .

وقد اعقب ترك الفضل لولاية خراسان ومغادرته اياها في العام ١٧٩هـ /٧٩٥م،

فترة من القلق والفوضى استمرت عاما . وخلفه في الولاية بعد ذلك على بن عيسى ابن ماهان ، الذي كان من خصوم البرامكة والذي كان يعيش بعيدا عن أجواء السلطة منذ وفاة الخليفة الهادي . ويعتبر تعيين علي بن عيسى واليا على خراسان انقلابا كاملا في السياسة الداخلية للدولة في هذه الفترة . وعلى الرغم من اننا لا نعرف تفاصيل الوضع الذي أدى الى هذا الانقلاب في السياسة الداخلية للدولة ، الا انه من الجائز ان يكون للضغط الذي مارسه الجند الخراسانية دور كبير في هذا التغيير ، لا سيما وان الخراسانية قد ساءهم ازدياد نفوذ البرامكة في خراسان ، وان الخليفة الرشيد كان يشعر شعورا مماثلا تجاه هذه الاسرة ويعد العدة لنكبتها المشهورة .

ويصعب على المؤرخ ان يقدم تقويما دقيقا لفترة ولاية علي بن عيسى على خراسان . فعلي في العديد من المصادر شخص ذو مطامح أنانية وصفات تجعله أقرب الى الطاغية (٧) ، وهو كذلك أيضا بالنسبة لباحثين محدثين من أمثال بارتولد ومتحدة ، اللذين يقبلان هذا الوصف (٨) . على أنه لا بد لنا من أن نذكر أن المصادر التي نعتمدها في دراستنا كتبت كلها بعد الحرب الاهلية التي قتل فيها عليّ وشهّر به وبسياسته . ويضاف الى ذلك أيضا أن هذه الصورة التي تعرضها المصادر عن علي تكونت في زمن كانت فيه خراسان تحكم من قبل أسر الدهاقين من أمثال الطاهريين والسامانيين وسواهم ، ممن لا نتوقع منهم أنصافا لشخص كعلي بن عيسى بن ماهان الذي جاء بعد البرامكة .

وأياً كانت حقيقة علي بن عيسى وصفاته ، فانه حين سمي واليا على خراسان سار على سياسة تتلخص في مهاجمة سلطة الدهاقين ومكانتهم المتميزة . ويحدثنا الطبري عما قام به من أعمال للنيل من مكانة وجهاء خراسان وأشرافها ، كما ان الجهشياري يذكر انه قتل العديد من وجوه هذه الولاية وملوكها . ويقيم الجهشياري مقارنة بين سياسة الفضل بن يحي التي كانت تقوم على الاعتماد على الزعماء المحليين، وسياسة علي بن عيسى الذي سار بالاتجاه المعاكس ، وصب جام غضبه على هذه الفئة المتنفذة وحاول حرمانها مما كان لها من امتيازات وجباية ما كان يتوجب عليها من ضرائب ، الامر الذي أدى الى ازدياد واردات خزانة الدولة عما كانت عليه في السابق . ويقدم لنا الطبري مثالين عن شخصيتين من شخصيات خراسان هددهما علي بن عيسى بالموت لتآمرهما عليه : احدهما هو الحسين بن مصعب حاكم بُشَنْغ Bushang الذي هرب من تهديد علي والتجأ الى الخليفة الرشيد ، الذي كان في مكة ، فمنحه الخليفة حمايته . أما الثاني فهو هشام بن فَرخُسرو Farkhusrow الذي كان من كبار ملاك الارض في مرو ، والذي لم يتخلص من سيف علي بن عيسى الا بتظاهره بالاصابة بالشلل(٩) (By feigning poralysis) ولهذين المثالين اللذين

يقدمهما لنا الطبري أهمية فائقة ولا سيما فيما سيلي من أحداث في هذه الولاية اذ أن طاهر بن الحسين بن مصعب ، وعلي بن هشام بن فرخسرو كانا من أوائل الذين انضموا للمأمون وساندوه في صراعه مع أخيه الامين ابان ما يعرف بالحرب الاهاية .

وقد استطاع علي بن عيسى ، بما كان له من تأييد ودعم في الجيش المتواجد في خراسان ، أن يتغلب على الضغوط التي كان يتعرض لها من بغداد والتي كانت تهدف الى اقالته من منصبه . كما أنه استطاع بهذا الدعم أن يواجه المعارضة التي قامت ضده في خراسان . وقد حاول البرامكة ، ما وسعتهم المحاولة ، ان يقنعوا الرشيد باقصائه عن منصبه ففشلوا (١٠) . وقد لجأ علي الى اغداق الهدايا على الخليفة ، والتقى به مرتين (في العام ١٨٣ هـ والعام ١٨٩ هـ) ليبرر له مواقفه ويؤكد ولاءه (١١) . ولم تفلح كل الضغوط التي مورست على الخليفة في بغداد لعزله ، وانما جاء عزله نتيجة للاضطرابات التي قامت في خراسان نفسها ، اذ أن الرشيد على ما يبدو كان مستعدا للتغاضي عن كل ما يقال عن ممارسات علي في خراسان ومعاملته لوجهائها لايمانه بولائه له . ولكن حين قامت في العام ١٩٠ هـ / ٨٠٥م الثورة العارمة في سمرقند ، والتي قادها رافع بن الليث ، حفيد نصر بن سيَّار آخر ولاة بني أمية على خراسان ، اضطر الرشيد لان يرضخ للامر الواقع ويبعد علياً عن هذه الولاية . وقد يبدو غريبا أن الثورة العباسية لم تضع حدا لنفوذ أسرة نصر بن سيَّار ومكانتها، اذ أن الليث بن نصر بن سيَّار وقف الى جانب السلطة العباسية لقمع ثورة المقنَّع الخراساني خلال حكم المهدي ، وكان لابنه رافع قصر منيف في سمرقند (١٢) .

وطبيعي أن شخصية من نوع رافع ، بنفوذها وثروتها ، ستكون موضع سخط وشكوك علي بن عيسى ، ولهذا وفي العام ١٩٠ هـ / ٨٠٦ م حاول سجنه بتهمة الزنا . ولكن رافعاً تحدى الوالي . وسانده في عصيانه أهل سمرقند وأعلنوا ولائهم له(١٣) . وماكاد رافع يعلن ثورته حتى استقطبت هذه الثورة ولاءجميع المناوئين للسلطة العباسية، وأخذت جماعات المناوئين لعلي بن عيسى في جميع مناطق ما وراء النهر تتقاطر على رافع وتنضم اليه . وكان بين الذين انضموا اليه بعض الدهاقين كحاكم الشاش وعَجَيْف بن عَنْبَسة وسواهم ممن لعب دورا بارزا في ثورة رافع(١٤) . وقد أدى هذا التأييد العارم الذي لقيته الثورة الى نجاحها ، ولم تفلح محاولات علي بن عيسي في قمعها . وقتل الثوار ابناً لعلي ، مما جعل الرشيد يشعر أن لا مكان للسلام والهدوء في خراسان ما دام علي فيها، ولكن لا بد من ايجاد الوسيلة لابعاده عنها دونما سفك دماء . لهذا لجأ الرشيد الى أخلص معاونيه وقادته ، هرثمة بن أعين ، فأرسله الى خراسان بحجة مساعدة علي على قمع ثورة رافع . قام هرثمة بعد وصوله الى خراسان باتصالات مع زعماء المعارضة ، من أمثال طاهر بن الحسين وسواه ، بقصد

طمأنتهم واقناعهم بالتوقف عن تأييد رافع . وحين شعر بالاطمئنان الى موقف زعماء المعارضة الداخلية ، التفت الى علي وواجهه بكتاب من الخليفة بعزله وتوليته عوضا عنه . ثم ما لبث أن قبض عليه وأرسله الى بغداد (١٥) .

ولم يؤد عزل علي الى اخماد ثورة خراسان على الفور ، وكان لا بد لهرثمة من أن يقنع العديد من أتباع رافع بالتخلي عنه . كما ساعد على ذلك أيضا انضمام عَجَيْف بن عَنْبَسة وأهل الشاش وفرغانة الى جانب السلطة العباسية . واستطاع هرثمة أن ينقل الحرب الى سمرقند ، وهكذا لم يعد رافع الخطر الداهم الذي يهدد خراسان بكاملها (١٦) . على أن هذا كله لم ينه حالة الاضطراب التي كانت تعيشها هذه المقاطعة . اذ أن رافعاً لم يقض عليه قضاء نهائيا ، كما ظل مستقبل خراسان السياسي غير واضح أو محدد ، ولا سيما على المدى الطويل . وكان أهم ما يشغل البال هو : هل لا بد لحكم خراسان من قائد عسكري كعلي بن عيسى ، أم أنه من الافضل أن تحكم برجال من نوعية البرامكة ، أو هرثمة بن أعين نفسه الذي كانت له صلات وثيقة مع الارستقراطية المحلية المتمثلة بالدهاقين ؟! ومن أجل هذه المعضلة، فقد قرر هارون الرشيد عمل ما لم يعمله أسلافه ،من الخلفاء الامويين او العباسيين، الا وهو زيارة هذه الولاية بنفسه وتقييم الامور على الطبيعة . ولكن المنية عاجلته وهو في الطريق اليها ، وأدت وفاته بطبيعة الحال الى ترك الامور دونما حل .

اما المشكلة الكبرى الثانية التي واجهت السلطة العباسية في خراسان فكانت الثورات والتحركات التي كانت تقوم بين بعض الجماعات غير العربية التي تقطن هذه الولاية . وكان بعض هذه الثروات يأخذ طابعا دينيا ، كأن يدّعي زعيمها النبوة مثلا . على أنه لا بد لنا من ان نذكر ان العديد من أفراد هذه الجماعات كانوا يعتقدون ان لحكامهم صفات قدسية . كما توضح لنا أحداث ومجريات محاكمة الافشين التي جرت زمن الخليفة المعتصم . فقد كان الافشين مسلما ، ولا يوجد في مصادرنا ما يجعلنا نشك بأنه كانت له تطلعات لزعامة دينية . وعلى الرغم من ذلك ، فان جماعته من أهل أشروسنة كانوا ينظرون اليه نظرة تقديس وصلت الى حد تأليهه(١٧) . ولا بد من التنبيه هنا الى أنه الى جانب الاطر الدينية التي كانت تنتظم بعض هذه الثورات ، فانه لا بد لنا من اعتبارها مظهرا من مظاهر الاحتجاج على ما حاوله الحكم العربي من ادخال تغييرات على طرق الحياة التقليدية ، وما اعتبروه اعتداء على حقهم في تسيير امورهم على النحو الذي اعتادوه . كما لا بد من التوضيح أن غالبية هذه الحركات لم تكن حركات انفصالية تود الاستقلال عن السلطان العباسي ، بل كانت في غالبيتها ردة فعل محلية على محاولات مد السلطان السياسي والاجتماعي والديني للدولة الى مناطق لم يكن قد وصلها هذا السلطان في السابق .

أولى هذه الثورات كانت ثورة استاذسيس سنة ١٥٠ هـ / ٧٦٧م . فقد كان استاذسيس هذا حاكما مستقلا في ولاية باذغيس الجبلية البعيدة ، منذ عام ١٤٧ هـ/ ٧٦٤ م ، او ربما قبل ذلك بكثير . وتذكر بعض المصادر أنه ادعى النبوة ، كما تذكر أخرى انه كان من اتباع المصلح الزردشتي بِها فَرِيد Bihafarid . ويصف الطبري الجيش الذي أرسل لقمع ثورة هذا المتمرد بأنه جيش « مسلم » مما يوحي بأن أستاذسيس لم يكن كذلك في نظر الطبري . اما المؤرخ المسيحي أغابيوس ، فيدّعي ان هذه الثورة كانت احتجاجا على محاولات السلطة العربية السيطرة على مناجم الفضة الموجودة في المنطقة ، والتي كانت تدر خيرات كثيرة عليها (١٨) .

وقد وقع الصدام بين جماعة استاذسيس والعرب القاطنين في مَرْوَرُّوذ التي كانت اقرب منطقة يسكنها عرب، وانتهت هذه الصدامات بانتصار جماعة الثوار . وقد اضطر الخليفة المنصور اثر ذلك أن يرسل تعزيزات من سورية وخراسان بقيادة خازم بن خزيمة ، فتحولت هزيمة العرب الى نصر ، واستطاعت السلطة الحاكمة أن تفرض سيادتها على المنطقة .

ومن هذا القبيل ايضا موقعة كبيرة جرت على الطريق بين نيسابور وهرات ، اجبرت فيها القوات العباسية المتمردين على الهرب عائدين الى مناطقهم الجبلية التي انحدروا منها . ويمكن القول أن الدولة في معالجتها لهذا النوع من الاضطرابات كانت تلجأ الى الحكمة والمصالحة ، الى جانب لجوئها للقوة والقمع . فمثلا بعد أن هزمت الجيوش العباسية أستاذسيس واستسلم أتباعه لها ، عفت عنهم وسمحت لثلاثين الف رجل منهم بالعودة الى بلادهم ومنحتهم بعض الهدايا والأعطيات . ويذكر اليعقوبي أن استاذسيس أرسل الى بغداد حيث أوقعت به عقوبة القتل ، ولكننا لا نجد في المصادر الأخرى ما يؤكد هذا الزعم . حتى أن بعض الروايات تذكر أن استاذسيس هو والد مراجل التي تزوجها الرشيد وانجبت له ابنه الخليفة المأمون (١٩) . واذا صح هذا الخبر فيمكن تأويله على انه محاولة من الرشيد لائتلاف أهل باذغيس . كما أنه يفسر لنا السر في العلاقة الطيبة التي كانت تربط المأمون بالطبقة الأرستقراطية في خراسان .

وفي العام ١٦٠ هـ / ٧٧٦ م قامت ثورة يوسف البرْم التي لانعرف عنها الكثير، والتي يبدو ان مركزها كان بخارى . ويعتبرها المؤرخ اليعقوبي حركة احياء ديني . والبرم من أصل غير غربي ، وقد لاقت حركته تأييد الصغد وفرغانة ، ولكن الثورة لم يكتب لها أن تعيش طويلا ، فقد استطاع القائد يزيد بن مزيد أن يهزم البرم وأن يقوده الى بغداد حيث لقي حتفه . وعلى الرغم من أن المصادر لا تزودنا بتفاصيل

وافية عن هذه الثورة ، الا أننا نستطيع القول انها لم ترفع شعارات معادية للاسلام ، كما كانت الحال بالنسبة للعديد من الثورات التي قامت في هذه الولاية ، في هـذه المرحلة من تاريخها(٢٠) .

ومن هذه الزمرة من الاضطرابات يمكن أن نذكر ثورة ثانية قامت في منطقة تختلف كليا عن المنطقة التي نشبت فيها ثورة البرم ، الا وهي الثورة التي قامت في جبال كِش الواقعة جنوب بخارى . فقد كانت كش في الدور العباسي الأول مملكة مستقلة ، وكان زعيم الثورة التي اشتعلت على ارضها شخصا غريبا عنها تسميه بعض المصادر (هاشم) ، وتسميه أخرى (حكيم) ، وكان يلقب بـ « المقنّع » لأنه كان يستر وجهه بقناع ، ولا يرفع هذا القناع حتى أمام اتباعه . ويقال أن والد المقنع جاء من بلخ ، وأن المقنع كان يعمل في خدمة أبي مسلم الخراساني ، كما كان على صلة وثيقة بعبد الجبار الأزدي . وحين فشلت ثورته اقتيد الى بغداد ، حيث بقي لبعض الوقت ، وأطلق سراحه بعدها . ولكنه لم يكتف بما قام به ، اذ مالبث بعد اطلاق سراحه أن عاد الى مرو وادعى النبوة . ويبدو أن أهل مرو لم يتأثروا كثيرا بافكاره التي كانت خليطا من آراء بعض الشيعة الغلاة ومن الافكار المعادية للاسلام ، الأمر الذي لا يجد قبولا كبيرا في بلد كمرو التي كانت من أهم مراكز استيطان العرب في خراسان . لهذا لجأ المقنع الى ارسال دعاته الى بعض المناطق الايرانيـة كالصغد وكش وبعض قرى بخارى ، حيث لقيت دعوته تجاوبا أكبر ، ولهذا أيضا ترك المقنع نفسه مرو وأقام في قلعة بناها في جبال كش ، في موقع لا يسلكنه عرب ولا يُعرف انهم ترددوا اليه كثيرا من قبل (٢١) .

وقعت أولى أحداث ثورة المقنع في مرحلتها الثانية هذه في بخارى ، اذ أن ابن أمـير بخـارى (٢٢) كان مـن الذين اجتذبتهـم دعـوة المقنـع وأفكاره ، وأعتبـر أن هذه الحركـة قد تكـون السبيل الذي يوفـر له التخلص مـن الحكم العربي . ففي عام ١٥٩ هـ / ٧٧٥ م قامت جماعة من اتباع المقنع بذبح المسلمين في احدى قرى واحة بخارى . ولكن الحاكم حسين بن معاذ منع الثوار من الاستيلاء على المدينة ، وصمد في وجههم لمدة اربعة أشهر وصلت بعدها امدادات وتعزيزات من سمرقند . وهكذا نجت بخارى من شرور جماعة المقنع ، ولكن سمرقند نفسها مالبثت أن وقعت فريسة الخطر ، اذ ان المقنع وحليفه خاقان أثراك خَرلوق قاموا بالهجـوم عليهـا ، ووقعت سمرقند فريسة سهلة بيد المقنع . وكان هذا الحادث من أشد ما تعرض له عرب خراسان سوءا ، وكادت معنويات بعض الزعماء العرب المحليين ان تنهار ، لـولا أن تغييرا في القيادة أجري في العام ١٦١ هـ / ٧٧٨ ، وعُين معاذ بن مسلم حاكما على خراسان . قام معاذ باتخاذ اجراءات صارمة ، واستطاع أن يطهر الطرق من العصابات

وقطاع الطرق الاتراك الذين كانوا ينتشرون فيها . كما استطاع بمساعدة سعيد الحرشي ، نائب حاكم هرات ، أن يشن هجوما على قلعة كش نفسها . وكان الفضل لسعيد هذا في اجبار المقنع على الانتحار في معقله الحصين في الجبال وذلك في العام ١٦٣ هـ / ٧٨٠ م .

وهكذا انتهت هذه الثورة التي أقلقت الدولة لفترة من الزمن . وعلى الرغم من أننا لا نستطيع الجزم فيما اذا كانت كش قد عادت للسيادة العربية أم لا ، فانه يمكن القول ان الحال في المنطقة عموما عادت الى سابق عهدها ، وتوطد السلطان العربي في المدن والسهول المأهولة بالسكان . أما ابن امير بخارى ، فقد قتل في مقره بعد ثلاث سنوات من اخماد الثورة ، بتدبير من الادارة العربية . ويبدو ان ذكرى المقنع ظلت حية لبعض الوقت بعد موته ، واعتبره بعض الغلاة من أتباعه نبيا حقيقيا .

وتعتبر ثورة المقنع من أخطر الثورات التي قامت في خراسان ضد الحكم العباسي في هذا الدور الأول ، وتلتها بعض التحركات والانتفاضات التي كانت تعبر عن البرم بالحكم العربي . وقد ازدادت حدة هذه التحركات بعد العام ١٨٠ هـ / ٧٩٦ م حين عين علي بن عيسى حاكما على خراسان . ففي نسا (Nasa) ، وهي موقع في الشمال الغربي من خراسان ، قامت ثورة ابو الخصيب التي استمرت بين مد وجزر لمدة اربع سنوات ، وانتهت بمقتل ابي الخصيب في العام ١٨٦ هـ / ٨٠٢ م (٢٣) . كما ان سجستان خرجت نهائيا من السيادة العربية ، اذ أنه منذ العام ١٨٢ هـ/٧٩٨م كانت هذه المقاطعة تحت سيطرة حمزة بن الأزرق – وهو زعيم خارجي من أصل فارسي – الذياستطاع أن يمد سيطرته على عاصمة المقاطعة التي كانت تعرف باسم زَرَنج ، وتمكن من منع علي بن عيسى والي خراسان من تعيين حاكم لهذه المقاطعة. وقد قام حمزة بغارات وحشية على المناطق الجنوبية من خراسان حول هرات وباذغيس ، ولم تثمر الجهود المكثفة لردعه عن أية نتيجة (٢٤) .

وعلى الرغم من أن هاتين الثورتين قامتا في الريف ، ولم تصل أي منهما لمد سلطانها على مدن خراسان ، فانهما أعاقتا عملية جمع الضرائب ، وأضعفتا من سلطان علي بن عيسى على بعض مناطق ولايته . كما أن هاتين الثورتين تظهران بوضوح الميول الانفصالية التي ما زالت حية في نفوس بعض سكان المناطق النائية من خراسان ، وأن بعض الزعماء المحليين استغلوا كل ذلك لاثارة النقمة ضد السلطان العباسي . وطبيعي ان هذا لا يعني أن ضعفا حقيقيا أصاب سلطان بني العباس في خراسان ، اذ ظلت المناطق الهامة في هذه الولاية تدين بالولاء لهم ولاسيما مناطق : الري ، ونيسابور ، ومرو ، وهرات ، وبلخ . وحتى المناطق التي تعرض السلطان العباسي فيها لهزة مؤقتة أثناء ثورة المقنع ، كبخارى وسمرقند ، فان القضاء على

هذا الثائر جاء ليؤكد من جديد أن الدولة قادرة على كبح جماح الخارجين عليها وبالتالي عادت لتنضوي تحت لواء خلافة بغداد .

وهكذا ، وعلى الرغم من ضعف نفوذ الدولة في بعض المناطق النائية ، فان السلطة العباسية كانت تنظر بارتياح الى مجمل الأوضاع في خراسان .

ولعل اعقد المشاكل التي واجهتها خلافة بغداد هو التحديد الدقيق لحدودها الشمالية الشرقية في خراسان . ففي حالة الحدود مع الامبراطورية البيزنطية مثلا ، كانت هناك منطقة تخضع للنفوذ الاسلامي، وأخرى تخضع للنفوذ المسيحي ، وبينهما منطقة فاصلة أشبه بما يعرف اليوم بالمنطقة العازلة . أما في خراسان فقد كانت هناك بعض المناطق النائية ، كبلخ وسمرقند ، وتخضع لسلطان الدولة بشكل كامل ، في حين أن مناطق أخرى ، كباذغيس وكش ، قريبة من مركز الخلافة ، وليس للدولة سلطان عليها . وبالاضافة الى ذلك كانت هناك قبائل تركية ، ما تزال على البداوة ، تقيم في السهوب الواقعة بين مرو وبخارى ، وليس لبغداد اي سلطان (٢٥) عليها ، وكانت في كثير من الاحيان تقوم بقطع الطريق بين هاتين المدينتين الهامتين . كما انه ليس من السهل تحديد المقاطعات التي كانت تخضع للخلافة ، أو التي لا تخضع لها. فكابول مثلا ، هي بالنسبة للجغرافي الشهير ابن خرداذبة من مقاطعات خراسان ، في حين كانت كابول ، في واقع الحال ، تحكم من قبل أمراء وملوك محليين ، وكل صلتها بالخلافة أنها كانت تدفع الجزية لبيت المال في بغداد في بعض الاحيان .

هكذا يمكن القول أن الخليفة العباسي كان بالنسبة لبعض المقاطعات الحاكم الاسمي ، وان الحكم الفعلي كان للامراء المحليين ، مما يجعل سلطان الدولة الحقيقي مقتصرا على مساحات أصغر من المساحات التي وصل اليها الفاتحون المسلمون في في عصر الفتوح وما تلاه باتجاه الشمال الشرقي .

وبين الفينة والفينة كان حكام خراسان يرسلون الحملات الى الشرق ، بقصد تثبيت عهود الولاء ، التي كان يقطعها الامراء المحليون للسلطة العباسية ، كما كانوا يهدفون الى جباية الجزية ممن يتأخر منهم في دفعها . ولم تستطع هذه الحملات ان تضمن للسلطة العباسية السيطرة المطلقة على مناطق الشرق . ففي العام ١٥٢ هـ/ ٧٦٩ م قاد حميد بن قحطبة الذي كان واليا على خراسان حملة على كابول (٢٦) . وفي نهاية خلافة المنصور ، ارسل الخليفة مولاه ليث ، ليخضع فرغانة . وقد استطاع الليث أن يهزم ملك فرغانة ويجبره على دفع مبلغ كبير من المال مقابل ضمان أمنه وسلامته (٢٧) . وفي خلافة المهدي ، قام أحد قادته ، أحمد بن أسد ، بهجوم آخر

على فرغانة وأخضع بعض الاراضي للسلطان العباسي ، بما في ذلك حاضرة المقاطعة . ويقدم لنا المؤرخ اليعقوبي لائحة بأسماء الامراء الذين أعلنوا ولاءهم للخليفة ، ومن بينهم ملوك كابول وطبرستان والصغد وطخارستان وبميان وفرغانة وأشروسنة وسستان ، كما يذكر ان الترك وبعض ملوك التبت والسند والصين والهند وسواهم ، كانوا من بين الذين أعلنوا هذا الولاء . وكما ذكرنا آنفا ، فقد قام الفضل بن يحي اثناء ولايته على خراسان بارسال حملة الى كابول . وقد رافق قائد هذه الحملة ملوك ودهاقين طخارستان وملك بميان الذي كان الفضل قد عينه في هذا المنصب قبل ذلك . كما ان الفضل الذي كان يتبع سياسة وفاق ومصالحة مع الحكام المحليين ، أقام علاقات ودية مع ملك أشروسنة(٢٩) .

ويبدو انه حين عزل الفضل من منصبه توقف العمل بهذه السياسة الودية ، اذ ان علاقة علي بن عيسى مع الامراء المحليين لم تكن طيبة ، ولكنه لم يقم بحملات ضدهم لان همه الاول كان توطيد الامن في الداخل . ويعود امراء المقاطعات الى الظهور على مسرح الاحداث السياسية في الدولة ، وذلك خلال ثورة رافع بن الليث وفي النزاع بين الامين والمأمون ، الذي وقف فيه هؤلاء الامراء الى جانب المأمون .

وقد وصل التوتر في خراسان أوجه بعد وفاة الخليفة هارون الرشيد ، وخلال النزاع بين الامين والمأمون . اذ أن الامين كان معروفا بصلاته الوثيقة بفئة الابناء وبأهل بغداد ، الامر الذي أتاح الفرصة لدهاقين خراسان أن يكون لهم دور في هذا النزاع . فقد أستطاع الفضل بن سهل ان يضمهم الى صف المأمون ، وهكذا سارت جيوش خراسان غربا لتسقط الحكم في بغداد وتشارك في قتل الخليفة الامين .

افريقية

اتخذ الفتح العربي لشمال افريقية ، كما هو معروف ، شكل الغارة السريعة التي لم تؤد فيبادىء الامر الى السيطرة العربية الكاملة على الارض الافريقية المفتوحة. وقد حقق هذا الفتح فيما حقق انهاء الحكم البيزنطي المتمركز في قرطاج ، والذي كانت له السيادة على السهول الساحلية لمدة قرن ونصف ، وذلك منذ أن قام الامبراطور البيزنطيجستنيان بحملته على شمالافريقية ليعيدها للسيادة البيزنطية، كجزء من مخططه المعروف ، والذي كان يهدف الى استعادة الاراضي التي كانت تخضع للامبراطورية الرومانية وانفصلت عنها بعد أن آل الحكم الى الامبراطورية البيزنطية . وكانت هذه السهول الساحلية تشكل نواة الجزء الذي وقع تحت حكم العرب المسلمين في شمال افريقية ، كما كانت في السابق الجزء الذي سيطرت عليه

الامبراطورية البيزنطية . أما المناطق الجبلية والصحراوية التي تحد بهذه السهول ، فقد ظلت غالبيتها في وضع يمكن تسميته بالحكم الذاتي ، الزعامة فيه للقبائل البربرية المحلية . وكانت هذه القبائل ذات نزعة استقلالية شديدة ، الامر الذي جعلها تتصدى بشراسة لكل محاولة لاخضاعها ، أو اجبارها على دفع الضرائب ، كما فعل اقباط مصر مثلا ، أو سكان العراق المحليين ، بعد أن آلت السيادة الى الفاتحين العرب . وقد تبدت مظاهر المقاومة البربرية بالثورات والحروب المحلية ، وبالمعارك الضارية التي قام بها البربر ، وشاركت فيها بعض العناصر الاخرى من بقايا الجماعات النصرانية أو اليهودية التي كانت تقيم في افريقية قبل الفتح العربي . وقد آل أمر هذه الثورات الى الفشل ، ولعل أشدها ثورة الكاهنة التي استطاع العرب القضاء عليها في العام ٧٨ هـ / ٦٩٧ م .

بعد القضاء على هذه الثورات الطاحنة استطاع العرب مد سلطانهم على هذا الجزء من البر الافريقي ، ونشروا دينهم ، كما جبوا الضرائب واخذوا الاسلاب والاماء ، حتى أن بعض هاته الاماء غدون أمهات لشخصيات بارزة ، من بينهم الخليفة المنصور ، وعبد الرحمن بن معاوية (عبد الرحمن الداخل) أول أمير أموي حكم الاندلس . ولعل أهم صفات هذه الفترة المبكرة من تاريخ الحكم العربي في شمال افريقية هي ضعف هجرة القبائل العربية الى افريقية بقصد الاستقرار فيها ، اذ كانت الحملات العربية الاولى لا تضم أعدادا كبيرة من الجند ، وكانت غالبيتهم تفضل العودة الى المشرق ، أو الاستقرار في بعض المناطق الاسبانية الغنية (٣٠) . أما من استقر منهم في افريقية فقد آثر أن يسكن في المدن الجديدة التي أقامها الفاتحون كالقيروان وتونس وبعض الحصون العسكرية المتقدمة . وفي نهاية حكم الخليفة الاموي هشام بن عبد الملك بدأت الامور تأخذ منحى جديدا ، اذ أن موجة جديدة من المقاومة البربرية أخذت بالظهور ، وكان يقود حركة المقاومة هذه بعض من رجالات الخوارج الذين تسربوا من المشرق . وقد يكون من المفيد هنا أن نذكر بأن الحركة الخارجية التي قامت في المشرق بعد معركة صفين ، ما لبثت ان انقسمت الى فرق متعددة أشهرها الازارقة والصفرية والاباضية . وقد لاقت هذه الحركة مقاومة عنيفة من السلطة الاموية ، واستطاعت خلافة دمشق أن تكيل للخوارج ضربات موجعة أدت الى كسر شوكة الازارقة والصفرية بشكل خاص ، وانتهى الامر بالفرقة الاباضية التي كانت أكثر اعتدالا ، الى قبول نوع من التعايش مع البيت الاموي الحاكم ، وتجمعت غالبيتهم في مدينة البصرة حيث امتهن العديد منهم التجارة ، وغدت لهم اتصالات تجارية مع العديد من بلدان العالم المسلم آنذاك .

وبعد موت الخليفة عبد الملك بن مروان سنة ٨٦هـ/٧٠٥م ، تغيرت سياسة الامويين

تجاه الخوارج واشتدوا في طلبهم ، الامر الذي اضطر هؤلاء لان يفتشوا عن مراكز جديدة لنشاط دعوتهم بعيدا عن أعين السلطة في الشام والعراق . ولذا توجه دعاتهم الى عمان في المشرق ، والى بربر شمال افريقية ، حيث وجدوا تجاوبا كبيرا وترحيبا حارا . ويبدو أنه كان بين أباضية البصرة وبربر شمال افريقية علاقات تجارية سهلت مهمة الدعاة وساعدتهم على نشر أفكارهم . ولا بد من التنويه هنا ان الحركة الخارجية في نهاية فترة الحكم الاموي ، كانت تعني أشياء قد تختلف باختلاف المكان ، ولكنها تتفق اينما وجدت على رفضها دفع الضرائب للدولة . وهذا ما كان عليه رأي البربر أيضا . كما أن الخوارج كانوا يبشرون بالمساواة بين جميع المؤمنين ويقولون ان الامامة حق لكل مؤمن تتوافر فيه شروطها دون النظر الى عرقه أو جنسه أو نسبه ، أو ما شابه . وفي هذه الآراء ، كما هو متوقع ، ما يروق البربر الذين ظنوا أنهم غدوا ، بعد الفتح العربي ، مواطنين من الدرجة الثانية في دولة عربية .

ومنذ العام ١١٧ هـ / ٧٣٥م ، أخذ الدعاة الخوارج يظهرون في افريقية ، وكانوا أول الامر من أتباع الفرقة الصفرية ، ثم تلاهم أتباع الفرقة الاباضية . وقد لاقت دعوتهم رواجا كبيرا بين البربر ولا سيما من كان منهم يقيم في المنطقة الواقعة جنوبي طرابلس وغربي تونس ، مما أدى في العام ١٢٢هـ / ٧٤٠م الى قيام ثوة كبيرة ضد الحكم الاموي ، وذلك بتحريض من الدعاة الخوارج الصفرية(٢٩) . أما الثورة العباسية فلم يكن لها أي أثر في الاحداث في شمال افريقية ، اذ أنه في العام ١٢٧ هـ/ ٧٤٥م وقعت هذه المنطقة تحت سيطرة عبد الرحمن بن حبيب الفهري ، على الرغم من أنه لم يكن مخولا من قبل السلطة الاموية بالولاية أو الحكم ، وجاءت الاحداث التي كانت تعصف بمشرق الدولة والصراع على السلطة بين بني أمية وبني العباس ، لتساعد على تثبيت سلطة عبد الرحمن هذا . وبعد ان حسم الصراع لصالح بني العباس ، وكانت خلافة المنصور ، كتب الخليفة الى عبد الرحمن يطلب منه الدخول في الطاعة . وكان رد عبد الرحمن على طلب الخليفة أن أرسل اليه بعض الهدايا وعهدا بالولاء ، ولكنه افهمه أنه يود الاحتفاظ باستقلاله(٣٢) . وطبيعي أن يكون رد فعل المنصور على هذا الموقف ردا غاضبا . وتشاء الظروف أن ينشب صراع بين عبد الرحمن وبعض أفراد أسرته ، وأن ينتهي هذا الصراع بمقتل عبد الرحمن ١٣٧هـ/٧٥٥م ، فخلفه في الامارة ابنه حبيب بن عبد الرحمن (٣٣) .

وقد استغل البربر هذا الصراع ، لا سيما وأن عبد الرحمن كان شديد البطش بهم ، فقاموا بثورة عارمة ضد الحكم ، وكان الخوارج على رأس هذه الثورة . فقد قاد ورفجومة الصفري جماعة من رجاله ، واستولى على نفزة (Nafza) التي تقع جنوب شرقي القيروان ، واستطاع أن يقتل العديد من الرجالات العرب . على أنه

لم يتح لثورة ورفجومة الصفري أن تعيش طويلا ، وذلك بسبب الاوضاع الداخلية المتردية . وقامت بعدها ثورة أججتها بعض القبائل الاباضية في نفوسة وهوارة جنوب طرابلس ، وقادها امامهم أبو الخطاب الاباضي . واستطاع الاباضية في العام ١٤٠ هـ/ ٧٥٨م أن يستولوا على القيروان وبقية الجزء الغربي من المغرب . وثبّت أبو الخطاب نفوذه في طرابلس ، وعهد بحكم القيروان الى احد أصدقائه الخلص ، عبد الرحمن ابن رستم ، وهو من أصل فارسي (٢٤) .

ان نجاح هذه الثورة كان يعني أن الفتح العربي لشمال افريقية قد أصيب بطعنة قاسية ، وذلك لان الحكام الجدد كانوا مسلمين بربر (غير عرب) يتبعون المذهب الخارجي ، وبالتالي لا تربطهم اية رابطة بالخلافة . ولذا كان لا بد للعباسيين، الذين كانوا حتى الان يقفون موقف المتفرج من هذا الصراع ، أن يولوا شمال افريقة عناية لم يولوها اياها في الماضي . ولهذا الغرض جهزوا حملة قوامها أربعون ألف جندي من الخراسانيين بقيادة القائد المشهور محمد بن الاشعث . وهُزم أبو الخطاب ورجاله هزيمة منكرة ، وتربع ابن الاشعث على كرسي الولاية في القيروان ، وهرب ابن رستم وبقايا الجيش الاباضي باتجاه الغرب الى تاهرت ، حيث أقام لنفسه ولاية مستقلة . وقد استقرت القوات الجديدة في القيروان التي دعمت دفاعاتها ، وأصبحت تونس نواة الجند الذين سيكون لهم الدور البارز في شؤون المقاطعة . وبالاضافة الى ذلك ، فقد عين الحاكم الجديد أحد اتباعه ، وهو خراساني من أصل عربي واسمه أغلب بن سليم ، حاكما على تبنة في الزاب (Zab) ، حيث يستطيع من موقعه هذا ان يراقب تحركات بربر جبال الاوراس (٢٥) (Aurés) .

ولم تكن مهمة الحاكم الجديد مهمة سهلة ، وذلك لان البربر رفضوا الخضوع للسلطة الجديدة ، كما أن الجند الذين شعروا بأهميتهم عملوا على تقوية مركزهم من جهة ، وعلى تأمين أعطياتهم من جهة أخرى . وقد نجح ابن الاشعث في قمع تحركات البربر ، ولكنه فشل في اقامة علاقات طيبة مع الجند ، لاسباب لا نجد تفصيلا لها في المصادر . وفي العام ١٤٨ هـ / ٧٦٥ م قامت جماعة منهم على رأسها عيسى بن موسى الخراساني بثورة عليه وأجبروه على ترك الولاية فآل امرها الى عيسى بن موسى . ولم يطل الامر بعيسى ، حتى ثار عليه أغلب بن سليم وحل محله، وعاد محمد بن الاشعث الى المشرق ، حيث قتل في العام التالي (١٤٩ هـ) أثناء معركة مع الجيش البيزنطي (٢٧) .

وعلى الرغم من أن أغلب خرج من بين صفوف الجند الذين ثاروا على ابن الاشعث وكان ذا شعبية كبيرة بينهم ، الا أن الوقت لم يطل حتى بدأوا يتذمرون منه

ويثيرون القلاقل ضده . ولم يمض عامان على تسلمه السلطة حتى أجبر على قيادة حملة ضد احد زعماء الصفرية يدعى ابو قرة ، كان يقيم في تلمسان ويهدد افريقية . وقد استطاع أغلب أن يدحر أبا قرة ورجاله ، وتابعهم من تلمسان حتى طنجة . ويبدو أن جيش أغلب لم يكن شديد الحماس لهذه الحرب ، لا سيما وانهم دحروا ابا قرة ووجدوا أن لا ضرورة لملاحقته وفضلوا العودة الى بيوتهم . وهكذا تفرق جيشه وانفض من حوله ، الامر الذي ادى الى سنوح الفرصة لقائد حامية تونس ، حسن بن حرب الكندي ، لان يسير على راس فئة من رجاله وأن يحتل القيروان . وحين عاد أغلب مع القلة المتبقية من جنده الى القيروان ، آملا أن يطرد منها الكندي ، كان نصيبه القتل على يد حاميتها وذلك في شعبان من العام ١٥٠ هـ/ ٧٦٨ م (٣٨) . وهكذا اظهر الجند مرة أخرى أنهم العامل الاهم والذي لا بد من أخذه في الحسبان من أجل استقرار الولاية وحكمها .

وبعد موت اغلب ، أرسل الخليفة المنصور عمر بن حفص كحاكم على افريقية . ويعتبر عمر هذا أول ممثل لآل المهلب الذين سيتاح لهم حكم افريقية والسيطرة على الحياة السياسية فيها خلال ربع القرن الذي تلا . وقد وصل عمر الى مقر ولايته في العام ١٥١ هـ / ٧٦٨ م ومعه حوالي خمسمائة من الجند ، ورافق وصوله بدء مرحلة اضطرابات جديدة ، اذ أقام زعماء الخوارج في هذا العام (١٥١ هـ) ، تحالفا فيما بينهم بقصد القضاء على الحكم العباسي في افريقية .

ويقدم لنا ابن عذاري وصفا لتشتيت شمل الثائرين نستطيع أن نستخلص منه بعض المعلومات حول قوة كل من الفئات المتصارعة (٣٩) . فالصفرية الذين كان يقودهم أبو قرة التلمساني كانوا أكبر هذه الفئات . وقد حاول اغلب قبل وفاته أن يهاجمهم ويقضي عليهم ، ولكن حلمه لم يتحقق لان جماعة كبيرة من الخوارج الاباضية انضمت اليهم وساعدتهم على الوقوف في وجهه . وكان على رأس الجماعة الاباضية ابن رستم ومعه خمسة عشر الفا من رجاله من تاهرت . كما انضم اليهم أبو حاتم الذي خلف أبا الخطاب في زعامة خوارج طرابلس ، ومعه خلق كثير ، وعاصم السدرتي (AL - Sadrati) ومعه ستة آلاف من رجاله ، ومسور الزناتي ومعه عشرة آلاف ، وسواهم . وبمواجهة هذا الحشد المعارض ، لم يستطع عمر بن حفص أن يجمع أكثر من خمسة عشر الفا من الجند ، فحوصر في تبنة ، ولكنه تمكن من أن يجبر جماعة أبو قرة من الصفرية أن يعودوا الى ديارهم ، وأن يغلب ابن رستم في موقعة مشهورة وان يعود الى القيروان . ولكن ذلك لم يضع حدا لمتاعبه ، اذ انه ما لبث ، بعد أن عاد الى القيروان ، أن حوصر من قبل قوات أبي حاتم التي كانت تفوق قواته عددا . وفي نهاية العام ١٥٤ هـ / ٧٧١ م قتل أثناء محاولته الهرب من

المدينة ، واستبيحت القيروان من قبل جند أبي حاتم (٤٠) ، وعادت السيادة البربرية على المقاطعة .

ووقع الاختيار على رجل جديد ليقود حملة اعادة الاستقرار في المقاطعة ، وكان هذا الرجل ، كسلفه ، من أفراد أسرة المهالبة ، ألا وهو يزيد بن حاتم الذي كان من بطانة الخليفة المنصور . ويحدثنا ابن عذاري أن الخليفة كان عليما بأمور افريقية ، وانه أرسل رجلا من أخلص رجاله ليعالج الوضع المتدهور في ذلك الاقليم . وكان يزيد يتمتع بمزايا عظيمة ، وقد سبق له أن ولي اذربيجان ومصر . ولم يكن هذا وحده السبب في توليته افريقية في هذا الجو العاصف . ويبدو أن آل المهلب ، بما كان لهم من صلات وثيقة مع أوساط التجار في البصرة ، ولا سيما من كان منهم على مذهب الاباضية ، كانوا خير من يستطيع تولي الامر في هذه الفترة التي كان الاباضيون فيها قوة كبرى يحسب لها ألف حساب في الميدان الافريقي .

وصل يزيد الى افريقية ومعه جيش لا يقل تعداده عن ستين ألفا من الرجال ، وهو اكبر قوة ترسل من مشرق الخلافة الى مغربها (٤١). وضم هذا الجيش رجالا من خراسان والعراق وسورية . وكانت ليزيد تجارب سابقة في هذا النوع من التوطين ، وذلك حين شجع البصريين على الاستقرار في أذربيجان ابان ولايته عليها (٤٢) . وكانت أولى مهامه أن يهزم أبا حاتم قرب طرابلس . وفي ذلك ايذان بانتهاء السيطرة الاباضية ، لا في منطقة طرابلس فحسب ، بل في افريقية عامة . وقد انضم بعض الاباضيين المتحمسين الى جيش ابن رستم في تاهرت ، في حين بقي آخرون منهم في المقاطعات الشرقية ، وفي القيروان نفسها . واستطاع يزيد بحنكته وسياسته ، أن يصلح مابينه وبينهم وأن يضمهم الى صفه . وأظهر مهارته في الميدان التجاري منذ الأيام الاولى لتوليه الولاية ، اذ قام بتنظيم أسواق القيروان وشجع العمليات التجارية ،الا مر الذي سر به الاباضيون ورحبوا به .

وتعتبر فترة السنوات الخمس عشرة التي حكم فيها ، فترة استقرار وسلام . تم خلالها الكثير من المنجزات ، كاعادة اعمار مسجد عقبة وتزيينه بأجمل الزينات ، والاهتمام بالمرافق العامة في المدينة ، وسواها من الامور العمرانية . وكانت سياسته في ادارة المقاطعة تتلخص في أنه اعتمد في حكم الأقاليم على رجال من اسرته ليضمن ولاء هذه الاقاليم . لذا كان من الطبيعي أن يعهد الخليفة الى أخيه روح بولاية افريقية بعد موته في العام ١٧١ هـ / ٧٨٨ م .

كان روح أكبر سنا من أخيه يزيد ، ولكنه لم يكن على مثل دهائه وحنكته .

وقد ساعدته سمعة أسرته في أن يمضي سنوات حكمه الثلاث بهدوء وسلام ، والا تشهد الولاية أية اضطرابات ذات بال (٤٢) وعندما مات في العام ١٧٤ هـ / ٧٩١ م حاول ابنه قبيصة أن يتولى الأمر بعده ، ولكن الجند لم يوافقوا ، وطلبوا الى الخليفة هارون الرشيد أن يوكل أمر الولاية الى مهلبي آخر . وهكذا آل الامر الى نصر بن حبيب دونما معارضة كبيرة . وكان نصر هذا صاحب شورى يزيد بن حاتم ، حين كان واليا على مصر ، ثم حين ولي افريقية . وقد جعله هذا المنصب على صلة وثيقة بالجيش ، في حين أن روح وأولاده لم يكونوا معروفين في افريقية . وكان لروح ابن آخر هو الفضل ، الذي كان يلي حكم منطقة الزاب الستراتيجية حين توفي والده، وقد ساءه أن يرى أسرته تبعد عن الحكم وأن الامر يؤول الى سواهم . ولهذا غادر الزاب الى بغداد ، وقابل الخليفة الرشيد وأقنعه بعزل نصر وتوليته هو . ووافق الخليفة على ذلك ، ويبدو أن البرامكة لعبوا دورا هاما في ايصاله الى ولاية افريقية ، وانهم قصدوا من وراء ذلك جعل افريقية تخضع لسلطان الدولة وسيادتها المباشرة .

كانت بداية ولاية الفضل بداية حسنة ، ولكنه ما لبث بعد فترة قصيرة أن قامت بينه وبين الجند مشاحنات ومنازعات . وكانت بداية هذه الاضطرابات في تونس حيث ولى الفضل ابن اخيه المغيرة حاكما . ولم يتقبل أمراء الجند في تونس هذا التعيين ، وكتب زعيمهم عبد الله بن الجارود رسالة الى الفضل يعلمه فيها بسلوك المغيرة ويطلب اليه عزله . ولم يكن في الرسالة اي تهديد أو تلميح الى عصيان محتمل . ولكن الفضل اعتبر ذلك اهانة له ، وآثر أن يقف الى جانب ابن أخيه . وهكذا بدأ نزاع جديد انتهى بمقتل الفضل بعد أن تخلى عنه جنوده ، وذلك في العام ١٧٨ هـ / ٧٩٤ م ، بعد حكم لم يدم اكثر من سنة (٤٤) . ويعتبر موت الفضل نهاية حكم المهالبة في افريقية . وواضح أن سقوط امرة هذه الاسرة يعود الى عوامل عدة ، من بينها الصراع بين أفرادها على السلطة ، ولكن أهمها السياسة الخاطئة التي اتبعها الفضل والتي تتمثل بمخاصمة الجند ، علما بأن جلهم كان من الذين أحضرهم يزيد بن حاتم معه ، وولاؤهم لآل المهلب غير مشكوك فيه ، برهنوا عليه في أكثر من مناسبة .

ولم تحاول حكومة بغداد أن تعين مهلبيا آخر . ولم تكن صلة الرشيد بالمهالبة متينة كصلة المنصور والمهدي بهم . يضاف الى ذلك أن البرامكة ، الذين كانوا يتولون مقاليد الأمور في بغداد ، كانوا يحرصون على الا يتولى حكم المقاطعات أسرة قوية ، قد تغدو في المستقبل مصدر خطر عليهم . هذا فضلا عن أن نفوذهم بالنسبة للجند لم يكن نفوذا كبيرا . ولذا بدأوا بمفاوضات مع ابن الجارود ، الذي كان يعرف أيضا باسم عبدويه ، وأقنعوه بالقدوم الى بغداد ، حيث استقبل استقبالا حسنا ، وعومل معاملة لائقة . وهكذا كان النصر في ولاية إفريقية الى جانب الجند .

وحاول البرامكة أن يقلبوا الامر لصالحهم ، وأن يضمنوا ولاء افريقية لهم ، ولهذا عينوا هرثمة بن أعيَن حاكما على افريقية . وكان هرثمة من أهم الشخصيات العسكرية التي ترتبط برباط وثيق مع البرامكة ، وتحت امرته ثلاثون الف رجل كان الفضل بن يحى البرمكي قد جمعهم من خراسان ، وأرسلهم غربا حيث قاموا بتهدئة الامور في فلسطين ، وانتقلوا منها الى مصر باتجاه افريقية فوصلوها في العام ١٧٩ هـ / ٧٩٥ م . ولم يكن وصول هذه الحملة الجديدة الى افريقية موجة هجرة جديدة ، كما حدث زمن يزيد بن حاتم ، اذ أن هرثمة استخدم هؤلاء الجند في تثبيت دعائم السلطة العباسية في الولاية ، وبنى الرباط المشهور في مونستير (Monastir) الذي مازال موجودا حتى يومنا هذا . ولم يكن هرثمة راغبا في البقاء في افريقية وطلب الى الخليفة أن يعيده الى المشرق ، فوافق الخليفة على ذلك ، فعاد الى بغداد حيث اتيح له ان يلعب دورا بارزا في الاحداث التي جرت خلال السنوات العشرين التي تلت .

بعد عودة هرثمة ، عين البرامكة رجلا آخر من اتباعهم ليلي افريقية ، هو محمد ابن مقاتل العكي . وكان العكي شابا ، وليس له اية خبرة ادارية سابقة ، هذا فضلا عن أنه لم تكن له اية جذور في افريقية . وكانت حكومة بغداد في هذه الفترة تعاني ضائقة اقتصادية ، وانخفاضا في جباية الضرائب ، الأمر الذي جعل العكي يخفض رواتب الجند . وطبيعي أن هذا التدبير سؤدي الى تذمر هذه الفئة الهامة . وقد زاد في تذمرهم معاملته السيئة لهم واستعلاؤه عليهم . ولم يمض على ولايته سنتان حتى قامت عليه ثورة انتهت بعزله ، وذلك في العام ١٩٣ هـ / ٧٩٩ م . وقد قاد الثورة علي العكي قائد حامية تونس تمام بن تميم التميمي . فغادر تونس الى طرابلس ، ولم يستطيع التميمي أن يسيطر على الأمور في القيروان ، اذ ثار عليه ابراهيم بن الاغلب ، وطرده من القيروان بحجة اعادة الوالي الشرعي محمد العكي الى ولايته . ولكن شعبية العكي لم تكن كبيرة ، ولهذا كاتب ابراهيم الخليفة هارون الرشيد وطلب منه أن يوليه افريقية . وهكذا غدا ابراهيم بن الأغلب (من الأسرة الأغلبية) واليا على افريقية عام ١٨٤ هـ / ٨٠٠ م (٤٥).

ويعتبر ابراهيم بن الأغلب أول حاكم مستقل لافريقية ، ولم يعد للدولة العباسية منذ تسلمه الحكم أي سلطان في تعيين ولاة هذا الاقليم ، او عزلهم . وقد استغل ابراهيم دعم الخليفة له ، فادعى الشرعية في مطاردة تمام التميمي والقضاء عليه . وتم له ذلك ، فانتقل بعدها لتمتين صلته بالجند ، والحد من سلطان الخوارج بين الفئات البربرية ، مما أمن لـه استقرارا داخليا لم تعهده الولاية من قبل .

كان ابراهيم مؤهلا لشغل هذا المنصب ، فقد كان أبوه الاغلب قد انتخب من قبل الجند ليخلف ابن الأشعث ، وبعد وفاته في العام ١٥٠ هـ / ٧٩٠ م غادر ابنه ابراهيم إفريقية الى مصر حيث لم يبق طويلا . وفي العام ١٧٤ هـ / ٧٩٠ م عاد الى الزاب حيث استغل فترة الاضطرابات زمن حكم المهالبة ليثبت مركزه وليرفع من شأنه بين السكان المحليين ، حتى غدا سيد المنطقة بلا منازع . ولما وصل هرثمة بن اعين ليهدىء الأمور وينشر الاستقرار ، سالمه ابراهيم ، وأصبحت الزاب منطقة مستقلة يعود أمرها الى بغداد مباشرة وليس الى والي إفريقية . وفي هذه الفترة قدم ابراهيم خدمة جليلة للرشيد اذ دبر أمر دس السم لادريس بن عبد الله ، الشخصية الشيعية المعروفة ، المناوئة للرشيد . وبذلك زادت حظوته عند خليفة بغداد . واستغل ابراهيم ثورة الجند ضد محمد العكي ، كما أسلفنا ، ففدا الطريق مفتوحا أمامه للوصول الى منصب الوالي بشكل شرعي . وكان ابن الأغلب سليل أسرة عريقة في سلك الجندية ، كما كان قائد أهم حامية حدودية في افريقية . وقد زكاه القائد هرثمة ، فاعتمده الرشيد في مؤامرته ضد ادريس بن عبد الله . وسار في حبك خيوط مؤامرته شوطا أبعد ، اذ قام بعقد صفقة مالية مع الخليفة تنص ، لا على استغناء ولاية افريقية عن المعونة المالية التي كانت تدفع لها من ولاية مصر فحسب ، ومقدارها مئة ألف درهم سنويا ، بل وعد الخليفة أن يمد خزانة الدولة في بغداد بمبلغ سنوي لايقل عن اربعين ألف درهم . وهكذا شعر الخليفة أنه وقع على الشخص المناسب لهذا المنصب الذي كان مصدر قلق له . ولكنه كان ، في الوقت نفسه ، حذرا ، فعينه واليا دون أن يكون له حق توريث المنصب لأولاده من بعده ، أو أن تكون له أية حقوق تميزه عن سواه من حكام الأقاليم .

وماكاد الامر يؤول الى ابراهيم حتى شدد قبضته على الولاية ، فأنشأ حرسا خاصا قوامه خمسة آلاف من العبيد السود يدينون له بالولاء الشخصي ، وأقام لنفسه قلعة محصنة سماها « العباسية » قرب القيروان ، حيث نقل اليها جميع الادارات والمؤسسات التي تساهم معه في حكم البلاد . أما علاقاته بالجند فكانت دقيقة ، ففي العام ١٨٦ هـ / ٨٠٢ وقف الجند الى جانبه حين قامت عليه ثورة في تونس ، ولكن هذه العلاقات مالبثت أن تدهورت في العام ١٩٤ هـ / ٨١٠ م ، اذ أنه زاد في استيراد العبيد لحرسه الخاص ، كما تأخر في دفع مرتباتهم ، الأمر الذي حدا بهم الى الثورة عليه في ذلك العام . ووجد ابراهيم نفسه مضطرا للاستعانة بالخليفة الأمين ، الذي قدم له المساعدة اللازمة . واستطاع ابراهيم أن يتغلب على ثورة الجند ولكنه لم يقسو على زعمائهم بل اكتفى بنفيهم من الزاب .

وتوفي ابراهيم في العام ١٩٦ هـ / ٨١٢ م ، وكان بمقدور الخليفة العباسي أن

يتخلص منه ومن أعقابه بتعيين وال جديد ، ولكن الظروف الداخلية في الدولة العباسية في فترة النزاع بين الأمين والمامون لم تسمح بذلك . وقبل الأمين أن يتولى ابنه عبد الله بن ابراهيم الولاية مقابل وعده بتقديم العون للامين في صراعه مع أخيه . وبعد وفاة عبد الله ، ولي كرسي الامارة في افريقية ابن ثان لابراهيم ، هو زيادة الله، وذلك في العام ٢٠١ هـ / ٨١٧ م ، دونما موافقة من خليفة بغداد . وقد حكم زيادة الله مدة اثنين وعشرين عاما مما ادى الى تثبيت دعائم الحكم الأغلبي ، وحين اراد المأمون ، بعد أن صفا الجو له ، أن يمد بصره الى افريقية ، وجد أن هذه الولاية قد خرجت عن الطوق العباسي .

يتضح مما تقدم من عرض لانماط الحكم في ولايتين من ولايات التخوم من الدور العباسي الأول ، أن مسيرة الحكم في كل من الولايتين كان مختلفا . فقد ادى النصر في الحرب الأهلية وحكم الأسرة الطاهرية الى ضم خراسان وتوثيق ارتباطها بالعالم الاسلامي . وقبل الأمراء المحليون بالتخلي عن عزلتهم ومكانتهم الخاصة التقليدية والاندماج في جسد الدولة أكثر من ذي قبل . أما افريقية ، فقد غدت على النقيض قوة متوسطية مستقلة ، وغدت القيروان المركز الثقافي والفكري للشمال الافريقي المسلم . وفي كلا الحالتين ، بدأ هذا التطور في البروز ، والولايتان مازالتا في حضن الدولة العباسية ، وجزءا لا يتجزأ منها . ويظل الأمر المهم ، أنه في حالة هاتين الولايتين ، كانت الخلافة العباسية في بغداد لاتتمتع بنفوذ كبير ، كما كانت سلطة الادارة المركزية شبه مفقودة ، والخليفة شخصية رمزية أكثر منه شخصية فاعلة . وكان الخليفة وواليه على كل من هاتين المقاطعتين يتعثران على الدوام بالصدامات التي فرضت عليهم من القوى المحلية ، وما كان الحكم العباسي يستطيع البقاء لولا لجوء الخلفاء الى الصبر والأناة واستعدادهم للقبول بالحلول الوسط والمظاهر الشكلية للسلطة فحسب .

* * *

الهوامش :

(١) Narshakhi, **The history of Bukhara,**trans. R.Erye (Cambridge, Mass 1954) pp.62 - 63.

(٢) انظر ، ابن خرداذبة ، « مسالك » ص ٢٤ ـ ٢٩ حيث تجد تفصيلات أوفى حول موضوع الضرائب.

(٣) الطبري ، دي خوية ، ص ٣٦٨ . وانظر أيضا :
C.E.Bosworth, **Sistan under the Arabs,** ed . Rome,, 1968.

(٤) انظر ، الطبري ، دى خوية ، ج٣ ، ص ١٢٨ ، ١٣٤ ـ ١٣٥

(٥) المصدر السابق،ص ١٣٤

(٦) المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٦٢٩ ، ٦٣١ ـ ٦٣٧ ، ٦٣٨ . وانظر ايضا اليعقوبي ، ط . هوتسما ، ليدن ١٨٨٣ ، ج٢ ، ص ٤٩٢ .

(٧) انظر مثلا ، الطبري ، ج٣ ص ٧١٣ ـ ٧١٨ ، والجهشياري « كتاب الـوزراء » ط . السقا ، القاهرة ، ١٩٣٨، ص٢٢٨ .

(8) Barthold, V., **Turkestan down to the Mongol invasion,** London, 1928, p.203 ; Mottahedeh, R. , **the Abbasid caliphate in Iran,** Cambridge History if Iran, vol.4, pp.70 - 71.

(٩) انظر التفاصيل في : الطبري ، ج٣ ، ص ٧١٣ ـ ٧١٨ . وانظر أيضا : الجهشياري ، « وزراء » ، ص ٢٢٨ ، والاصفهاني ، « كتاب الاغاني » ط .دار الكتب ، ج٥ ، ص ٣١٢ .

(١٠) انظر ، الطبري ، ج٣ ، ص ٦٧٥ ، والجهشيارى، وزراء ، ص ٢٢٨ .

(١١) انظر التفاصيل في : الطبري ،ج٣ ، ص ٦٤٨ ـ ٦٤٩ ، ٧٠٤ .

(١٢) ابن الاثير ، « الكامل في التاريخ » ط. تورنبرغ ليدن ١٨٦٦ـ١٨٧٧ ، ج ٦ ، ص٢٦

(١٣) اليعقوبي ، (تاريخ) ، ط. هوتسما ،ليدن ١٨٨٣ ، ج٢ ، ص ٥٢٨ .

(١٤) الطبري ،ج٣ ، ص ٧١٢ ، ٧٣٢

(١٥) انظر التفاصيل في الطبري ، ج٣ ، ص ٧١٩ ـ ٧٢٧ ، واليعقوبي ، ج٢ ، ص ٥٢٨ .

(١٦) الطبري ، ج٣، ص ٧٣٢ .

(١٧) انظر مايذكره E. G. Brown في كتابه **Literary History of persia** حول محاكمة الافشين والنقاش حول موضوع ألوهيته .

(١٨) انظر الطبري ، ج٣ ، ص ٣٥٤ـ٣٥٨ ، اليعقوبي ،ج٢ ، ص ٤٥٧ ـ ٤٥٨ . وقارن ذلك بما جاءعند: أغابيوس المنبجي ، « كتاب العنوان » ، ط فازيليف ، ص ٥٤٤ ، في :
Patrolgia orientalis, V111, Paris, 1911.

(١٩) انظر المسعودي « مروج الذهب » ط. بيروت ١٩٧٣ ، ج٤ ، ص٢٩٩ .

(٢٠) انظر اخبار هذه الثورة في : الطبري ، ج٣ ، ص ٤٧٠ ، واليعقوبي ، ج٢ ، ص ٤٧٨ .

(٢١) انظر الطبري ، ج٣ ، ص ٤٨٤ وانظر أيضا : Barthold, V. , op. cit. , pp. 199 - 200.

(٢٢) كان امير بخارى يعرف بلقب « بخارى خدا » .

(٢٣) الطبري ، ج٣ ، ص ٦٤٩ ، ٦٥٠ ، ٦٥١ .

(٢٤) المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٦٣٨ ، ٦٥٠ . وانظر أيضا : ابن الاثير ، ط. تورنبرغ ، ج٦ ، ص ١٠١ ، ١٠٣ ، ١١٤ ، ١٣٤ .

(٢٥) (25) Nashakhi, op. cit. ' pp. 71 - 72.

(٢٦) انظر : الطبري ، ج٣ ، ص ٣٦٩ .

(٢٧) اليعقوبي ، ج٢ ، ص٤٦٥ .

(٢٨) المصدر السابق ، ص ٤٧٩ .

(٢٩) انظر : الطبري ، ج٣ ، ص ٦٢١ .

(٣٠) (30) Talbi, M.,**L' Emirat Aghlabide,** ed Paris, 1966 , pp. 12 - 22

(٣١) (31) Talbi, op. cit. , pp. 37-41

(٣٢) (32) Talbi, op. cit. ' pp. 35-37.

(٣٣) ابن عذاري « البيان المغرب » ج١ ، ط. كولين وليفي بروفنسال ، ١٩٤٨ ، ص ٦٧-٧٠ .

(٣٤) ابن عذاري ، ج١ ، ص ٧٠-٧١ .

(٣٥) البلاذري « فتوح » ، ص ٢٧٥ .

(٣٦) ابن عذاري « البيان » ج١ ، ص ٧٢-٧٣ .

(٣٧) الطبـري ، ج٣ ، ص ٣٥٣ .

(٣٨) ابن عذاري « البيان » ج١ ، ص ٧٤ - ٧٥ .

(٣٩) المصدر السابق ، ص ٧٥ .

(٤٠) ابن عذاري ، ج١ ، ص ٧٥-٧٨ .

(٤١) الطبري ، ج٣ ص ٣٧٢ ، ابن عذاري ، ج١ ، ص ٧٨ - ٧٩ .

(٤٢) اليعقوبي ، ج٢ ، ص٤٤٦ .

(٤٣) انظر أخبار فترة ولايته في : ابن عذاري ، ج١ ، ص ٨٤ - ٨٥ .

(٤٤) ابن عذاري ، ج١ ، ص ٨٥ - ٨٨ .

(٤٥) ابن عذاري « البيان » ج١ ، ص ٨٩ - ٩٢ .

الاقتصاد الدمشقي في مواجهة الاقتصاد الأوربي في القرن التاسع عشر

د . عبد الكريم رافق
جامعة دمشق

يعد القرن التاسع عشر نقطة تحول هامة في تاريخ الوطن العربي، مشرقه ومغربه، على حد سواء ، بسبب شدة المجابهة بينه وبين الدول الاوربية الصناعية ، التي تحولت الى استعمار اقطاره ، مخضعة اقتصاده لخدمة مصالحها الرأسمالية .

وفي المجال الاقتصادي ، الذي يعنى به هذا البحث ، تبدت المجابهة على صعد متعددة ، أهمها التجارة والصناعة . وكانت ردود الفعل المحلية هامة لانه ، رغم شدة المجابهة ، لم تستسلم الفعاليات المحلية للتحدي الاوربي ، بل طورت انشطتها الاقتصادية للتأقلم مع الواقع الطارىء . ونتج عن ذلك فرز اجتماعي وطبقي جديد ، فظهرت البورجوازية المحلية المرتبطة بالغرب ، وحدثت تبدلات موازية على المستويين السياسي والفكري . *

---

* للباحث بحثان يمتان بصلة لهذا البحث ، نشر الاول بعنوان : « مظاهر من التنظيم الحرفي في بلاد الشام في العهد العثماني » ، مجلة دراسات تاريخية ، العدد الرابع ، نيسان ١٩٨١ . والثاني اعد للندوة التي انعقدت في استراسبورغ بفرنسا (١ ـ ٥ تموز ١٩٨٠) حول الاقتصاد والمجتمعات في الامبراطورية العثمانية (من نهاية القرن الثامن عشر حتى اوائل القرن العشرين) وهو باللغة الانكليزية ، وقد نشر في الكتاب التالي : (عنوان البحث واسم الكتاب) .

«The impact of Europe, on a traditional economy : the case of Damascus, 1840 - 1870 » in **Economie et Sociétés dans l' Empire Ottomane (fin du XVIIIe - début du XXe siécle)**,eds. Jean - Louis Bacqué - Grammont et Paul Dumont, Editions CNRS, Paris, 1983.

التبدلات التجـارية

تمتعت مدينة حلب بموقع تجاري ممتاز في القرنين الاولين من الحكم العثماني ، اذ انفتحت امامها أسـواق الامبراطورية العثمانيـة ، وبخاصـة مناطق الاناضـول المجاورة (١) . وكانت مركزا هاما لتجارة المرور بين اوربا من ناحية وايران والشرق الاقصى من ناحية اخرى ، بطريق العراق والخليج العربي . ويشهد على نشاط حلب التجاري ما بني فيها من اسواق وخانات لتصريف البضائع محليا او لشحنها الى ماوراء الحدود ، وكان ميناؤها الطبيعي الاسكندرونة ، كما استخدم ميناء طرابلس في نقـل البضائع منها واليها . ونظرا للدور التجاري الهام الذي لعبتـه حلب محليا ودوليـا اقامت الدول التجاريـة الاوربية ، وابرزها انكلترا وفرنسا ، ممثلين تجاريين فيها . واتخذ هؤلاء الصفة السياسية كقناصل لدولهم . ومن ذلك اقامة الانكليز مركزا لشركة بلاد المشرق (ليفانت) في حلب في عام ١٥٨١ ، الى جانب المراكز الرئيسية الاخرى لهذه الشركة في استانبول وأزمير . وكان لهذه المراكز مراسلات تجارية ودبلوماسية مـع مركز الشركة الرئيسي في لندن . واستمرت هذه الشركة في العمل الى أن قضت عليها منافسة شركة الهندالشرقية ، وتوقفت في عام ١٨٣٥(٢) .

واقام الفرنسيون ممثلين تجاريين ـ دبلوماسيين لهم في حلـب في اواخر القرن السادس عشر ، وتعود رسائلهم الى عـام ١٦٠٠ ، وهي محفوظـة في غرفة تجـارة مرسيليا التي كانت المسؤولة عنهم والموجهة الرئيسية للتجارة الخارجيـة لفرنسـا . وتمتع التجار الاجانب بامتيازات تجارية وقانونيـة بموجب نظام الامتيازات الذي بدأ في عام ١٥٣٦ واستمر حتى النصف الاول من القرن العشرين .

ولم تكن دمشـق بمثل أهمية حلب في المجـال التجاري ، فنشـاطها في تجارة المرور لم يتعد نطاق بغداد والحجـاز ومصر . وحتى في هذا النطـاق ، كانت خطوط تجارتها تحت رحمة القبائل البدوية التي تسيطر على معظم هذه الطرق . ولكن دمشق افادت الشيء الكثير من كونها مركز تجمع قافلة الحج الشامي التي كان ينضم اليهـا الحجاج من المناطق الشمالية والشـرقية ، وتبلغ أعدادهم في كل سـنة ما يقـرب مـن خمسـة عشـر الى عشـرين ألف حـاج ، يتجمعون في دمشـق ، ويحملـون البضائع منها واليها ، من بلادهم الاصلية ومن الحجاز. لذلك كانت قافلة الحج الشامي على جانب كبير من الاهمية التجارية بالنسبة لدمشق ومنطقتها(٣) . ونظرا لعدم أهمية دمشق بالنسبة لتجارة المرور الاوربيـة ، بالمقارنة مـع حلب ، لم يكـن للاجانب فيها ممثلون او قناصل الى ان سيطر عليها محمد علي باشا والي مصر عام ١٨٣١ . وكان

تعامل التجار الاجانب مع دمشق وريفها قبل ذلك ، يتم بوساطة وكلائهم فيها ، او عن طريق ممثليهم من القناصل ونوابهم في المدن الساحلية ، وبخاصة صيدا .

وقد تضررت تجارة المرور في حلب ، في الربع الاول من القرن التاسع عشر ، حين احتلت روسيا ، في عهد القيصر بطرس الاكبر ، المناطق المنتجة للحرير في شمالي بلاد فارس ، وذلك في عامي ١٧٢١ ــ ١٧٢٢ ، وانقطع بذلك تدفق الحرير الفارسي الى حلب وعبرها الى أوربا . ورافق ذلك في الوقت نفسه تردي الوضع السياسي بين العثمانيين وحكام بلاد فارس واستئناف القتال بين الفريقين ، وبخاصة في الربع الثاني من القرن الثامن عشر ، حين سيطر نادر شاه على الحكم في بلاد فارس وأنهى حكم السلالة الصفوية فيها . وكان لهذا الوضع اثره الكبير على تحجيم النشاط التجاري بين حلب واصفهان والخليج العربي وما ورائه .

وصادف في تلك الاثناء ازدياد الاهتمام الفرنسي التجاري ببلاد الشام الجنوبية ، اذ استغلت البورجوازية التجارية الفرنسية معاهدة اوترخت عام ١٧١٣ التي اتت بالسلام لفرنسا وأمنت خطوط مواصلاتها في المتوسط ، فوسعت من نشاطها التجاري الخارجي بدعم من الملكية الفرنسية . واشتدت منذئذ المنافسة التجارية بين فرنسا ، التي ركزت اهتمامها على بلاد الشام الجنوبية ، وبين انكلترا التي تركز اهتمامها على حلب(٤) .

ومما حد أيضا من تجارة حلب اشتداد منافسة الشركة الانكليزية ــ الموسكوفية لشركة الليفانت ، بعد أن منحت الاولى حق المتاجرة مع بلاد فارس . وادى ضعف الدولة العثمانية ، واضطراب الامن في الطرق الرئيسية بين حلب ومينائها الطبيعي الاسكندرونة ، التي كثر فيها قطاع الطرق ، الى الحاق ضرر كبير بتجارة حلب . وتضاءل اهتمام اوربا ، في اعقاب الثورة الصناعية ، بشراء المنتجات المحلية بطريق المقايضة ، لان المنتجات الاوربية الصناعية بدأت تفرض نفسها بمقابل المال . ووجد القطن المحلي ، الذي كانت تستورده اوربا من حلب والاناضول ، منافسا قويا له في قطن البنغال الاجود والارخص ، بالنسبة للصناعة الاوربية .

ونتج عن الثورة الصناعية الاوربية ان ازدادت منتجات اوربا ، واتسعت السفن التجارية التي اخذت تسير بقوة البخار ، وأصبحت الحاجة ملحة للبحث عن مواني كبيرة تتسع لهذه السفن وحجم البضائع التي تحملها . ولم تكن المواني القائمة حينذاك ، مثل الاسكندرونة وطرابلس وصيدا ، لتفي بهذا الغرض ، لذا بدأ انشاء ميناء بيروت الذي طغى على ما حوله منذ القرن التاسع عشر ، وأفادت دمشق الشيء الكثير من نمو هذا الميناء وتدفق بضائعه ، عبرها ، الى الداخل وما ورائه .

وفي العقد الثاني من القرن التاسع عشر بدأ الفرنسيون يهتمون ببيروت، وباقامة ممثلين لهم فيها . ولهذا ، سمى القنصل الفرنسي في حلب ، في أواخر عام ١٨١٩، وكيلا مؤقتا في بيروت التي وصفها « بانها اليوم الميناء الناشط لدمشق »(٥) . وفي عام ١٨٢٢ وافقت سلطات باريس على تسمية السيد جان باتيست بودان (Jean Batiste Beaudin) للوكالة القنصلية في دمشق ، المرتبطة بالقنصلية العامة في حلب . وقد وصل السيد بودان الى دمشق في أواخر شباط ١٨٢٤ ، وبدأ بممارسة أعماله في الاول من اذار . ولكن والي دمشق رفض الاعتراف به رسميا ، ومع ذلك ، سمح له بالبقاء في دمشق ريثمايحصل على فرمان من استانبول يعترف به « كوكيل لطائفة الفرنساوية » . وهكذا ، لم يتم تعيين قنصل رسمي لفرنسا في دمشق حتى ٨ تموز ١٨٣٩ حين أصدر ملك فرنسا قرارا بانشاء قنصلية في دمشق . وكان أول قنصل بريطاني فيدمشق قد عين قبل ذلك بست سنوات(٦) . وسرعان ما أصبح للدول الاجنبية الاخرى ، مثل بروسيا والولايات المتحدة الامريكية ، والنمسا ، واليونان ، قنصليات في دمشق .

وشجع النشاط التجاري الاوربي في بلاد الشام آنذاك الامتيازات التجارية الواسعة التي منحتها الدولة العثمانية لبريطانيا ، ثم للدول الاخرى . فقد عقدت اتفاقية تجارية ، بين الدولة العثمانية وبريطانيا في عام ١٨٣٨ ، سرعان ما طبقت بنودها على دول أوربية أخرى ، ونصت على الا تتجاوز الضرائب الجمركية التي تتلقاها الدولة العثمانية على البضائع الاوربية المستوردة خمسة بالمائة . وقد زاد هذا الى حد كبير من النشاط التجاري الاوربي ، ومن استيراد البضائع الاوربية الى الدولة العثمانية . وطبقت نصوص هذه الاتفاقية في بلاد الشام بعد انسحاب قوات محمد علي باشا منها . وبالمقابل، كانت التجارة الداخلية ،في الدولة العثمانية ، تخضع لنسبة من الضرائب الجمركية أعلى بكثير ، مما اضر بها واضعف من منافستها للبضائع الاوربية المستوردة .

وكان محمد علي باشا ، ابان حكمه في بلاد الشام ، بين عامي ١٨٣١ و ١٨٤٠ ، قد فتح الباب على مصراعيه للؤثرات الاوربية على اختلاف أنواعها . وتدفقت البضائع الاجنبية واخذت تنافس ، بصورة جدية ، البضائع المحلية . وقد جاء في التقرير الذي رفعه جون باورينغ (John Bowring) الى وزير الخارجية البريطاني اللورد بالمرستون، بتاريخ ١٧ تموز ١٨٣٩ ، وتناول فيه احصاءات وتفاصيل تجارية واجتماعية حول بلاد الشام ، ان مجموع الدكاكين التي تبيع البضائع الانكليزية بالمفرق، في دمشق ، بلغ مائة وسبعة دكاكين يقدر مجموع رؤوس الاموال التي وظفها اصحابها في اعمالهم بمبلغ يراوح بين ٠٠٠ر٦٠٠ر١ و ٠٠٠ر١٠٠ر٢ قرش . واضاف التقرير ان

التجار المسلمين والمسيحيين واليهود قد شاركوا ، على حد سواء ، في المتاجرة مع أوربا وفي تسويق بضائعها . وبلغ مجموع المؤسسات ، أو البيوتات التجارية ، التي كان يملكها مسلمون في دمشق وتتاجر مع اوربا ، ستة وستين ، يراوح مجموع رؤوس أموالها بين عشرين وخمسة وعشرين مليونا من القروش . ومن هذه البيوتات ثمانية يزيد راسمال كل منها على المليون . وهناك مؤسستان تجاريتان يملك احداهما عبد الرحمن هاشم ، وثانيتهما محمد سعيد اغا البغدادي ، وكانتا تتاجران مع بغداد ، يبلغ رأسمال كل منهما بين مليون ونصف ومليونين من القروش . ويبلغ راسمال مؤسسة اخرى ، يملكها الحاج حسين جرتقجي ، مابين مليونين ومليونين ونصف . والمؤسسات الكبرى تتاجر عادة مع اوربا وبغداد ، في حين تتاجر المؤسسات الاصغر مع استانبول وازمير . وهناك حوالي اثنتي عشرة مؤسسة تتاجر مع القاهرة والاسكندرية ، ومؤسسة أو اثنتان تتاجر مع مكة والمدينة ، وقلة منها تتاجر مع القدس ونابلس واجزاء اخرى من فلسطين . وهناك مؤسسة واحدة امتد نشاطها التجاري الى جزر الهند الشرقية . ويبلغ وسطي رأس مال هؤلاء التجار المتعاملين مع الخارج حالي أربعة آلاف ليرة استرلينية ، اي ما يعادل ٤٠٠ ألف قرش (٧) .

وبلغ عدد التجار المسيحيين في دمشق الذين يتعاملون في التجارة الخارجية تسعة وعشرين ، يراوح مجموع رؤوس اموالهم بين أربعة ملايين ونصف المليون وخمسة ملايين ونصف مليون قرش . وكان اغنى هؤلاء التجار على الاطلاق السيد حنا عنحوري ، الذي بلغ راسماله بين مليون ونصف ومليونين من القروش . وكان يتاجر مع بغداد وفرنسا وايطاليا ، كما انه ينتج البضائع الدمشقية ، ويشترك معه في التجارة الخارجية عدد من افراد اسرته . وكانت النسبة الاكبر من التجار المسيحيين تتعامل مع بريطانيا ، ولكنهم كانوا ، على وجه العموم ، أقل ثراء من التجار المسلمين واليهود . ويتراوح وسطي راس مال الغالبية العظمى من التجار المسيحيين ما بين ٢٥ و ١٠٠ الف قرش(٨) .

وكان التجار اليهود في دمشق من اغنى التجار المتعاملين مع الخارج . ويبلغ عددهم اربعة وعشرين ومجموع رؤوس أموالهم ما بين ستة عشر وثمانية عشر مليونا من القروش ، أي بمعدل ستة آلاف الى سبعة آلاف ليرة استرلينية لكل منهم ، ويعادل ذلك ما بين ٦٠٠ و ٧٠٠ الف قرش . ومن بين هؤلاء تسعة تجار على الاقل يتراوح راسمال كل منهم ما بين مليون ومليون وثلث من القروش . ويعتقد ان أغنى تاجرين من اليهود كانا مراد فارحي ونسيم فارحي وتزيد ثروة كل منهما على مليون قرش ونصف المليون . وكانت معظم المؤسسات اليهودية تتاجر مع بريطانيا(٩) .

ومما شجع هؤلاء التجار الدمشقيين على التعامل بالبضائع الاجنبية تسهيلات

الدفع التي منحهم اياها التجار الاجانب . ومعظم هؤلاء التجار هم من تجار الجملة ، يستورودن البضائع أولا ثم يدفعون قيمتها بعد ذلك ، في حين كان تاجر المفرق يبيعها نقدا في الغالب . ولم تكن دمشق السوق الوحيدة لهذه البضائع ، فكان تجار القوافل يحملونها الى الداخل والخارج ، ويمنحون بدورهم تسهيلات في الدفع من قبل تجار الجملة الدمشقيين ، بحيث يسددون ثمن البضائع عند عودتهم في العام التالي . وضم تجار القوافل أناسا من العراق وفارس والمناطق الى الشرق منها . وكانوا في الغالب على درجة كبيرة من الامانة في التعامل والدقة في دفع ما يستحق عليهم من مال .

وازاء هذا النشاط التجاري وحسن التعامل . نشطت المتاجرة بالبضائع الاجنبية ، وبدأ البحث لايجاد تسهيلات أكثر ، في التعامل وفي المواصلات ، لتصريف هذه البضائع بشكل أوسع (١٠) .

وقد وجدت في دمشق ، ابان الحكم المصري ، محكمة تجارية مهمتها النظر في الخلافات الناجمة عن الاعمال التجارية ، وكانت تتألف من اثني عشر عضوا منهم تسعة من المسلمين ، ومسيحيان ، ويهودي واحد . وكانت هذه النسبة تتفق وأعداد الطوائف المختلفة آنذاك ،ولا تؤثر بأي حال على قرارات المحكمة بالنسبة للمتقاضين على اختلاف مذاهبهم (١١) . وقد توقفت هذه المحكمة عن العمل ، كما يبدو ، بعد انسحاب المصريين من بلاد الشام وحل مكانها ديوان التجار للنظر في القضايا التجارية، وله‌حق اصدارالاحكام ، التي سمح للمتقاضين باستئنافها الى مجلس شورى الشام العالي (١٢) .

وفي عام ١٨٥٠ أنشئت في دمشق ، من جديد ، محكمة تجارية تضم أربعة عشر عضوا . وفي حين أن المحكمة الاولى ، التي كانت قائمة ابان الحكم المصري ، لا تعرف كيفية تعيين أعضائها ، فان نصف أعضاء المحكمة الجديدة كان يعين من قبل الحكومة العثمانية ، ونصفهم الاخر يعينه القناصل من بين التجار الاجانب . وهذا دليل على ازدياد حجم التجارة الاجنبية في الشام ، وكذلك على ازدياد نفوذ القناصل الاجانب وتدخلهم في القضايا الاقتصادية المحلية . وضم الاعضاء السبعة الذين عينتهم السلطات العثمانية أربعة مسلمين ، ومسيحيين ، ويهوديا واحدا . واذا كانت نسبة الاعضاء في المحكمة الاولى تتوافق والنسبة العددية للطوائف ، كما ذكرنا ، فان نسبة ممثلي الطوائف ، فيما يتعلق بنصف أعضاء المحكمة الجديدة ، تدل على نسبة مساهمة كل طائفة في النشاط الاقتصادي وفي التعامل بالتجارة الاجنبية (١٣) . وبعد خمس سنوات ، أي في عام ١٨٥٥ ، أنشئت محكمة تجارية في حلب (١٤) .

واقتضى ازدياد حجم التجارة بين دمشق والدول الاجنبية ، الاهتمام بتحسين طرق المواصلات ، وبخاصة بين دمشق وبغداد . ونظرا لسيطرة البدو آنذاك ، من قبائل العنزة ، على البادية السورية ، وتحكمهم في طريق دمشق ـ بغداد وفرضهم الاتاوات على المسافرين وعلى البضائع مقابل حق الطريق ، فقد الجأت القوافل التجارية ، سواء منها القادمة من الشرق الاقصى بطريق الخليج العربي وبغداد ، أو الذاهبة الى تلك الجهات من دمشق ، الى سلوك الطريق الاطول والاكثر أمنا ، عبر الموصل وحلب (١٥) . فالقافلة التي تسير من بغداد الى دمشق ، بطريق الموصل وحلب ، يقتضي وصولها الى دمشق من شهرين ونصف الى ثلاثة أشهر (١٦) . أما القافلة التي تنطلق من بغداد الى دمشق ، عبر البادية ، فيقتضي وصولها حوالي خمسة وثلاثين يوما(١٧) . ووجدت محاولات في الشرق الاقصى لارسال البضائع من كلكوتا الى دمشق عبرالبحر الاحمر وخليج السويس وغزة (١٨) . ولكن هذه المحاولات فشلت بسبب صعوبات الطريق وكلفته ، وبقي طريق دمشق ـ بغداد ، عبر البادية ، ناشطا في نقل البضائع رغم أخطار البدو . وحين ازداد حجم التجارة الخارجية التي سلكت هذا الطريق في أعقاب انشاء طريق دمشق ـ بيروت البري ، اضطر التجار الاجانب وممثلو الشركة التي انشأت هذا الطريق الى التعامل مباشرة مع القبائل البدوية وشراء صداقتها بالمال ، لتأمين سلامة البضائع ومرورها عبر البادية . وكان ذلك بداية التعامل بين الدول الاوربية الصناعية ، وبخاصة بريطانيا وفرنسا ، وبين القبائل البدوية ، بعد أن فشلت جميع المحاولات لايجاد البديل عن خط بغداد ـ دمشق المباشر .

وحدث في عام ١٨٥٩ ، مثلا ، أن هاجم البدو القافلة التجارية المتجهة من دمشق الى بغداد ، فاضطرت الى قطع الطريق بثلاثة وخمسين يوما . ومن شأن ذلك أن يتلف المنتجات السريعة العطب ، كما انه يزيد في مصاريف النقل . ولم يتمكن تجار دمشق ، أو تجار بغداد ، على السواء ، من ايجاد تسوية مع البدو المجاورين للطريق ، وحتى البعيدين عنه ، الذين يهاجمونه بسبب عدم قدرة الدولة العثمانية آنذاك ، وخوف البدو من نكوث التجار بوعدهم ، باعطائهم ما ألفوا أن يأخذوه من الخوة ، التي هي بمثابة حق الطريق . وحين ازدادت مصلحة التجار الفرنسيين والانكليز في استتباب الامن وحماية القوافل التجارية بين دمشق وبغداد ، عمدوا من التقرب من هذه القبائل التي أصبحت صديقة لدولة أو لاخرى . وذكر في عام ١٨٦٦ أن قبائل ولد علي والشمر والفدعان ، وبني صخر والموالي ، وبعض أفخاذ السبعة ، كانوا موالين للفرنسيين ، في حين أن قبائل الرولة وبعض أفخاذ السبعة والقبائل التي تسيطر على البادية في الجانب العراقي من نهر الفرات ، باتجاه بغداد ، كانت موالية للانكليز . وبالاضافة الى الفوائد المادية التي جنتها القبائل ، من ذلك ، فانها في كل

مرة نشب فيها الخلاف بينها وبين السلطات العثمانية كانت تلجأ الى قنصل الدول التي تتعامل معها ليتدخل لدى هذه السلطات لصالحها (١٩) .

ومن المحاولات التي جرت لايجاد بديل عن خط بغداد ـ دمشق . تلك التـي حدثت في عام ١٨٧٠ حين بدأ نقل البضائع بين بغداد ومسكنة بواسطة السفن التجارية في الفرات . ومن مسكنة كانت البضائع تنقل برا الى حلب التي تبعـد عنهـا بحوالي خمسين كيلومترا . وكانت تسير رحلة واحـدة ـ في الاتجاهين ـ كـل أسبوعين . واستغرقت الرحلة النهرية من مسكنة الى بغداد ثلاثين ساعة ، في حين أن الرحلة من بغداد الى مسكنة اقتضت تسعة أيام ، لانها كانت تسير ضد مجرى المياه . وقد فشلت هذه المحاولة بدورها (٢٠) .

وكان من انجح خطوط المواصلات التي تمت آنذاك خط بيروت ـ دمشق البري . وقد أعطي امتيازه في الاساس الى الفرنسي (الكونت دو برتويـس (**de Perthuis**) في ٢٠ تموز ١٨٥٧ ، فأوجد شركة عثمانية مغفلة برأسمال قدره ثلاثـة ملايين فرنـك موزعة على ستة آلاف سهم . وبدأ العمل في هذا الطريق في تشرين الثاني في عام ١٨٥٩ . وشارك حوالي ألف الى ألف وخمسمائة عامل في انجاز الجانب اللبناني منه ، وبعـد أربعة أشهر تم تعبيد اربعة وعشرين من أصل مائة وثمانية كيلومترات من الطريق . وكان مقدرا للعمل أن ينتهي في عام ١٨٦١ ، ولكن الطريق دشن فعلا في الاول من كانون الثاني عام ١٨٦٣ (٢١) . وبلغ عدد المسافرين الذين استخدموا هذا الطريق في عام افتتاحه ٥٨٠٩ ، وارتفع هذا العدد الى ٨٤١٨ مسافرا في العام التالي ، وبلغ ٩٥٠٩ في عـام ١٨٦٩ . وبلغت العائدات الاجمالية لهذا الطريق ٥٥٠ ألف فرنك في عام ١٨٦٣ ، ثـم ارتفعت الى ٩٨٠ ألف فرنك في عام ١٨٦٦ . واتصل ممثلو الشركة المسؤولة عـن الطريق بالبدو في البادية السورية لتسهيل نقل البضائع بين بيروت وبغداد عبـر دمشق (٢٢) . وذكر أن كمية البضائع التي نقلت بواسطة طريق بيروت ـ دمشق ، في عام ١٨٦٣ ، بلغت ٧٣٠ر٤ طنا ، وارتفعت في عام ١٨٩٠ الى ٤٠٠ر٢١ طن . وزاد ذلك من عائدات الاسهم التي بلغت ٤٢ فرنكا في عام ١٨٧٢ ثم ارتفعت الى ٨٠ فرنكا في عام ١٨٨٢ . ولعب هذا الطريق دورا رئيسيا في حيـاة بيروت الاقتصادية ، وفي حيـاة المناطق المحيطة به ، ولاشك أنه كان عاملا هاما في استمرار بيروت كأهم ميناء علـى الساحل السوري (٢٣) . ولا ادل على اتساع نشاط ميناء بيروت خلال القرن التاسع عشر من الارقام التالية : بلغت زنة البضائع التي استوردت أو صدرت عن طريق هذا الميناء في عام ١٨٣٥ ، ٦٣٥ر١٢٨ طنا ، منها ٤٦٣ر٧٨ طنـا من الواردات و ١٧٢ر٥٠ مـن الصادرات (٢٤) ، في حين كان مجموع البضائع التي تعامل معها ميناء بيروت ، استيرادا وتصديرا ، ٥٢٠ر٨٠٥ طنا في عام ١٨٩٥ (٢٥) .

وحين عارضت الحكومة العثمانية تمديد امتياز الشركة المشرفة على طريق بيروت ــ دمشق ، أو زيادة فعالياتها التي كانت تكفي لاستخدام ألف من الخيول والبغال في عمليات النقل ، بدأ التفكير لدى الشركة في الثمانينات من القرن التاسع عشر ، بربط بيروت بدمشق بخط حديدي. وتم انشاء هذا الخط فيعام ١٨٩٥ على يد شركة اخرى فرنسية باجيكية عثمانية . ولكن الخط الحديدي هذا مني بخسائر كبرى الى أن فرض الانتداب الفرنسي في ١٩٢٠ على سورية ولبنان ، وعندئذ أخذت عائدات الخط بالازدياد (٢٦) .

وازداد تدفق البضائع الاجنبية الى دمشق بنتيجة التسهيلات في عمليات النقل بينها وبين بيروت ، ويتبين ذلك من الاحصاءات التالية :

جدول ببيان قيمة البضائع المستوردة الى دمشق والمصدرة منها بالفرنكات الفرنسية

السنة	البضائع المستوردة	النسبة	البضائع المصدرة	النسبة	الاجمالي	
١٨٣٣	١٣ر٢٤٢ر١٢٥	٥٤٪	١١ر٢٤٨ر٢٥٠	٤٦٪	٢٤ر٤٩٠ر٣٧٥	(٢٧)
١٨٥٩	١٥ر٣١٨ر٢٥٠	٦٠٪	١٠ر٤١٨ر٠٠٠	٤٠٪	٢٥ر٧٣٦ر٢٥٠	(٢٨)
١٨٦٢	٢٠ر٢١٤ر٤٢٠	—	—	—	—	(٢٩)
١٨٨٣	١٤ر٩٥٣ر٢٢٨	٥٧٪	١١ر٢٧٥ر٤٤٤	٤٣٪	٢٦ر٢٢٨ر٧٣٢	(٣٠)
١٨٨٤	١٥ر٠٠٧ر٠٠٠	٦٥٪	٨ر١١٣ر١٧١	٣٥٪	٢٣ر١٢٠ر١٧١	(٣١)
١٨٨٥	١٤ر٣٦٧ر٠٠٠	٦٣٪	٨ر٣٢٠ر٥٠٠	٣٧٪	٢٢ر٦٨٧ر٥٠٠	(٣٢)
١٨٨٧	١٧ر٠٠٠ر٠٠٠	٦٣٪	١٠ر٠٠٠ر٠٠٠	٣٧٪	٢٧ر٠٠٠ر٠٠٠	(٣٣)

يتبين من الجدول اعلاه ان قيمة البضائع المستوردة الى دمشق خلال نصف قرن تقريبا راوحت قيمتها بالنسبة للقيمة الاجمالية للبضائع الاجمالية المستوردة والمصدرة ما بين ٥٤٪ و ٦٥٪ . في حين أن البضائع المصدرة منها تفاوتت نسبتها بين ٤٦٪ و ٣٧٪ . ويلاحظ أن قيمة البضائع المصدرة من دمشق كانت في تناقص في حين أن البضائع المستوردة كانت في ازدياد ، أي ان نسبة العجز في الميزان التجاري كانت بازدياد مستمر ،وقد بدأت هذه النسبة فيالجدولبمقدار ٩٪ ثم بلغت بعد نصف قرن

٢٦٪ . ويعزى ذلك ، بدرجة كبيرة ، الى افتتاح قناة السويس في عام ١٨٦٩ ، التي حولت جزءا كبيرا في تجارة المرور بين الشرق الاقصى وأوربا عن دمشق ، ثم الى تزايد نقل الحجاج الى الحجاز بالطريق البحري ، وكذلك الى الخسارة التي منيت بهـا البضاعة الدمشقية بفعل منافسة البضائع الاجنبية .

وأدى فتح قناة السويس وتحول قسم كبير من الحجاج لاستخدامها الى تحول قسم أكبر من البضائع التي كانت ترافق قافلة الحج عن دمشق . ولكن فتح القناة زاد من ناحية أخرى ، في حجم العلاقات التجارية بين دمشق ومصر . وكانت هذه العلاقات تقوم في السابق على المتاجرة بالتبغ ، الذي كان يستورد من بلاد فارس ويصدر الى مصر . واستوردت دمشق البضائع المصرية ، وبخاصة الكتان ، الذي كانت لـه سوق رائجة في بلاد الشام (٢٤) . كما أن وجود تجار مصريين مقيمين في دمشق ، وبالمقابل وجود تجار من أهل الشام في مصر ، شجع مثل هذه العلاقات التجارية . ومما يجدر ذكره أن وجود الجالية المسيحية الشامية ، التي بدات بالهجرة الى مصر منذ أوائل القرن الثامن عشر ، قد زاد من اتساع العلاقات التجارية بين البلدين (٢٥) .

وقد ضمت قوائم البضائع التي استوردتها دمشق في عام ١٨٣٣ السلع التي استوردتها من مصر ، وشملت الكتان ، والبن من مخا ، والنيلة ، والحناء ، وجوز انهند ، والاصبغة والجلود ، وأنياب الفيلة ، والرز ، والسكر ، والقبعات ، والكرابيج ، والحصر ، والبلح . وبلغت قيمة هذه البضائع آنذاك ١٢٥ر٤٦٣ فرنكا ، اما صادرات دمشق الى مصر في تلك السنة فضمت الفواكـه المجففة ، والتفاح ، والاحذيـة ، والمنسوجات ، والتنباك ، والشال الكشمير ، وسيوف فارس (٢٦) .

وكان لاستعمال الحجاج ، وبخاصة حجاج الاناضول والبلقان ، للطريق البحري الى الحجاز ، اثره الكبير في تناقص حجم التجارة التي كانت تفيد منها دمشق كمركز لقافلة الحج الشامي . فقد أفادت دمشق الشيء الكثير من تجارة الحج قبل ذلك . وكان يؤمها عادة ، كل سنة ، حوالي ١٥ الى ٢٠ الف حاج ترافقهم بضائع كثيرة ، الى الحجاز ومنه . وينفق هؤلاء الحجاج الاموال الكثيرة في دمشـق للتزود بالمـؤن ، واستئجار الجمال ، وشراء السلع (٢٧) . ولا أدل على أهمية البضائع التي تحملهـا قافلة الحج الشامي من استعراض البضاعة التي حملتها معها ، مثلا ، قافلة الحج العائدة من الحجاز الى دمشق في ١٥ صفر ١٢٥٨ / ٢٨ آذار ١٨٤٢ ، فقد ضمت ٢٢٥ حملا من الحناء ، تزن ٢٢٥٠ رطلا (حوالي ١٤٥٠٠ كغ) ، ويقدر ثمنها ب ١٢٠ الف قرش فضة (ما يعادل ٣٠ ألف فرنك فرنسي) ، و ٤٠ حملا من بن مخا (كانت في الاصل تسعين فقد منها في الطريق خمسون حملا) ، تزن ٤٠٠٠ رطل ، ثمنها ١٤٠

الف قرش ، و٢٠ حملا من نسيج هندي للعمائم ، كل حمل من بالتين ، تحتوي كل منهما مائة قطعة ، ثمن كل قطعة ٢٠٠ قرش ، مجموع ثمنها ٨٠٠ الف قرش. وقدرت الجواهر التي حملتها القافلة بما ثمنه ١٠٠ ألف قرش . وبلغ سعر ريش النعام الذي حملته هذه القافلة ١٧٠ ألف قرش ، والعطور ١٦٠ ألف قرش ، والسلع المتنوعة ٦٠ الف قرش . وكان مجموع ثمن البضائع التي حملتها القافلة مايعادل ١٫٨٥٠٫٢٠٠ قرش(٣٨) .

وهكذا اخذت اعداد الحجاج المسافرين عن طريق دمشق بالتضاؤل التدريجي في القرن التاسع عشر . فقد اشتملت ، مثلا ، القافلة العائدة الى دمشق من الحجاز بتاريخ ٢١ نيسان ١٨٤٥ على حوالي ستة الاف حاج ، الفين منهم من الاعجام، والفين من الاتراك ، والبقية من العرب . ورغم هذا العدد المتواضع للقافلة فان الحجاج احدثوا حركة تجارية ناشطة في دمشق ، وقدرت مشترياتهم منها بحوالي ستة ملايين قرش(٣٩) .

وقد بدأ الحجاج الاتراك ، منذ اوائل الخمسينات من القرن التاسع عشر بالسفر ، على نطاق واسع ، بطريق البحر الى الحجاز ، بواسطة السفن التجارية التي شاع استعمالها انذاك(٤٠) . وكانت اشهر شركتين تسيران مثل هذه البواخر في المتوسط هما : المساجيري امبريال (Messageries Imperiales) والشركة الروسية (Compagnie Russe) ويصل الحجاج الى بور سعيد او الاسكندرية ثم يتابعون سفرهم ، من الاولى في القنال ومن الثانية في القطار ، الى السويس حيث يستقلون باخرة اخرى الى جدة . ويعود اختيار الحجاج للطريق البحري الى كونه اكثر امنا من الطريق البري ، الذي اخذ يعج بقطاع الطرق ، وكذلك الى كونه اقل كلفة(٤١) .

وكان بعض الحجاج الاتراك يستخدمون الطريق البري في الذهاب والطريق البحري في الاياب ، حين يكونون محملين بالبضائع . وضمت القافلة التي عادت الى دمشق من الحجاز في ٧ آب ١٨٦٣ الموافق ٢٢ صفر ١٢٨٠ ،مائتين وخمسين حاجا فقط . اما الباقون فقدعادوا بطريق البحر . وكان يرافق هؤلاء الحجاج الى دمشق ٦٥٠ عبدا من الجنسين ، وجه مئتان منهم الى حلب وبيع الباقون في دمشق ، على الرغم من وعود الباب العالي ومحاولات الدول الاوربية منع المتاجرة بالرقيق(٤٢) . وزاد في تناقص الحجاج المسافرين بطريق دمشق ان الحجاج من العجم اخذوا يستقلون منذ عام ١٨٧٠ ، الطريق البحري من الخليج العربي الى جدة(٤٣).

وقد علق نعمان القساطلي، صاحب كتاب الروضة الغناء في دمشق الفيحاء ،

والذي عاصر تلك التحولات ، على تناقص حجم التجارة المرتبطة بقافلة الحج بقوله : « وأول نكبة دهمتها (أي دمشق) تسببت عن سير سـفن التجار في البحار فخسرت تجارتها البرية مع الاستانة والروم ايلي وبر الاناضول وغيرها وتحول ذلك الى الموانى البحرية وعندما فتحت ترعة السويس حلت بلية عظمى وطامــة كبرى على تجــارة دمشق لانها سلبت كل مابقي لها من التجارة البرية وفتحت بابا قريبا للحجاز فامتنع الحجاج عن الاتيان اليها فخسرت جداول الذهب الغزيرة التي كانوا يسكبونها ذهابا وايابا حيث كان يأتيها كل سنة ثمانية الاف ونيف ويتجهزون منها للحجاز وفي ايابهم يتجهزون منها الى بلادهم ويأخذون البضائع والاقمشة اما هدايا او للتجارة واذا انفق كل حاج ٥٠ ليرة يكون ما ينفقه الحجاج سنويا اربع مئة الف ليرة ولا يخفى كم كانت تنتفع دمشق من هذه المبالغ وقد كان كثيرون من اهلها من ذوي العيال الكبيرة الذين لا ثروة عندهم يتعيشون من البيع بالامانة للحجاج او من انزال البعض في بيوتهم . وقد كملت في هذه السنة اضرار ترعة السويس بتجارة دمشق لان ما بقي لها من تجارة العراق فتح له طريق على السويس فتحول الى موانى سوريا» (٤٤) .

وادى تضرر دمشق التجاري هذا الى تضرر الاسواق الريفية التي تتعامل معها، وبخاصة القرى في حوران وغيرها ، التي كانت تؤجر الاف الجمال لنقل الحجاج ومؤنهم والقوات العسكرية المرافقة لهم . واشهر تلك الاسواق سوق المزيريب (وتبعد مسيرة يومين عن دمشق) ، حيث كان يتجمع الحجاج استعدادا لانطلاقهم الى الحجاز .وكان يقام في المزيريب كل سنة ثلاثة اسواق كبيرة اشبه بالمعارض ، اثنان منها بمناسبــة ذهاب قافلة الحج وعودتها ، وثالثها في الربيع لخدمة مصالح الفلاحين والبدو والتجار من مراكز المدن(٤٥) .

وكانت المزيريب سوقا رائجة لتجارة الخيول التي ياتي بها بدو العنــزة وبــدو نجد . واهتم الاوربيون بشراء الخيول من سورية نظرا لجودتها ، ولاستخدامها في تحسين نسل خيولهم ولاستعمال حرسهم الملكي(٤٦) وقد ادت كثرة شراء الفرنسيين والانكليز للخيــول والبغال (التي استخدمت في النقل) مــن سوريــة ، الى تضرر المواصلات المحلية والحد من انتقال البضائع والسلع(٤٧) .

منافسة البضائع الاوربية للبضائع الشامية

لاحظنا ان تدفق البضائع الاجنبية ، وبخاصة النسيجية منها ، الى بلاد الشام قد بدأ يلفت النظر ابان الحكم المصري ، نظرا للتسهيلات الكبيرة التي منحها ذلــك الحكم للمصالح الاجنبية .ثم كانت معاهدة ١٨٣٨ بين الدولة العثمانية وبريطانيا،

والتي تلتها معاهدات اخرى من هذا القبيل مع دول اوربية متعددة ، فازداد تدفق البضائع الاوربية الى ولايات الدولة العثمانية ، بفعل الضرائب الجمركية المتدنية التي تقاضتها الدولة العثمانية عنها . وكانت الثورة الصناعية في اوربا في اوجها ، وتبدت بصورة خاصة في صناعة النسيج التي اخذت تكتسح العالم برخص منتجاتها وجودتها في الوقت ذاته . ولم تتمكن المنتجات الحرفية المحلية ، التي اعوزتها حماية الدولة العثمانية ، من منافسة البضائع الاجنبية .

ولم يكن اثر هذا الوضع مقتصرا على أصحاب الحرف ، وبالتالي على الاقتصاد المحلي التقليدي ككل ، بل بدل في بنية المجتمع وافرز فئات وسيطة غير منتجة ، لعبت دور الوسيط بين المستهلك المحلي والمنتج الاوربي ، وكونت احدى دعائم البورجوازية الجديدة . كما ان هذا الوضع ساعد ، بالنتيجة ، على ظهور انماط جديدة من الانتاج المحلي والتعامل الاقتصادي ، في محاولة للتأقلم مع هذا المد الاوربي . واذا ما تذكرنا ان حوالي خمس عمال دمشق كانوا يعملون في الصناعة النسيجية ، فان اثر المنافسة الاوربية للبضائع المحلية ينعكس الى حد كبير على البنية الاجتماعية أيضا .

وقد سوقت المنسوجات الاجنبية في دمشق في دكاكين خاصة بها في الاسواق الرئيسية ، مثل سوق الخياطين وسوق باب البريد . وأشار الاهلون الى هذه البضائع على انها افرنجية . واذا ما اشتهر نوع منها فعندئذ يذكر بلد المنشأ الى جانب اسم البضاعة ، كأن يقال (جوخ انكليزي) . وادت المنافسة بين البضائع الاجنبية في السوق المحلية الى تدني اسعارها بدرجة أكبر ، الامر الذي جعل منافستها للمنتجات المحلية أشد من ذي قبل . ويذكر ، مثلا ، عام ١٨٥١ ، ان مؤسسة تجارية يونانية استوردت الى دمشق كمية كبيرة من الكتان النمساوي ، وطرحته في السوق باسعار تقل عن اسعار مثيله الفرنسي ، مما اضر بهذا الاخير(٤٨) .

وعمدت البضائع الاجنبية الى تقليد الانماط النسيجية المحلية ، مما زاد في ترغيب السكان المحليين باقتنائها . وكمثال على ذلك تقليد الصناعة النسيجية السويسرية لانماط الكتان الدمشقي ، ثم تصديره الى دمشق ومنافسته للكتان المحلي في عقر داره(٤٩) .

وطبيعي ان المنافسة الاوربية لم تقتصر على بضائع دمشق فحسب ، بل شملت بضائع المدن الاخرى ، ففي حلب مثلا ، قلدت منسوجات مدينة ليون الفرنسية منسوجات حلب ، وفعلت ذلك منسوجات بريطانية وبلجيكا وسويسرا والمانيا ، مما اشاع اسعمالها بين السكان المحليين لرخص اسعارها(٥٠) . وكانت البضائع الالمانية

قد اخذت في غزو السوق المحلية بعد عام ١٨٧٠ ، أي بعداكتمال الوحـدة الالمانية ، وانطلاق المانيا الى التوسع التجاري والاستعماري . وقد علق القنصل الفرنسي في دمشق على دخول المنسوجات الالمانية ميدان المنافسة مع البضائع الاوربية فيالسوق المحلية فقال انها تغزو أكثر فأكثر سوق دمشق(٥١) .

ومما أضر بمنتجات دمشق ان المراكز التقليدية لتصريف هذه المنتجات ، سواء المدن والارياف السورية ، أم الاناضول والعراق ومصر ، قـد اتخمت هي الاخرى بالبضائـــع الاجنبية ، التي نافسـتها فيها . وقد ادى تحول قسـم من الاهالـي عن الزي المحلي الى الزي الاوربي الى التخلي عن البضائع المرتبطـة بالزي المحلي ، ورواج البضائع المناسبة للزي الاوربي .

ولم تكن الحكومة العثمانية لتهتم بالمصير الذي آلت اليه الصناعة المحلية لولا ظهورافلاسات بين التجار المحليين الذين يتعاطون المتاجرة بالاقمشة المحليـة ، والى اضطراب اوضاع الحرف ، وبخاصة النسيجية منها ، مثل حرف فتالة الحرير ، والصباغين ، والقصارين ، والطباعين ، والدقاقين ، والالاجاتيـة ، والقطنية ، ممـا افقر أصحابها ، وأدى بالتالي الى تعذر جباية الضرائب المفروضة عليها . واوضح مثال على ذلك الطلب الذي تقدم به أحد كبار ملتزمي الضرائب في دمشق ، ويدعى عبد القادر آغا خطاب ، الى السلطات المسؤولة في دمشق بتاريخ ٥ محرم ١٢٦١/١٤ كانون الثاني ١٨٤٥ ، يلتمس فيه تخفيض قيمة الضرائب من العام السابـق نظـرا للخسارة التي لحقت بالمشتغلين بالاقمشة المحلية من جراء منافسة البضائعالاوربية . وكان عبد القادر هذا قد التزم في عام ١٢٦٠ ضريبة دمغة منسوجات القطني والالاجه والصلواتي والديما ، بمبلغ قدره (١٠٠ر١٤٥) قرش . وحين طرحت تلك الضريبةفي المزاد العلني في مطلع العام التالي بدات المزايدة بـ ٠٠٠ر٣٠ قرش وبلغت ٣٠٠ر١٣٠ تقدم بها عبد القادر خطاب بالنيابة عن ابنه ، ثم تقدم هو بنفسه بمبلغ العام السابق . والجدير بالذكر ان جميع المزايدين كانوا من كبار اعيان دمشق . والتزم عبد القادر خطاب قلم المكنا (تستعمل في كبس الانسجة القطنية) بمثل ما التزمه به في العـام السابق . ويقدر بمبلغ ٥٠٠ر٦٠ قرشا . وفعل مثل ذلك بالنسبة لالتزام دق القطني الذي التزمه بمبلغ ٢٠٠ر٤٧ قرش ، والتزم حوالي ١٢ قيراطا من دق الالاجه بمبلـغ ٠٠٩ر٢٧ قروش ونصف . وكان مجموع المبلغ الذي التزم به عبد القادر خطاب هو ٣٥٩ر٢٧٩ قرشا ونصف . وذكر عبد القادر خطاب انه خسر في عام ١٢٦٠ في التزام هذه الاقلام مبلغ خمسين الف قرش واضاف : « واذا لم صدقتم مبلغ الخســارة فاستحضروا السيد محي الدين كاتب سوق الدق وباقي كتاب الاقلام واطلعوا على الدفاتر يظهر لحضراتكم صدق تقريرنا ففي هذه السنة (أي ١٢٦١ هـ) بحسب حالة

الكار وقلة تشغيله من قبل تكاثر وجود اجناس البضائع الافرنجية فالاقمشة الشامية كلمالها على تدني ومن ذلك يزيد بالاقلام المذكورة تدني حاصلاتها وهذا شيء معلوم عند حضراتكم وليس له تدبير فان تحسن يصير التبصر بما أعرضناه لاجل ملاحظة حال دعجيكم ورفع المغدورية عنه الموصلة لخراب الحال حيث هذه الاقلام بالاقيام السابقة لا تستطيع على تأدية حالها » . وبمذاكرة السلطات المعنية بالطلب رأت « انه بخصوص توقف بضايع الاقلام المذكورة في محروسة الشام من تكاثر البضائع الافرنجية فهذا مشاهد وملحوظ من تدقير الاقلام المذكورة وتنازل اموالها عن العام الماضي لقلة رواج بضايعها التي هي القطني واللاجة والديما(٥٢) فقبول هذا الالتماس فيه المغدورية على جانب الميري وان كانت اعذار عبد القادر آغا من تدني الاقلام المذكور لسبب تدقير بضايعها مقبول ولكن لا يصوغ الرخصة من تنقيص الاموال الميرية على قياس تدنيها في الماضي فقد تتزايد في المقابل بحسب تواجد البضايع»(٥٣). ومع ان عبد القادر خطاب قد رفض طلبه بتخفيض مبلغ التزام هذه الضرائب فانه قبل الالتزام نظرا لما كان يتوقعه من فائدة ولانه كان هو بالذات ممتهنا لهذا الالتزام وغيره . وحصل مع ذلك على تسهيلات في دفع الضرائب ، اذ أعفي من دفع أي مبلغ في الاشهر الثلاثة الاولى من سنة الالتزام على ان يقسط كامل المبلغ على الاشهر التسعة الباقية ويدفع قسط كل شهر في نهايته(٥٤) .

ومما يجدر ذكره ان عبد القادر خطاب هذا حين توفي بعد سنوات قليلة وحصرت ثروته من قبل القسام العربي بتاريخ منتصف ربيع الاول ١٢٦٥/ (٨ شباط ١٨٤٩)، تبين ان مجموع ثروته هو ٤٠١٫١٩٥ قرشا ، بعضها كان ديونا لقاء ثمن جمال وكدش لم يستوفها ، وبعضها ديون مدفوعة له ، وبعضها ثمن امتعة وممتلكات أخرى . وحين اقتطعت الرسوم والنفقات المترتبة على وفاته والبالغة ١٦٫٦٥٦ قرشا وثلاثة أرباع القرش ، بقي من ثروته ٣٨٤٫٥٣٨ قرشا ونصف القرش . وقد حجزت خزينة الدولة كامل هذا المبلغ لان تركة المتوفي مغرقة بالديون الميرية للدولة . ولم تستفد نساؤه الاربع وأولاده من ثروته ، ولكن بقيت الدار المقدرة قيمتها بـ ١٠٠ الف قرش بين الورثة(٥٥).

ونجم عن شدة منافسة البضائع الاجنبية للبضائع المحلية وتحول التجار الاجانب عن اسلوب المقايضة في السلع ، الذي اعتمدوه قبل قيام الثورة الصناعية ، الى بيع منتجاتهم بالعملة الذهبية(٥٦) ، ومعظمها اوربي ، وانهيار قيمة العملة المحلية الفضية وكثرة فرض الضرائب على الاهلين من قبل السلطات الحاكمة ، ان عمت الفوضى في الحياة الاقتصادية المحلية لصالح الرأسمالية الاوربية .

وكانت كثرة أنواع العملات المتداولة في دمشق ، من محلية وأجنبية ، وذهبية

وفضية ونحاسية ، واختلاف اسعارها ، عامل فوضى في التعامل التجاري . فالوحدة المحلية المتداولة كانت القرش الفضي الذي يوصف بانه صاغ وصحيح وميري، ويقسم الى اربعين مصرية ، او بارة ، اما العملات الاخرى فبعضها من بقايا الحكم المصري وبعضها الاخر عثماني يحمل اسماء بعض السلاطين ، وبعضها اوربي متنوع يشار اليه باسم الدولة التي اصدرته أو بالعلامة التي يحملها ، وباستعراض قيمة بعض العملات المتداولة الرئيسية ، من اجنبية ومحلية ، خلال سنتين، يتبين مدى ازدياد قيمة العملات الاجنبية منها بالنسبة لوحدة التعامل الرئيسية ، وهي القرش الفضي الصحيح الميري .

السنة	ليرة مجيدية	ليرة مصرية	ليرة فرنساوية	ليرة انكليزية	ليرة موسكوفية
١٢٧٤هـ/ ١٨٥٧ (٥٧)	١١١ قرشا	١٢٥	٥ر٩٥	١٢٠	٥ر٩٧
١٢٧٦هـ/ ١٨٥٩ (٥٨)	٥ر١١١	١٢٦	٥ر٩٨	١٢٤	١٠٠

	قرانيصة	ريال شوشة(٥٩)	ريال سينكو(٦٠)	ريال مجيدي	ريال فنس	بشلك
١٢٧٤هـ/ ١٨٥٧	٥ر٥٧	٥ر٢٦	٢٥ر١٤	٥ر٢٢	٥ر١٩	٥ر٥
١٢٧٦هـ/ ١٨٥٩	٥ر٥٧	٧٥ر٢٥	٥٠ر٢٤	٢٢	٥ر١٩	٥

نلاحظ من هذه القائمة انتشار العملات الذهبية الاجنبية وارتفاع اسعارها بالمقارنة مع العملات العثمانية والمحلية ، وكذلك ارتفاع سعر الليرة الانكليزية بالنسبة للعملات الاخرى . وهذا دليل على سيطرة الراسمالية الاوربية ، وبخاصة البريطانية، على السوق المحلية . وبلغ من الثقة بالعملات الاجنبية ان معظم تركات المتوفين الميسورين ، اذا ما احتوت على نقود ، كانت معظم تلك النقود بالعملات الاجنبية . ومن الطبيعي ان يحدث هذا نظرا لكثرة العملات العثمانية والمحلية المتراكمة من عهود مختلفة، كما يستدل من اسمائها ، وتبدل اوزانها ، والتلاعب فيها ، وانعدام الثقة بها . وكانت اسعارها اما ثابتة او بتراجع مما لا يشجع على اقتنائها وادخارها ، بالمقارنة مع العملات

الاجنبية . وضمت القائمة الاولى من عام ١٨٥٧/١٢٧٤ بالاضافة الى ما ذكرنا ، فئات النقود التالية المتداولة : ذهب عتيق ٦٠ قرشا ، التنك ٥ر٦ ، قمريات ؟. وفي القائمة الثانية من عام ١٨٥٩/١٢٧٦ ذكرت العملات الاضافية التالية : دبلون ٤٠ قرشا ، قرانيصة مربع ٢٥ ، حجر ٥ر٦٥ ، بيشلي قديم ٢٠ ، عامود(٦١) ٧٥ر٢٧ ، ربع فنس ٧٥ر٤ قروش وخمس مصريات او بارات ، فرنك ٤ قروش وخمس مصريات ، ربع فرنك ٥ر٣ ، جهادي صحيح وازنه ١١٢ ، نصف جهادي طري ٥٠ ، نصف جهادي يابس ٣٩، غازي قديم وازن ٣٧ ، ممدوحي وازن ٢٨ ، ربعية جنزرلية ١٥ ، ليرة مجيدية مبخوشة ١٠٩ ، مجيدي مبخوش ٥ر٢١ .

واذا ما أجرينا مقارنة بين نسبة ازدياد قيمة الليرات الاوربية خلال سنتين (١٢٧٤–١٢٧٦/ ١٨٥٧–١٨٥٩) ، والتي بلغت حوالي ٣٪ ، ونسبة ازدياد قيمة العملة العثمانية الذهبية بالنسبة للقرش الفضي ، لتبين لنا انخفاض قيمة القرش بالنسبة للذهب . ونظرا لاختلاف تسميات العملات بين فترة واخرى ، نأخذ مثال الغازي القديم ، الذي يبدو ان تسميته لم تتغير. فقد ضرب الغازي القديم عام ١٢٢٣/ ١٨٠٨ – ١٨٠٩ في عهد السلطان محمود الثاني ، وكان عيار ذهبه ٢٥ر٢١ قيراطا ، وسعره $21\frac{3}{8}$ قرشا . وسعّر رسميا في دمشق في ١٨ نيسان ١٨٨٣ ، ابان الحكم المصري ، بما يساوي ٢٠ قرشا وخمس بارات(٦٢) . واصبح سعره في عام ١٨٥٩/١٢٧٦ مايعادل ٣٧ قرشا ، أي ان سعره ازداد خلال واحد وعشرين عاما ١٦ قرشا وخمس وثلاثين بارة . وهذا دليل على انهيار قيمة الوحدة النقدية الفضية ، وهي القرش بالنسبة للذهب ، بنسبة تقدر بحوالي ٥٤٪ .

ومما زاد في الضائقة المالية لدى أفراد الشعب فرض الدولة ضرائب اضافية ، أهمها ضريبة الاعانة التي فرضتها الدولة في عام ١٨٣٤ . وجبيت الاعانة من دمشق بفرضها جماعيا على كل ثمن من اثمان المدينة . وكذلك فرضت جماعيا على القرى . وجبيت الاعانة من الافراد الذكور حسب وضعهم المالي ، وأعفي منها ، كليا أو جزئيا ، من ثبت فقره . وطولب الافراد بدفع الاعانة في أماكن اقامتهم لا في محلات عملهم . وأعفى من الاعانة بعض الفئات ، مثل العسكريين وملتزمي الضرائب ، وسكان القرى الخربة . ومن الامثلة المتوافرة لدينا ، نلاحظ ان مبلغ الاعانة قد راوح ، في حوالي عام ١٨٤٥ ، ما بين مائة وخمسمائة قرش على الفرد الواحد ، ولجأ البعض الى الاحتماء بالقنصليات الاجنبية لتحاشي دفع الاعانة(٦٣) . وهناك ارتباك في المصادر حول التمييز بين ضريبة الاعانة وضريبة الفردة . فمن المصادر ما يستخدم الاعانة في مكان الفردة ، التي سبق أن استعملها المصريون اثناء حكمهم كضريبة على الافراد ، ثم عاد فظهر استعمالها زمن العثمانيين . ومن المصادر ما يجعل الفردة غير الاعانة . وقد زيد مبلغ الفردة على الشخص الواحد في عام ١٨٤٥ الى ٥٠٠ قرش ، في حين انها خفضت على

الفقراء الى حدود ١٥ الى ٣٠ قرشا(٦٤). ويدل هذا التباين في الضريبة على اتساع الهوة بين الفقراء والاغنياء، وكان ذلك احد عوامل الاضطرابات الاجتماعية ـ الطائفية التي حدثت في حلب في عام ١٨٥٠ ، وفي جبل لبنان ودمشق في عام ١٨٦٠ ، والتي استغلها اصحاب المصالح ، من فئات محلية وقوى اجنبية ، لصالحهم .

واناخ التجنيد الاجباري بثقله على الاهلين وعطل من فعاليات شبابهم الاقتصادية. وحسب الاوامر الصادرة في عام ١٨٥٠ ، فقد زيد عدد المجندين من سورية عشرة آلاف. ويشكل المجندون ، حسب الاحصاءات المقدرة آنذاك ، نسبة واحد الى احد عشر من الشبان الذين تراوح أعمارهم مابين ٢٠ و ٢٥ سنة . وفيما يلي بعض اعداد المجندين من المناطق السورية في عام ١٨٥٠ : دمشق ١٦٫٨٥٤ مجندا ، حلب ٢٦٫٢٧٤ ، صيدا ٢٤٫٣٣٤ ، طرابلس ٥٫١٦٤ مجندا . وهرب عدد كبير من الشباب من دمشق الى الجبال لتحاشي التجنيد (٦٥) .

وقد نتج عن هذه العوامل . وفي طليعتها العامل الاقتصادي الذي تجلى بسيطرة الرأسمالية الاوربية على السوق المحلية ، ازدياد حالات الافلاس بين صغار التجار والحرفيين على حد سواء . ولفتت الافلاسات في مدينة دمشق النظر منذ السنوات الاخيرة من الحكم المصري في بلاد الشام . ومن الذين افلسوا أيضا ملتزمو الضرائب الجمركية الذين وقعوا في عجز في عام ١٨٣٩ قدر بمائتي الف قرش(٦٦) . وقد وقف القضاء الى جانب المفلسين الذين ثبت عجزهم عن الدفع ، الى حد دفع بعض المراقبين الاجانب الى القول ان تسامح القضاء مع المفلسين شجع على الاكثار من حالات الافلاس(٦٧) .

وتوضح الامثلة التالية بعض حالات الافلاس وطرق معالجتها من قبل السلطات . فقد تقدم السيد ابراهيم المالح بتاريخ ٢٩ صفر ١٢٦١ / ٩ اذار ١٨٤٥ بالمعروض التالي: « نعرض لسعادتكم بانه غير خافي المراحم العلية بالاصناف وتأخير احوالهم فعبدكم رجل دكنجي برقبته أطفال وعيال من قلة الحركة متأخر عليه جانب عن ثمن بضايع لاربابها وارببابها ما هم صابرين مرادهم كل من له شي يأخذه بالتمام وهذا شي ما هو متوقع مع عبدكم وما له قدرة عليه ومرادهم كسر سبب عبدكم ومن ذلك يحصل على عبدكم غدر وتتعطل احواله واذا تعطلت احواله فهلك عياله نرجوكم احالت المادة الى ديوان التجار ومن بعد الوقوف يعملوا لعبدكم رابطة موافقة لاداء المطلوب بالذي يمشي به الحال من دون مغدورية على احد واغتنام دعانا والامر امركم افندم » . وفي التقرير الذي قام به محمد بك عصمة زاده ، بمعرفة التجار ارباب الديون ، تبين له وللسلطات حقيقة أمر المستدعي « فعمومهم قرروا بعجزه وتأخير حاله فحصل جرد دكانه بحضور

بعض ديانته فوجد له موجودات بدكانه مع جارية سودة كانت بداره وضعها مع الموجودات وحررنا قايمة بالديون التي عليه وتخمين موجوداته فبلغ القرش نصف عبارة عن عشرين بارة فاقتضى تحرير هذا الخطاب لكي نستعلم من الديانة عن الذي يقبل اخذ النصف الموجود ويسمح بالباقي كما ذكر واما يأخد النصف ويعطي مهالة بالنصف المتأخر مدة ستة سنين عن ستة اقساط يدفع قسط واحد وابتدا تناوله بعد سنتين من تاريخه حيث ما بقي بيده مال يستعين منه الوفا وصارة يده فارغة من الرسمال فينبغي تحرير المجاوبة عما ذكر لنعرض كيفية الجواب لطرف المجلس حسب الاصول » . وقد اجاب ارباب الديون بانهم يقبلون قبض النصف ويبقى النصف الاخر ، باستثناء دائن واحد قبل قبض النصف وسمح ، أي تنازل ، عن النصف الباقي ، وقبلت السلطات بذلك وخيرت بقية الدائنين الذين لم يحضروا بان يحذواحذو هؤلاء والا ترتب عليهم اقامة البينة على يسار صاحب المعروض . وحسمت القضيةعلى هذا الشكل بتاريخ ٤ شعبان ١٢٦١/٦ تشرين الاول ١٨٤٥(٦٨) .

والجانب الهام في هذه القضية هوية الدائنين ، الذين ضموا ، حسب تسلسل ورود اسمائهم ، حنا زريفة ، فتح الله طراد ، الحاج محمد ابو رشيد ، السيد محمد الادلبي ، السيد ابراهيم الدقر ، جرجس عنحوري ، محمد انيس قصاب حسن ، الحاج سليم اغا (الذي سمح بالنصف الباقي) ، الياس مخشن ، الشيخ سعيد متولي قطنا ، السيد صلاح القتلان ، الخواجة نقولا خباز ، وابراهيم التركريتي . ولم تذكر مبالغ الديون التي كانت لكل واحد من هؤلاء ولا نوعيتها ، أو فائدتها او مدتها . وكان السيد ابراهيم المالح قد أشار في معروضه الى أن الديون التي بذمته هي ثمن بضائع لاربابها ، مما يدل على أن هؤلاء الدائنين هم من التجار الذين قدموا ، كما يرجح ، البضائع للسيد ابراهيم المالح على ان يدفع ثمنها فيما بعد . وليس هناك دليل على نوعية البضائع التي تعامل بها المدين والدائنون . ولكن وجود أربعة من المسيحيين بين الدائنين ، وربما خامس هو فتح الله طراد ، الى جانب ثمانية ، أو تسعة ، من المسلمين أمر له دلالته، لانه يظهر القاسم المشترك الذي جمع هؤلاء في التجارة وغيرها ، وكذلك التعامل على قدم المساواة في عقد الديون وتحمل نتائجها . ويتبين أيضا من كون اثنين من الدائنين حملا لقب « الحاج » وآخر « الشيخ » ، وثلاثة لقب «السيد»، وربماكانوا من الاشراف ، ان طائفة التجار لم تكن مقتصرة على فئة معينة من الناس . وان مهنة التجارة صهرت وقربت بين الناس على اختلاف مذاهبهم ومستوياتهم الاجتماعية .

وفي قضية أخرى نظرت السلطات في الديون المترتبة على أحد الصناع ، وربما كان يعمل في اعداد مواد البناء . وبالاتفاق مع دائنيه قرر معظمهم أخذ ربع ما هو مدين

بـه لهم وأبرأوا ذمته من الباقي ، في حين أبرأ البعض ذمته من الدين كاملا (٦٩) .

وهناك عدة قضايا تدل على الازمات التي اخذت تعاني منها ، بخاصة ، الحرف التي كانت تساهم في تصنيع الاقمشة . من ذلك معروض حسن بن حسين الصباغ الى السلطات في دمشق ومضمونه : « يعرض عبدكم اني صباغ وأبي صباغ وجدي صباغ ولنا قدمه بصبغ نيل وأحمر وأخضر والان ظهر بصمجية متعلقين على صباغ الاحمر من نحو عشرة سنوات ولم احد مانعهم والان يريدوا يمنعونا من كارنا وكار ابونا وجدنا ونحن فقرا وأصحاب أعيال وعلينا مال مكسور الى أربابه ويقولوا لنا شاركونا وبطل شغل النيل والا لم يخلونا نشتغل والامر أمركم » . وقد رأت السلطات بتاريخ ١٦ جمادى الثانية ١٢٦١ / ٢٢ حزيران ١٨٤٥ « أن مقدم المعروض رجل فقير الحال ومعارضته وممانعته من تعاطي أسبابه غير موافق لكون أن اليد الواحدة ممنوعة بالوجه الشرعي والعرفي فيقتضي عدم المعارضة في تعاطي أسبابه » (٧٠) . ويتبين من هذه القضية أن احد أساسيات العمل الحرفي ، وهي توزيع العمل والتخصص فيه ، قد انتهكت آنذاك حين سلب أحدهم الصباغة باللون الاحمر لعدة سنوات ، وأريد سلبه بعد ذلك الصباغة باللون النيلي ، من قبل أناس ليسوا من المهنة (متعلقين) . وهذا الاعتداء على التخصص يدل على أن مرابح هذه المهنة لم تعد كافية . لذا عمد البعض الى تجميع أكبر عدد ممكن من التخصصات الحرفيـة في أيديهم . وجاءت السلطات لتدعم تقاليد العمل المتعارف عليها .

وفي قضيتين اخريين ، احداهما تقدم بها اليهود من طائفة غسالي القماش ، والثانية رفعها طباع فقير « يطبع القماش » في عام ١٢٦١ / ١٨٤٥ ، برز خلاف بين المعلمين والصناع في هاتين الحرفتين حول أجور الصناع . ولم تقف السلطات الى جانب أي من الفريقين ، بل تركت لكل حرفة حل خلافاتها بنفسها (٧١) . وهذا دليل ، من ناحية ، على استقلالية الطائفة المهنية تجاه الدولة ، وعدم تدخل هذه الاخيرة في شؤونها . ومن ناحية ثانية ، فان اثارة الخلافات حول الاجور بين المعلمين والصناع ، في هذه الطوائف الحرفية بالذات التي عملت في تصنيع الاقمشة ، دليل آخر على الضائقة التي أخذت تعاني منها الاقمشة المحلية التي تعرضت لمنافسة البضائع الاجنبية . والمعروف أن المعلمين في الحرفة ، وهم الذين يحق لهم افتتاح الدكاكين والمشاغل ، يحاولون في اوقات الضيق الاقتصادي أن يقللوا من أجرة الصناع لتلافي الخسارة ، او لتفادي التقليل من ارباحهم . وليس هذان المثالان الا شاهدين على حالة عامة من الشقاق ضمن الطوائف الحرفية ، وبخاصة منها التي تتعاطى صناعة الاقمشة التي تهددت مصالحها بفعل المنافسة الاوربية . وقد اشار الياس قدسي ، الذي كتب

في عام ١٨٨٣ عن الحرف الدمشقية ، الى « الثورات التي تحدث من الفعلة على المعلمين بطلب تزيد الاجرة (ويعبرون عنها بقولهم « الكار قالع » أي ثائر) »(٧٢) .

ونستدل من هذا أن الضائقة المالية التي لحقت بالحرف قد أزّمت العلاقة بين الصناع والمعلمين الى الحد الذي وصف به احتجاج الصناع بأنه ثورة . وفي هذا ملامح صراع طبقي في مجتمع بدأت تتسرب اليه الرأسمالية الغربية وتهز أسسه التقليدية المتوازنة وتسهم في ايجاد الفوارق في الثروة بين المنتجين والمستهلكين . ولم يكن ، في الاقتصاد الحرفي التقليدي ، تباين كبير في الثروات بين المعلمين في أية مهنة، أو بينهم وبين الصناع . ويلاحظ في تصنيع الاقمشة مثلا أن المشاغل كانت فردية ومتواضعة ، ولم يزد عدد الانوال في أي منها ، كما يتبين من معظم سجلات الوثائق الشرعية ، عن أحد عشر نولا . وضم معظمها بين نولين وأربعة أنوال . ومردود هذه الانوال المعتدل يوزع بشكل مقبول أرباحا للمعلمين وأجورا للصناع . ولكن المجابهة مع الصناعة الاوربية لم تضعف الصناعة المحلية فحسب بل زادت من التناقضات الاجتماعية حتى داخل الحرفة الواحدة ، وأصبح الحرفيون الفقراء عنصر عدم استقرار سياسي واجتماعي في دمشق .

ومن الامثلة البارزة التي تجلى فيها الاثر المدمر للاقتصاد الاوربي على الاقتصاد المحلي التقليدي ما حدث لانتاج قماش الالاجه الفاخر في دمشق . وكانت الالاجه ، الى جانب قماش القطني ، أهم نسيجين في دمشق . وتختلف نسبة الحرير في كل منهما . ولكنهما يشتركان في انتاج النسيج المقلم ، وفي تسويق هذا القماش على شكل قطع أو أثواب ، طول الثوب منها في الغالب ، كما قدر في حوالي ١٨٦٣(٧٣) ، (٦٫٠ر٥ ، أمتار ، بعرض (٧٠) سم . وقدر مصدر آخر طولها بتسعة أذرع أو تسعة وربع . وذلك قبل غسلها ودقها وكبسها (٧٤) . ولا يعرف هنا بدقة طول الذراع المستخدم ، ولا يمكن حسابه على أساس التقدير بالامتار لان عمليات الغسل والدق والكبس ستعدل من الطول المذكور ، وكان ربع كل ثوب من الالاجه والقطني مصنوعا من الساتان ، وبقية الثوب في القطني مصنعة من الحرير في اللحمة ومن القطن في السدى. اما ثوب الالاجة فبقية الثوب مصنعة من القطن في اللحمة ومن الحرير في السدى ،أي ان نسبة الحرير فيه هي الغالبة(٥٧) ، وبالتالي كان سعره مرتفعا ، ولا يتمكن من شرائه الا القادرون .

وقد قدر عدد الانوال التي كانت تنسج قماش القطني في دمشق عام ١٨٥٠ بـ٦٥٣ نولا تستخدم ٦٥٣ رجلا و ٣٠٠ ولد . وبلغ عدد انوال الالاجه آنذاك ١٠١٣ نولا تستخدم ١٠١٣ رجلا وحوالي ١٣٠٠ ولد . وانتجت هذه الانوال بمجموعها ما يقرب

من (٢٢٠ الى ٢٣٠) الف ثـوب في السنة(٧٦) . وتظهر اعداد الانوال هذه ، وكذلك انتاجها ، عام ١٨٥٠ ، تراجعـا كبيرا عما كان عليه عـدد الانوال وانتاجها في اواخر الثلاثينات من القرن التاسع عشر ابان الحكم المصري . فقد قدّر عدد الانوال التي انتجت القطني والالاجه آنذاك بـ ٤٠٠٠ نول ينتج كل منها في الاسبوع ما بين أربعة الى خمسة اثواب (٧٧) . أي ان انتاجها السنوي يقدر ، على هذا الاساس ، بحوالي ٨٣٢ الف الى ١٫٠٤٠ الف ثوب.

ويـدل هذا التراجـع في الانتـاج على شـدة منافسـة البضائـع الاوربيـة للبضائع الشامية في السوق المحلية . ونظرا لان الاقتصاد المحلي ، بمـواده الخـام والمصنعة ، أصبح يدور في فلك الاقتصاد العالمي ، فان أيـة تبدلات في هذا الاقتصاد الاخير من شأنها أن ترمي بظلالها على الاقتصاد المحلي .وقد حدث مثلا ، في عـام ١٨٥٦ ، أن أصيب انتاج الحرير في أوربا وتركيا بكوارث طبيعية ، فتضاعف سـعر الحرير في بلاد الشام ، وأفادت من ذلك صناعة الاقمشة الحريرية المحلية فزادت من أنوالها ، وبالتالي من انتاجها . وبلغ عدد الانوال في ذلك العام ٢٨٠٠ نول أنتجت حوالي ١٢٠ ألف ثوب من القطني و٢١٠ الاف ثوب من الالاجه ومن نسيج آخر مشابه ، عرف بالصوراتي . وسوّق نصف هذه الاثواب في حلب وأزمير واستانبول وآسيا الصغرى، وسوق ثمنها في بغداد ومكة ، ومثل ذلك في دمشق وصيدا (٧٨) .

الا أن صناعة الاقمشة الحريرية والقطنية في دمشق لم تلبث أن انتكست ، وخلال أربع سنوات ، من جديد . فقد ازداد سعر الحرير عالميا بمعدل ٥٠ ٪ ، كما زادت الحكومة العثمانيةمن الضرائب الجمركية على الاقمشة المحلية وموادها الاولية . ففي العهد المصري لم تفرض اية ضريبة على المواد الاولية الداخلة الى دمشق من القـرى المجاورة ومن لبنان ، كما ان الانسجة الحريرية لم تدفع ضريبة حـين تصديرها مـن دمشق . وبعودة الحكم العثماني فرض على الحرير عند دخوله دمشق ضريبة قدرها ١٢ ٪ من قيمته ، كما توجب على الاقمشة المصدرة منها ان تدفع حوالـي ٥ الى ٦ ٪ من سعر القطعة . وعلق القنصل الفرنسي في دمشق على ذلك ، في أوائل عام ١٨٦٠ ، انه نظرا لهذه الاحوال فقد توقف عدد كبير من الانوال عن العمل (٧٩) .

وكانت الكارثة الرئيسية التي ألمت بصناعة النسيج في دمشق وانقصت انتاجهـا الى النصف تقريبا ، الاضطرابات الاجتماعية التي حدثت في عام ١٨٦٠ . فقد أحرق أو تعطل انتاج عدد كبير من الانوال ، وقدّر عدد ما بقي منها في أواخر عـام ١٨٦٢ بحوالي ٣٠٠ نول (٨٠) . ثم عادت الحركة الصناعية في دمشق الى الانتعاش حين عاد

اليها عدد كبير من الحرفيين المسيحيين الذين لجأوا الى لبنان (٨١) ، في حين استوطن الباقون بيروت والقاهرة والاسكندرية واسهموا في تطوير اقتصاديات هذه المدن .

وتنعكس الازمات التي مرت بها الصناعة الدمشقيه ، وبخاصة صناعة الاقمشة ، في ارتفاع ثمن الانوال وانخفاضها ، وتكرار بيعها في أوقات الكساد . وكانت أكثر الانوال طرحا في السوق انوال الالاجه نظرا لكلفة انتاجها المرتفعة وصعوبة تسويق أثوابها الفاخرة بين الاهالي الذين كانوا يزدادون فقرا بغالبيتهم العظمى . ويرتبط بالانوال مصير المشاغل التي اقيمت فيها ، وكذلك مصير الدكاكين التي سوقت انتاجها . والذلك طرحت للبيع أيضا المشاغل والدكاكين التي تنتج او تسوق الالاجه باكثر من غيرها . وعلى غرار أسعار الانوال ، تبدلت أسعار شغل هذه المشاغل والدكاكين ، ارتفاعا أو انخفاضا ، بحسب السوق . واستعملت كلمة « كدك » التركية للتعبير عن عدة الدكان ، من أنوال أو خزائن أو رفوف ، وغير ذلك . واستعملت كلمة « خلو » العربية للتعبير عن المال الذي يدفع لاشغال المكان ، وهو ما زال ساريا ومتعارفا عليه حتى يومنا هذا . وحين تذكر الكلمتان معا ، كان يقال ان فلانا اشترى كدك وخلو الدكان ، فان ذلك يعني أنه اشترى العدة وحق استعمالها في مكان تواجدها ، أي حق اشغال ذلك الدكان واستعمال العدة فيه . ويلاحظ انه يمكن بيع أجزاء من الكدك والخلو تقدر بالقيراط ، ووفي هذه الحال يكون البائع قد ورثها ، كما ان النساء كثيرا ما تملكن الكدك والخلو حينا عن طريق الوراثة ، وحينا بتوظيف المال المتجمع لديهن ، حين يكون الكدك والخلو لدكان ما ، أو مشغل ، مربحا ، أي ان السلعة التي يبيعها الاول ، او يصنعها الثاني ، رائجة . والقائمة التالية(٨٢) المبينة على سجلات محاكم دمشق الشرعية توضح لنا أسماء مالكي وبائعي الكدك والخلو ، وأماكن تواجد المشاغل والدكاكين ، وأسعار بيعها .

* * *

نماذج من عمليات بيع وشراء أدوات وأماكن الانتاج والتسويق والخدمات

التاريخ	المشتري	البائع	كيفية تملك البائع	الحصه المباعة والسلعة	الموقع	الثمن بالقروش
٢٩ ربيع١ ١٢٥٧/ ٣١ أيار ١٨٤١	شمعون الشطاح اليهودي	الشيخ عبد الله افندي الحلبي	بالشراء من المشتري	جميع دكان الصباغة (بناء وادوات)	بمحلة الخراب	٤ر٥٠٠
١٥ ذو القعدة ١٢٥٧/ ١٧ كانون اول ١٨٤١	الحاج محمد الحلبي	السيد مصطفى القفصماني بالوكالة عن حرمة	بالارث	جميع كدك وخلو المخزن داخل خان الحماصنة	قرب البزورية	٦٥٠
١١ جمادى١ ١٢٥٨/ ٢٠ حزيران ١٨٤٢	المعلم جريس شريقية النصراني بالوكالة عن الحرمة تقلا	جريس اللبان	بالارث	جميع كدك الدكان بخان الكرجية فيها دواليب للفتالة	حارة النصارى	٢ر١٥٠
٨ ربيع١ ١٢٥٩/ ٨ نيسان ١٨٤٣	السيد عمر الرهونجي بالوكالة عن ابنه القاصر	خليل حشيش	بالشراء في ١٢٥٠	جميع كدك وخلو الدكان بخان الدبس وفيها ١١ نول الاجه	محلة القيمرية	٢ر٠٢٠
١٢ ربيع١ ١٢٥٩/ ١٢ نيسان ١٨٤٣	السيد حمزة شحادة	الحاج عرابي ابن السيد يوسف	بالشراء في ١٢٥٠ و ١٢٥٨	جميع الدكان داخل الخان وفيها نولان لنسج المناشف	محلة الشويكة	٣٥٠
٦ رمضان ١٢٥٩/ ٣٠ أيلول ١٨٤٣	عبد الله النديم النصراني بالوكالة عن ولده القاصر	حنا جبارة وشركاه	بالارث	جميع كدك وخلو الدكان بطالع القبة وفيها دولابان للفتالة	حارة القصبة	٢ر٠٠٠

التاريخ	المشتري	البائع	كيفية تملك البائع	الحصة المباعة والسلعة	الموقع	الثمن بالقروش
٢٨ شوال ١٢٥٩ / ٢١ تشرين اول ١٨٤٣	الحاج حوري الحمصي	السيد عبد الغني جبري الوكيل عن حرمة	بالارث	جميع الدكان بزقاق المليحي فيها انوال لنسج الحرير	محلة مأذنة الشحم	١٠٠ر١
٥ محرم ١٢٦٠/ ٢٦ كانون ثاني ١٨٤٤	المعلم باروخ المغربي اليهودي	الشيخ احمد المنجد	بالشراء في ١٢٥٧	جميع كدك وخلو الدكان لصيق بركة السبيل بسوق المنجدين		٦٠٠ر٧
٢٧ رجب ١٢٦٠ / ١٢ آب ١٨٤٤	المعلم الياس شحيرة وكيل المتولي على وقف دير صيدنايا	الخواجة سركيس دبانة بالوكالة	بالارث	جميع عمارة وبناء الدكان وفيها ٤ دواليب فتالة	محلة النصارى	٥٠٠ر١
٢٨ جمادى١ ١٢٦١/ ٤ حزيران ١٨٤٥	السيد حسن جلبي بالوكالة	احمد وحسن ولدي القصاب باشي وغيرهما	بالارث	جميع كدك وخلو دكان اللحامة بسوق راس البزورية	قرب فرن الزين (ثم اجرت ٢٧ قرشا بالسنة)	٥٠٠ر٩
٢١ ربيع٢ ١٢٦١/ ٢٩ نيسان ١٨٤٥	الحاج عبد الفتاح الحمصي بالوكالة عن زوجته	الحاج عمر الاقسماوي	من تعميره	جميع كدك وخلو الدكان المعدة للكنافة	بمحلة سوق القاضي	٢٠٠ر١
١٢ شوال ١٢٦٣/ ٢٣ ايلول ١٨٤٧	الحاج محي الدين البصروي	الحرمة فاطمة الاركزلي	بالارث	الحصة ١٤ و ٤/٥ قيراط من جميع عمارة وبناء دكان شفل السيوف	محلة الحضرة ظاهر دمشق	٨٢٥ر١

التاريخ	المشتري	البائع	كيفية تملك البائع	الحصة المباعة والسلعة	الموقع	الثمن بالقروش
غرة جمادى ١ ١٢٦٤/ ٥ نيسان ١٨٤٨	الحاج حسين الانقود	الحاج محمد الريحاوي	بالشراء في ١٢٦١	جميع كدك وخلو الدكان وفيها ٦ انوال الاجه	بمحلة الجورة داخل خان	٥٠٠
١٤ رجب ١٢٦٥/ ٥ حزيران ١٨٤٩	احمد افندي الاسلامبولي	عيدي افندي الكردي	بالشراء في ١٢٦١	جميع الدكان وفيه ٨ انوال الاجه	بمحلة باب مصلى بزقاق المخللاتي	٢٫٥٠٠
غرة ربيع ١ ١٢٧٣/ ٣٠ تشرين ١ ١٨٥٦	الخواجه ابراهيم صيدناوي	الخواجة حنا فارس	بالشراء في ١٢٧٢	١٢ قيراط من جميع كدك وخلو الدكان وفيها ٧ انوال لنسج الالاجا والكريشة وغيرها	بمحلة طالع القبة داخل خان الحمام	٥٠٠
ختام ربيع ١ ١٢٧٥/ ٧ تشرين ٢ ١٨٥٨/	الخواجة ميخائيل الطوى والخواجة انطون الطوى	السيد حامد جلبي بالوكالة عن حرمة	بالشراء في ١٢٦٨	جميع عمارة وبناء الدكان وفيها ٥ انوال الاجه	خان عيسي القاري	٣٫٢٠٠
٦ القعدة ١٢٧٥/ ٧ حزيران ١٨٥٩	السيد درويش الروماني	الخواجة ابراهيم الزبال	بالشراء في ١٢٦٨	جميع عدة دكان الفتالة وفيها ٣ دواليب وتوابعهم	محلة الخراب بخان الجاموس	٤٦٠٠
٢٧ شوال ١٢٧٧/ ٨ ايار ١٨٦١	الخواجة حنا الفتال العيساوي	الخواجة يوسف البيطار العيساوي	بالشراء في ١٢٧٠	الحصة ١٢ قيراط من جميع كدك وعدة الدكان وفيه ٣ دواليب لفتل الحرير	بمحلة باب توما بخان بين العمارين	٧٥٠

نلاحظ في هذه القائمة اثباتها هوية كل من البائع والشاري ، وكذلك انتقال السلع بين مختلف الطوائف . وضمت القائمة مبيعات تتعلق بغير صناعة الاقمشة ، للمقارنة بين اسعار مختلف الخدمات والبضائع في مدى عشرين عاما . وتظهر القائمة كذلك اماكن تواجد الفعاليات الاقتصادية وحجمها وتوزعها على مختلف احياء المدينة وخاناتها .ويدل هذا على عدم وجود مناطق صناعية تختص كل منها بانتاج نوع معين من السلع ، أي ان انتاج السلع كان يتم غالبا في خانات ودكاكين متفرقة في انحاء المدينة .

وبينت القائمة كيفية تملك البائع للمرفق المبيع ، وما اذا كان قد آل اليه عن طريق الارث او بالشراء . ولو ذكرت الوثائق سعر الشراء الذي دفعه المالك ، الى جانب تاريخ حجة البيع التي ذكرت في حالات كثيرة ، لامكننا معرفة نسبة سعر المبيع الوارد في القائمة الى سعر الشراء . ويلاحظ ورود اسماء بعض النساء والقاصرين بين الشارين بواسطة وكلاء عنهن ، وأوصياء عنهم ، مما يدل على توظيف أموال النساء والقاصرين في عقارات أو مصالح تجارية .

ان كثرة طرح أنوال الالاجه للبيع ، خلال السنوات العشرين التي غطتها القائمة، وبيع بعض مالكيها لها بعد سنوات قليلة من شرائها ، يبين المصاعب التي اعترضت تسويق هذا النسيج ، بالمقارنة مع غيره من المنسوجات الارخص ، كالقطني مثلا .

وقد لخص مراقب فرنسي يدعى غوستاف روبان (Gustave Robin) في تقرير له من دمشق بتاريخ ١٩ تشرين الاول ١٨٦٩(٨٣) ، الوضع التجاري والصناعي في المدينة ومقدار ما عانته الصناعة الدمشقية والشعب ، تحت تأثير الرأسمالية الاوربية بقوله: أن الصناعات التي اسهمت في السابق في غنى دمشق وشهرتها قد اندثر بعضها ، وبعضها الاخر في طريق الاندثار ، والاهالي الذين يزدادون فقرا كل يوم لا يطلبون من أوربا الا منتجاتها السيئة ، ويغلقون أسواقهم في وجه معظم المستوردات الفرنسية . وربما تجدر الاشارة هنا الى سيطرة البضائع الانكليزية وغيرها من البضائع الاوربية . وفي قائمة الواردات والصادرات التي ارفقها غوستاف روبان بنهاية تقريره، جاء ان وزن الاقمشة التي نقلت من بيروت الى دمشق في عام ١٨٦٨ بلغ ٣٥٢ر٨٢٤ اوقة (الاوقة تعادل آنذاك ١ر٢٨٢ كغ) أي ما يعادل ٤٥٢ر٣٢٠ كيلو غراما ، في حين كان وزن ما نقل من دمشق الى بيروت ١٠٩ر٣٠٥ كغ . واحتلت الاقمشة المرتبة الثالثة ، بعد الرز والسكر ،في قائمة المستوردات من بيروت الى دمشق ، وشغلت المرتبة الرابعة في قائمة الصادرات بعد الدقيق والصوف والاصبغة ، مع النظر بعين الاعتبار الى الفارق الكبير بين الكميتين .

موقف الصناعة الدمشقية من التحدي الاوربي

أدت منافسة البضائع الاوربية للبضائع المحلية الى حـدوث تطورات هامـة في التمويل والتصنيع وفي العلاقات التجارية المحلية . وقد قاومت بعض الصناعات المحلية أي تغيير في بنيتها ، ولم تستطع المنتجات الاوربية أن تحـل محلها ، بتأثـير العادات الاجتماعية المرتبطة بها . وكمثال على الصناعات المحلية التي لم تندثر صناعـة فوط الحمامات التي ظلت رائجة مادام استعمال الحمامات قائما(٨٤) .

ولما كان الاقتصاد التقليدي يقوم ، في الغالب، على المبادرة الفردية في العمل ، والمشاغل والدكاكين التي تحوى الانوال أو أدوات الانتاج الاخرى في ملكية الافـراد ، فقد حدث تطور جديد تحت ضغط المنافسة الاوربية تجلى في الشركة ، أو الشراكة ، في العمل . والهدف من ذلك زيادة رأس المال الموظف للتمكن من انتاج سلعة جيدةبسعر معتدل . ومثال ذلك ما رواه نعمان القساطلي الدمشقي في أواخر السبعينات من القرن التاسع عشر بقوله : « أما الآن فقد نكبت صنائع دمشق أعظم نكبة ولاسيما صنعـة النسيج لسبب غلاء الحرير وكثرة انتشار البضائع الافرنجيه مع عدم متانتها . وهـذا مما دعا الحاذق السيد عبد المجيد الاصفر ان يقلد الالاجهبالغزلليتمكن ابناء الوطن من استعماله ولضيق ذات يده انضم الى السيد حسن الخانجي فامده . وبعد الجهد نال مراده وراج عمله بين الخاص والعام واقتدى به بعض العملةوزادوا عمله اتقانا فاضحى نسيج الديما صناعة مهمة يتعيش بها الوف »(٨٥) .

وقد شاع هذا الاتجاه نحو (الشراكة) في العمل بغية تأمين رأسمال أكبر لمقاومة المنافسة ، المحلية والاوربية ، وتحقيق الجودة في الانتاج ، والحصول، في الوقت نفسه، على أرباح أكبر . ومن مزايا هذه الشراكة انها لم تكن مغلقة طائفيا بل ضمت اناسـا من مختلف المذاهب .

وفي ميدان الشراكة المساهمة في الانتاج فقد ذكر القساطلي ان بعض اعيان دمشق اجتمعوا في عام ١٨٦٠ وأقاموا كرخانة* تدير آلاتها المياه لغزلالقطن ، وانفقوا عليهـا مالا كثيرا . وبعد صعوبات كثيرة ، توقف خلالها الانتاج لعدم حسن الغـزل ، عادت الكرخانة الى العمل . وكانت تغزل في كل يوم نحو ستين رطلا من القطن(٨٦) .

* التعبير مشتق من الكلمتين التركيتين الفارسيتي الاصل كار (kar) وتعني حرفة ، وخانة (hane) وتعني المكان . وتعنيان معا المشغل أو المعمل .

وحاولت صناعات محلية كثيرة التأقلم مع المؤثرات الاجنبيــة ، فظهرت عــدة صناعات يظهر فيها اللون المحلي والاثر الاوربي في آن واحد . ومنها ما نجح في تقليــد البضاعة الاوربية ووصل الى حد التفوق عليها . وقد ذكر القساطلي ان رجلا من بيت مرتضى استنبط « شكلا جديدا منقوشا نقشا جميلا فراج كثيرا ثم تبعه السيد درويش الروماني وقلد القلاووظ الافرنجي المعرق بمساعدة الخواجة جرجي ماشطة على أن النساء أبين لبسه لانه غير مشرف بوسام أفرنجي فعدل عن عمله » (٨٧) . ويظهر هــذا المثال كيف ان المستهلكين المحليين أخذوا يرتبطون تدريجا بالازياء الاوربية ويمحضونها ثقتهم . وكان هذا تحديا كبيرا للصناعة المحلية التي وجب عليها ان تحافظ على مستوى مناسب من الجودة وان تتأقلم مع الازياء الجديدة لتحظى بثقة المستهلك .

وقد نجح نسيج الديما المحلي في الحصول على ثقة المستهلك ، وفي التأقلم مــع الازياء المستجدة . وقد استوعب ادخال تعديلات عليه ليتفق ولبس البنطلون (الكلمة مأخوذة عن الفرنسية وهي ايطالية الاصل) . وكان صاحب المبادرة في ادخال هــذه التعديلات الخواجة يوسف الخوام الذي رأى « انصباب القوم على لبــس البنطلون واحتياجهم الى نسيج خفيف يناسب الصيف فغير وزاد في نول الديما واتى بنسيج أحسن من النسج الافرنجية وأرخص فنال ثناء الجميع »(٨٨) . ومن منطلــق الحرص على الصناعة المحلية ورواجها ، علق القساطلي ، بروح من الالتزام بالمصلحة الوطنية ، على عمل يوسف الخوام بقوله : « ولو اهتم جميع الصناع اهتمامه في اصلاح صنائعهم لفازوا وأغنوا البلاد عن النسج الافرنجية في برهة وجيزة »(٨٩) .

ولم تقف الصناعات الدمشقية عند تقليد الصناعات الاوربية والتلاؤم معها ، بل أملت في تصدير منتجاتها الارخص سعرا الى اوربا لمصلحة المستهلكين من ذوي الدخــل المحدود . لقد استورد عبد الله بولاد الدمشقي ، قبيل عام ١٨٦٠ ، نولا من فرنســا لصناعة « الجاكار Jacquard » ، باستطاعته ادخال الوان متعــددة ومتشابكــة في النسيج . والتسمية بالنسبة الى الفرنسي J. M. Jacquard (١٧٥٢ ـــ ١٨٣٤) الذي اخترع هذا النول . وبعد سنوات من التجربة أثبت فيها النول المستورد مقدرته علــى انتاج النسيج باشكال متعددة ، استورد عبد الله بولاد نولين آخرين ، مما مكنه من زيادة الانتاج بأشكال وحجوم مختلفة . ولكن اضطرابات عام ١٨٦٠ أدت الى حرق انواله مما أدى بالسيد بولاد الى اليأس . وذكر ان عشرة أنوال من النوع نفسه كانت تعمل في ديــر القمر في الوقت ذاته ثم تناقص عددها (٩٠) . وبالرغم من ان تجربة عبد الله بولاد انتهت الى الفشل في دمشق ، الا انها كانت تجربة رائدة في استخدام الانوال الاوربيـــة في الصناعة المحلية لمواجهة المنافسة الاوربية بمثل مستواها .

ومن الصناعات الدمشقية التي قاست من انتشـار الازياء الاوربيـة صناعـة العقادين ، وكان يعمل فيها آنذاك (حوالي عام ١٨٦٣) نحو خمسمائة صانع وخمسين معلما . والعقاد ، كما يقول القاسمي(٩١)، «من يحترف في خيطان الحرير والصـوف والقطن والشرايط وغيرها » . وتسوق هذه المنتجات في المدن والارياف على حد سواء . ولكن المنتجات الاجنبية المشابهة اضحت تباع في دكاكين المعلمين مـن العقادين الـى جانب المنتجات المحلية . وضمت المنتجات الاجنبية «الكراكر» ،و « الزنانيرالحريرية»، و « السيم المقصب » ، و « شلل الخيطان » ، واكياسـ حريرية مقصبـة للدراهـم وأمثالها(٩٢) . ونظرا لمنافسة المنتجات الاجنبية في العقادة للمنتجات المحلية ، أخذت اعداد العقادين تتضاءل وانتاجهم يخف . ولكنهم وجدوا سوقا رائجـة لمنتجاتهـم في الحجاز(٩٣) .

ومن الصناعات الهامة التي حققت نجاحا كبيرا في دمشق صناعة النجارين . فقد « ضارعوا الاعمال الاوربية وفاقوها اتقانا »(٩٤) كما اشتهرت صناعة الدباغـين ، والسراجين ، وصناعة الفواكه المجففة .

وباجراء مقارنة بين ما أنتجته دمشق من مختلف السلع ، في مدى ست عشرة سنة ، كما ورد في ثلاثـة تقارير فرنسية ، مؤرخـة على التوالي في ١٨٦٣ و ١٨٦٩ و ١٨٧٩ ، تتبين لنا الصناعات التي تطورت وتلك التي انحطت في تلك الفترة . فقد جاء في التقرير الاول بتاريخ ٥ آذار ١٨٦٣(٩٥) أنه قبل احداث عام ١٨٦٠ استهلكت دمشق ٣٠٠ كنتال (حوالي ٨٫٠٠٠ كغ) من الحرير المستورد من جبل لبنان ، ومائة كنتال من حرير الشام والحرير المستورد من بروسه ، وجيورجيا (بلاد الكرج) وفارس . وقدر التقرير ما استهلكته صناعة دمشق من الحرير في عـام ١٨٦٢ بحوالي نصف الكميـة السابقة . ويفسر هذا التناقص بسببين: أولهما هجرةالمسيحيين في أعقاب الاضطرابات، وكانت لهم الاسبقية في صناعة الحرير ، وثانيهما منافسة بضائع حلب ، في الاسـواق الخارجية ، وبخاصة مصر ، لبضائع دمشق الحريرية التي اضعفتها الاضطرابات .

وقد انتجت دمشق ، في عام ١٨٦٢ ، ٢٤ الف ثوب من الانسجة التي تستخدم الحرير والقطن ، وهي الالاجه والقطني . وبيع منها ألف ثوب أو قطعة محليا ، وصدر الباقي الى روميلية وآسيا الصغرى ومصر وأزمير وحلب ، وكان سعر قطعة الالاجـه (٦٫٥٠ مترا × ٧٠سم) بين ٢٠ و ٢٥ فرنكا . وهناك نوع آخـر منها أرخص ثمنـا يراوح بين ٩ـ١٣ فرنكا . وبلغ مجموع الانوال التي صنعت هذه الانسجة ١٧٠٠ نول .

ووجد ٥٥٠ نولا تنتج اقمشة قطنية يلبسها الصناع والعمال ، انتجـت في عام

١٨٦٢ ما مجموعه ٢٩٧ ألف ثوب طول واحدهما ٣٠ر٦ امتار وعرضه حوالي ٧٥ سم . وبيع الواحد منها في مطلع عام ١٨٦٣ ما بين ٤و٥ فرنكات ، ثم ارتفع سعره في العام نفسه الى ٦ـ٧ فرنكات بسبب ندرة القطن .ونظرا لغلاء اسعار انتاج هذه الانوال فقد توقف أكثر من مائتي نول منها عن العمل . وكان يعمل في تصنيع هذا النسيج قسم كبير من الجالية الجزائرية بدمشق .

وكان يعمل في صناعة المشالح ذات الالوان المتعددة ٣٠٠ نول . وصنع منها ٣٥ ألف مشلح في عام ١٨٦٣ ،استخدم نصفها محليا ، وصدر الباقي الى انحاء سورية ومصر .

ووجد ٣٠٠ نول تنسج كتانا ابيض ، خفيفا وممتلئا يسمى مبروم ، وله سوق رائجة في مصر . وقد صدر اليها ٣٠٠ ألف قطعة منه عام ١٨٦٢ . وينسج المبروم بكامله من قبل النساء . وعانى هذا النسيجآنذاك من ندرة القطن ، وتعطل نصف انواله . وتنسجمائة نول آخر نسيجا مشابها ولكنهأكثر سمكا واكتنازا،يستخدم كملابسداخلية للقرويين ، ويشهد التقرير الفرنسي ان هذا النسيج أحسن وأكثر صلابة من الكتان القطني المستورد من أوربا ، وبخاصة انكلترا .

وينسج ٥٠ نولا الشالات التي تقلد برسومها شالات فارس ، واللحمة فيها من الحرير والسدى من القطن . وطول الشالة (٨٠ر٢) مترا وعرضها متر واحد ، وسعرها يراوح بين ١٠ ــ ١٢ فرنكا للنوع العادي و ٢٠ــ٢٢ فرنكا للنوع الممتاز الذي يدخل الحرير في سديه . ومن الشالات ما هو مصنوع بكامله من القطن لاستعمال الطبقة الفقيرة وسعر القطعة منه بين ٦ ــ ٧ فرنكات . وثلاثة أرباع الشالات يصدر الى استانبول ومصر وأزمير . وقد انتج منها ، عام ١٨٦٢ ، أكثر من ٤٠ ألف شالة .

واستعمل في صناعة الكوفيات (الكوفية قماش مربع طول طرفه بين ٧٥ ــ ١٠٠ سم) (٣٠) نولا ، تخصص نصفها بانتاج الكوفية الحرير ، والنصف الآخر بصناعة الكوفية القطن .ويصدر قسم من النوع الاول ، ويستخدم الباقي منه الميسورون . أما الكوفيات القطنية فتباع الى البدو والفلاحين . وسعر الكوفيةمن النوع الاول يراوح بين ٢٠و٣٠ فرنكا ، ومن النوع الثاني ٣ الى ٤ فرنكات .

ويعمل في دمشق ٦٠ نولا تنتج قماش الكريب الحريري على نوعين ، احدهما خيطه مبروم ومن الوان متعددة والاخر انعم بكثير ويصنع من الحرير الابيض أو البني . ويعرف هذا النسيج باسم بامبازار ، وأبعاد قطعته (٥ر٦) أمتار طولا و (٧٥

سم) عرضا ، وتباع الواحدة بين ٢٠ و ٣٠ فرنكا . وانتاجه يصدر بمجموعه تقريبا الى الداخل ، وبخاصة الى نابلس ويافا والقدس وبغداد . ووجد ٥٠ نولا تصنع السجاد والمخدات وأقمشة الديوان وغيرها ، وتستخدم الصوف والقطن .

وهناك ٥٠ صائغا يتعاطون صناعة الفضة ،وقد صنعوا ١٠٨٠ اوقه (١٣٨٤ر٥٦٠ كغ) في عام ١٨٦٢ ، اشترى الفلاحون تسعة أعشارها ، ويتعاطى ثمانية صياغ تصنيع الذهب . وقد صنعوا في عام ١٨٦٢ حوالي ٤٠ أوقة من الذهب (٥١ر٢٨٠ كغ) . ويعمل خمسة صياغ في الاحجار والمجوهرات . وتأتي الجواهر في الغالب من استانبول حيث تصنع باتقان .

وتستورد ألواح النحاس بكاملها من انكلترا ، وتصنع منها الصحون والطناجر والقناديل وأدوات المطبخ . ووجد في دمشق ٦٠ الى ٧٠ نحاسا و ٦ مروبصين . وقد صدروا في عام ١٨٦٢ ما قيمته ٥٠٠ر٠٠٠ قرش (١٢٥ر٠٠٠ فرنك)،الى داخل سورية بما في في ذلك الى البدو .وتمتاز دمشق بتطعيم النحاس بالفضة ، ولكن أصحاب هذه الحرفة تضاءل عددهم ، ومن بقي منهم طلب اجورا عالية .

ومنذ أن بدأت اوربا بتصدير الادوات الحديدية الى سورية تضاءلت أهمية الحدادين المحليين وقل عددهم ، ولم يبق منهم في دمشق أكثر من مائة حداد ، يصنعون السكك والفؤوس والمجارف والمسامير . وأكثر الحدادين عملا أولائك الذين يصنعون نضوات (نعال) الخيل ، وبالرغم من استيراد كميات من هذه النضوات من لبنان ، فان عدد ما صدر منها الى الداخل قدر سعره بـ ٢٠٠ر٠٠٠ قرش (٥٠ر٠٠٠ فرنك)، ويؤكد القساطلي انحطاط مهنة الحدادة بقوله : « وأما الحدادون فاعمالهم متأخرة ».

وكان يعمل في مهنة السروجية في دمشق حوالي ٥٠٠ صانع ، يصنعون عدة أنواع من السروج واللجم والرسن والحياصات . وقد بلغت هذه الصناعة حدا كبيرا من الاتقان ، وتشكل منتجاتها قسما كبيرا من صادرات دمشق .وكانت قيمة ما صدر منها في عام١٨٦٢ تزيد على ١ر٨٠٠ر٠٠٠ قرش (٤٥٠ر٠٠٠ فرنك) . وقدرت الكميات التي بيعت داخل ولاية سورية ، وللبدو ، بأكثر من ١ر٢٠٠ر٠٠٠ قرش .

ووجد في دمشق اكثر من الف صانع للاحذية (كندرجي) . وقسم من الجلد الذي يصنعونه ينتج فيدمشق ، وكان من نوعية ممتازة ،والباقي يستورد من انطاكية ومدن اخرى في اسيا . وازدهرت صناعة القباقيب التي تستعملها النساء داخل البيوت ، وللخروج في الجو السيء . وكان يعمل بها ٢٠٠ صانع يصدر نصف انتاجهم الى مصر ، وحلب .وقدر ثمن ما صدر منها عام ١٨٦٢ بـ ١ر٢٠٠٠ر٠٠ قرش .

وفقدت صناعة السلاح الابيض التي اشتهرت بها دمشق في السابق ، الكثير من

اهميتها . فوجد معلم واحد يصنع نصال السيوف العادية ، وبعض الصناع الذين يصنعون الخناجر . وقد صنع ٢٠٠٠٠ر٢٠ خنجر عام ١٨٦٢ ، يراوح سعر الواحد منها بين ٥ ــ ٢٠ قرشا . ونظرا لمنع تصدير هذه المنتجات الى بقية انحاء سورية ، في عام ١٨٦٣ ، تضاءل عدد الصناع في هذه الحرفة . ومع ذلك تسرب ثلاثة أرباع هذه المنتجات الى خارج دمشق تهريبا .

ووجد في دمشق ٦٠ معلما لصناعة الأثاث ، يرصعون خشب الجوز والزيتون والشوح بالفضة والصدف . وباستثناء معلمين أو ثلاثة ،كان هؤلاء المعلمون على درجة كبيرة من الابداع والاصالة في صناعتهم . ويباع معظم انتاجهم محليا . ولم تتجاوز قيمة الصادرات ٠٠٠ر٢٥٠ قرش تقريبا .

وكان يوجد في دمشق معملان للزجاج يتبعان الطرق التقليدية ، وينتجان الزجاجات (القناني) والمصابيح والكؤوس . ولم تصل هذه الصناعة الى الجودة ، وانتاجها لا يصدر الى الخارج .

ومن الصناعات الرئيسية في دمشق صناعة (الاراكيل) التي تلقى سوقا رائجة في الخارج ، وتصدر الى حلب والقدس ومصر ، وتقدر صادراتها بحوالي ٠٠٠ر١٠٠ قرش (٠٠٠ر٢٥ فرنك) وتتبعها صناعة (البرابيش) التي يمص بواسطتها الدخان ، وكانت تزخرف بالحرير والخيوط الذهبية ، وتلون بألوان جميلة . وتتراوح قيمة (البربيش) بين ٢٥و٤٠٠ قرش (٦ ــ ١٠٠ فرنك) .

وكانت دمشق تمتاز بصناعة الفواكه المجففة ، وبخاصة المشمش ، واستخدمت هذه الصناعة ، عام ١٨٦٢ ، ١٢٢٥ كنتالا من السكر (٩٠ر٣١٤ كغ) . وصدرت منها ما قيمته مليون ونصف مليون قرش تقريبا ويتراوح سعر الرطل منها (٥٦٤ر٢ كغ)، بين ٢٥ و ٣٥ قرشا . وكان رطل السكر يباع ب ١٥ ــ ١٨ قرشا .

واشتهرت دمشق بصناعة ماء الورد وماء الزهر ، وكذلك العطور . وكانت تنتج حوالي ٠٠٠ر٢٠ كنتال من الصابون تصدر ثلثها . وينتهي تقرير ١٨٦٣ عن صناعات دمشق الى ان فن تزيين البيوت أخذ بالانحطاط نظرا لضآلة الثروات . ولا يوجد من الصناع من هو على مستوى القدامى في هذا الفن .

ويشير التقرير الثاني الذي كتب من دمشق في ١٩ تشرين الاول ١٨٦٩ الى أن صناعة الاسلحة البيضاء متأخرة جدا ، ولهذا تباع في دمشق النصال المستوردة من

فارس أو لييج أو صولينجن . أما صناعة الاثاث فقد فقدت الكثير من رونقها وما يصنع منها ، مثل الصناديق والطاولات الصغيرة ، فهو خشن وضخم ، ويشتريه عادة الفلاحون .

وينطبق الشيء ذاته على صناعة الزجاج التي لم تتطور . وما زالت (شيشة الاركيلة) الزجاجية تستورد من أوربا ، وبخاصة بوهيميا ، كما تستورد الشيشة النحاسية من المانيا . والحفر على النحاس متأخر بدوره . كما أن الصياغة في انهيار ، ويعزى ذلك الى هجرة الصناع المسيحيين أثر احداث ١٨٦٠ .

ولكن الاقمشة الصوفية والحريرية المصنعة في دمشق احتلت المرتبة الاولى في التصدير . ومن هذه الاقمشة الديما التي يعمل فيها نحو ألفين من الصناع ينتجون ١٥٠ر٠٠٠ ثوب في السنة يصدر معظمها الى استانبول والاناضول ومصر وبغداد .

وكان طول الثوب الواحد ١٢ ذراعا (تعادل ١٦ر٨ مترا) وعرضه ٥١ سم* وكانت خيوط الديما تستورد من انكلترا وتصبغ في دمشق . وألوان هذا القماش الرائجة كانت الازرق المقلم بالاحمر أو الاخضر أو الاصفر ، وكذلك الاحمر الغامق المقلم بالابيض أو الاصفر أو الازرق .

وكان يعمل في نسيج الالاجه في عام ١٨٦٩ حوالي ١٥٠٠ الى ١٦٠٠ صانع ينتجون حوالي ١٠٠ ألف ثوب سنويا ، تصدر ثلاثة أرباعها . ويسجل هذا الانتاج زيادة كبيرة على انتاج عام ١٨٦٢ الذي قدر بـ ٢٤ ألف ثوب من الالاجه والقطني . وتفسر هذه الزيادة الكبيرة في الاستقرار الاجتماعي في دمشق وعود كثير من الصناع المهاجرين اليها، الذين اشتهروا بصناعة الحرير .

ونظرا لازدياد الانتاج من أقمشة الديما والالاجه والقطني ، في عام ١٨٦٩ ، فقد استهلكت هذه الصناعات ما زنته ١٢ر٨٠٠ كغ من حرير لبنان و ٣٣ر٢٨٠ كغ من حرير فارس ، وذلك بزيادة كبيرة عما استهلكته قبل أحداث عام ١٨٦٠ .

وقد عمل في انتاج الكوفيات الحريرية ١٠٠ الى ١٢٥ عاملا وكان معظمها يصدر الى الخارج . ويشكل هذا زيادة كبيرة على صناعة الكوفيات في عام ١٨٦٢ .

أما صناعة المشالح فيبدو انها تضاءلت عما كانت عليه في ١٨٦٢ ، فقد بلغ عدد

---

* وبذلك يكون طول هذا الذراع ٦٨ سنتمترا .

المشتغلين فيها في عام ١٨٦٩ حوالي ١٩٠ صانعا . واستخدم هؤلاء خيوط الصوف الانكليزية للمشالح الممتازة ، وخيوط الصوف المحلي للمشالح الادنى .

وفيما يتعلق بالعقادين ذكر تقرير عام ١٨٦٩ ان انتاجهم يستهلك بكامله محليا ، في حين ان تقرير عام ١٨٦٣ ذكر أن العقادين يقاسون من بيع سلعهم بسبب تبدل الازياء ، وان أعدادهم في تناقص ، ويحاولون ايجاد سوق بديلة في الحجاز . ويبدو أن أعدادهم قد تناقصت ، وبالتالي انتاجهم ، عام ١٨٦٩ ، الى حدود استيعاب السوق المحليـة .

ومن السلع التي صنعتها دمشق واستمرت في تصديرها السروج والحبال ، وكانت في غاية الاتقان . وفي حين كانت اسعار السروج معتدلة فان أسعار الحبال كانت مرتفعة مما حال دون تصديرها الى أوربا . وكانت تصدر في الغالب الى بقية انحاء سورية ، والى بغداد .

واستمرت دمشق في تصدير منتجات المشمش الى أزمير واستانبول وموانى سورية وآسية الصغرى . وكانت مراكب شركة (مساجيري امبريال) تحمل هذه المنتجات بين الموانى السورية والتركية .

وصدرت دمشق بزر المشمش الى مرسيليا وليفورنة ، وبلغ ما صدرته اليهما منه في عام ١٨٦٩ ما يزيد على ٣٠٠ ألف كغ .

وجاء في التقرير الثالث من دمشق بتاريخ ٢٤ نيسان ١٨٧٩ ان دمشق صدرت من بزر المشمش في ذلك العام ٥١٢ر٨٠٠ كغ. وهذا يدل على ازدياد مردود هذا الانتاج.

ويذكر التقرير بالنسبة لنسيج الالاجه أن حوالي ١٢٠٠ صانع يعملون في نسج الالاجه ، وينتجون سنويا ما بين ١٠٠ و ١٢٠ الف ثوب . وبالمقارنة مع تقرير سنة ١٨٦٩ ، الذي يذكر ان حوالي ١٥٠٠ ــ ١٦٠٠ صانع الاجه أنتجوا حوالي ١٠٠ ألف ثوب في السنة ، نستدل ان هذه الصناعة قد حافظت على مستوى متقارب في الانتاج بكلفة أقل من السابق ، لان عدد الصناع نقص بما يقرب من ٣٠٠ ــ ٤٠٠ صانع . أما الديما فقد ازداد عدد صناعهاعن السابق ، اذ راوح في عام ١٨٧٩ بين ٢٠٠٠ و ٢٥٠٠ ، وتضاعف انتاجهم كذلك فبلغ ٣٠ الف ثوب .

بالنسبة للكوفيات ، ذكر التقرير الثالث ان حوالي مائة صانع يعملون فيها ، انتجوا في السنة ١٣ الف كوفية . ولكن ليس هناك من تفصيل عن نوعية الكوفيات

وأماكن تصريفها أو تصديرها . وانتج مـن قماش المبروم ، بموجب هذا التقريـر ، ٣٠٠ ألف قطعة ، في حين ذكر التقرير الاول ، لعام ١٨٦٣ ، ان ٣٠٠ ألف قطعة مـن هذا النسيج صدرت الى مصر في عام ١٨٦٢ . ويدل هذا على تناقص انتاج المبروم في عام ١٨٧٩ .

وهكذا ، ومن هذه التقاريـر الفرنسية الثلاث لاعـوام ١٨٦٣ و ١٨٦٩ و ١٨٧٩، يتضح أنه بالرغم من تناقص عدد الانوال النسيجيـة عما كانت عليـه في الماضي فان الانتاج ، بوجه عام ، قد اخذ بالازدياد فيأواخر الستينات وبخاصة في السبعينات من القرن التاسع عشر ، عما كان عليه في أوائل الستينات وقبلها بقليل . ومن العوامل التي تفسر هذه الزيادة ركود النشاط التجاري العالمي في السبعينات ، وبخاصة الازمة التي حلت بالصناعة الفرنسية ، وخففت من أثر منافستها في الخارج . يضاف الى ذلـك الغـاء بعض الضرائب الجمركيـة على انتقال المواد الاوليـة المنتجة محليـا كالقطـن والصـوف والحريـر .

ويرسم نعمان القساطلي صورة مشابهة لما ذكرته التقارير من ان عدد الانوال في دمشـق قـد تناقص ولكـن الانتـاج قـد ازداد في السـبعينات . ويقـول : « أما انوال النسيج فقد قل عددها في وقتنا الحاضر عما كان في بداءة هذا الجيل وما بقي منها فهو ١٦٠٠ نول الاجهو ٦٥٠ نول قطني و ٢٣٠٠ ديما و ١٥٠ شالات حريـر وشالات غزل ، و ٢٥٠ كفيات حرير وكفيات غزل ، و ٥٠ زنار طرابلسي حرير وزنـار طرابلسي غزل و ٥٠ فوط وملاية حرير وغزل وبوشيه ..الخ و ٢٠٠ كريشة وهرمزي وسلطانية ومجتمع هذه الانوال ٥٢٥٠ نولا»(٩٩) .

يتبين من الاحصاءات السابقة ان الصناعات الدمشقية الاساسية ، بالرغم مـن كل الازمات ، قد اثبتت وجودها الى جانب الصناعات الاوربية المستوردة ، ولكنها لم تتطور الى الدرجة التيكان يمكن انتصل اليها لو لم تتدفق البضائعالاجنبية. ويلاحظ في بعض الصناعات النسيجية التي مر ذكرها ، مثل الديما والمشالـح ، ان الخيوط القطنية في الاولى ، والصوفية في الثانية ، كانت تستورد من انكلترا . وهذه ضربـة أخرى موجهة للصناعة المحلية ، اذ انها ، عوضا من استخدام الخيوط المصنعة محليا ، عمدت الى استيراد موادها الاساسية من الخارج ، وبذلك غـدت مرتبطـة بالسوق العالمية لهذه المواد من حيث توافرها ، وبصورة اخص اسعارها ، التي فرضت مـن الخارج وتحملها المستهلك المحلي على شكل زيادة في اسعار السلع . وكانت معظم المواد الاولية للصناعة الاوربية تستورد من الخارج ، بما في ذلك بلاد الشام، باسعار تفرضها السوق الدولية التي تسيطر عليها الرأسمالية الاوربية ، ثم يعاد تصديرها خيوطا او

بضائع ، وفق الاسعار التي تفرضها الدول الصناعية المصدرة . وبهذا يكون انتاج المواد الاولية في بلاد الشام قد ارتبط بدوره بعجلة الرأسمالية الاوربيــة وأصبح تابعا لها .

وقد صدرت دمشق الى الخارج ، في عام ١٨٨٢ ، ما مجموعه ٤٢٠ ألف كغ من الصوف ، وهو من خمسة انواع : الناعم ومصــدره الجـولان حوالي ١٠٠ الف كغ ، والبلقاوي من البلقاء في متصرفية نابلس ١٠٠ كغ ، وصوف المرج والبحيرة ٨٠ ألف كغ ، وصوف عجلون ٦٠ الف كغ والصوف الجبلي ومصدره جبل الدروز وحوران ٨٠ الف كغ .

ويدوم موسم الصوف خمسة أشهر تبدأ في ايار وتنتهي بنهاية تشرين الاول . وقد تم تصدير هذه الكميات ، بطريق بيروت ، الى مرسيليا وجنوه وليفورنه وتريستا وليفربول(١٠٠) . والجدير بالذكر ان هذه الكمية من الصوف المصدر تعادل تقريباكمية الصوف التي صدرتها دمشق عبر بيروت الى الخارج في عام ١٨٦٨ والتي بلغت حوالي ٤١٦ الف كغ (١٠١) .

ومما تجدر ملاحظته ان القطن لم يذكر في أي من قوائم الصادرات من دمشق الى أوربا عبر بيروت . وباستعراض ما صدرته منطقتا حماه وحمص في عام ١٨٧٨ نجد أن قيمة صادرات حماه من الصوف بلغت ٦٢٥ ألف فرنك . وكانت وجهة التصدير بيروت بطريق طرابلس . أما حمص فقد صدرت الى بيروت ، بطريق طرابلس ، صوفا بلغت قيمته ١٢٥ الف فرنك . ولم تصدر اي من المدينتين قطنا ، بل استوردتا في الواقع خيوط القطن من فرنسا وانكلترا(١٠٢) . ونستدل من غياب القطن في صادرات كل مـن دمشق وحماه وحمص أن محصوله لم يكن كبيرا يسمح بالتصدير ، أو ان نوعيته لـم تكن لتتلاءم مع الصناعة الاوربية . وقد جرت محاولة في عام ١٨٥١ لادخال زراعــة القطن الامريكي ، من ولاية لويزيانا ، الى ســورية بسبب نوعيته المتميزة ، ولكـن المحاولة فشلت(١٠٣) .

ولم تفد بلاد الشام من تعطل زراعة القطن الامريكي ابان الحرب الاهلية الامريكية في الستينات ، في تطوير انتاج القطــن وتصديره الى أوربا التي انقطع القطن الامريكي عنها . والمعروف أن مصر أفادت الشيء الكثير من توجيه زراعتها نحو القطن آنذاك . والامر الوحيد الذي خلفته الحرب الامريكية في بلاد الشام ان سعر القطن فيها زاد ثلاثة أضعاف ، وارتفعت بنتيجة ذلك أسعار الاقمشة القطنية . وذكر أحد المراقبين في عام ١٨٦٢ (١٠٤) انه كان يمكن توسيع زراعة القطن في بلاد الشام لو عملت الحكومــة العثمانية على توفير الامن في الريف ورد اعتداء القبائل البدوية التـي كانت تفرض ضرائب على المزارعين لا تقل عن ضرائب الحكومة ذاتها .

وبنتيجة هذه التطورات مجتمعة ارتبط الاقتصاد الدمشقي بالاقتصاد الرأسمالي الاوربي ، ونشأت في دمشق طبقة بورجوازية ، من التجار والصناعيين ورجال المال ، مرتبطة بأوربا ، وأصبح لها قواعد وارتباطات في بيروت التي كانت مركز التجارة العالمية في المنطقة . وعلى غرار الصناعة ، شاعت الشراكة في ميدان التجارة واتخذت طابعا رأسماليا . وجنت البورجوازية المحلية ، بالمشاركة مع البورجوازية الاوربية ، الارباح الكثيرة من المستهلكين ، ولكنها تعرضت ، شأن الرأسمالية الاوربية ، الى الازمات وحالات الافلاس ، والمنافسة الشديدة فيما بينها ، والتقاضي أمام المحاكم . وتعج سجلات المحاكم التجارية والمحاكم المختلطة ، منذ الربع الاخير من القرن التاسع عشر ، بتفاصيل هذه القضايا .

ونظرا للازمات الاقتصادية التي مرت بها الصناعة المحلية ، والتباين في الثروات بين الاثرياء الذين ازدادوا عددا وثروة ، وبين الطبقات الدنيا التي ازدادت أعدادها وزاد فقرها ، وظفت الرأسمالية ، المحلية والاجنبية ، بعض رأسمالها في عقد الديون التي لجأ اليها عدد كبير من الناس ، سواء في المدينة أم في الريف ، لمجابهة الازمة الاقتصادية . وزاد ذلك من ارتباط سكان الريف ببورجوازية المدن عن طريق التبعية المالية . وبالتدريج فقد عدد من سكان الريف ممتلكاتهم للوفاء بالتزاماتهم المالية .

وكانت نسبة الفائدة التي تقضاها المرابون عالية تقارب في الواقع ٢٥٪ في السنة ، في حين أن الفائدة الرسمية قد حددتها الدولة في عام ١٨٥٢ ب ٨٪ . وأشارت بعض وثائق المحاكم الشرعية الى الفائدة باسم المرابحة أو الربح . ولكنها في الغالب لم تشر اليها صراحة . وكان الغطاء الذي استخدم للفائدة هو الشراء الوهمي لكمية من الصابون ، وذكر الى جانب قيمة الدين . وأكد استخدام الصابون لهذا الغرض تقرير القنصل الفرنسي في دمشق عام ١٨٥٢ (١٠٥). والجدير بالذكر أن الادارة المالية والادارة العسكرية في دمشق كانتا مدينتين ، عام ١٨٦٣ ، بمبلغ قدره ٦ ملايين فرنك عدا رواتب الجند المتأخرة . وكانت الفائدة على هذا الدين ، ومعظمه للتجار الاجانب ، تقدر من ٢ الى ٥ر٢ ٪ شهريا ، أي بين ٢٤ الى ٣٠ ٪ سنويا(١٠٦) .

ولم تكن الطبقة البورجوازية المحلية ، التي لعبت دور الوسيط للراسمالية الاوربية ، مقتصرة على فئة من السكان دون غيرها ، بل شارك فيها الجميع ، بدلالة الثروات الكبيرة التي ذكرت تفاصيلها في سجلات التركات . وتوضح تفاصيل هذه الثروات طرق التعامل التجاري وتنوع توظيف المال ، سواء في الديون أو في الصناعة أو الزراعة ، وكذلك هوية الطبقات الاجتماعية الدائنة والمدينة . وخير مثال على ذلك موجودات تاجر دمشقي هو السيد غازي بن الشيخ محي الدين بن شيخ المحيا ،

المختل العقل الذي لا قدرة له على تعاطي مصالح نفسه ، وتتألف ثروته من ثلاثة بنود : ١) بيان الذمم الموجود أربابهم بدمشق : ذمة الخواجه متري قسطون ، خليل مصابني ، اسحاق يهودي سمكري ، الخواجه نقولا صايغ ، مجموع ذلك ٢٤١ر٣٩ قرشا ونصف . ٢) بيان الذمم المترتبة للمختل في الجهات خارج دمشق الشام : ذمة الخواجه يوسف علام بالجبل ، أولاد زخور بحمص ، الخواجه متري زمريتا في أزمير ، بيت سبرطلي الفريدي باللوندرة ، الحاج محمد آغا زرابيلي في بروسة ، محمد رزق في طرابلوس ، حسين السيوفي في طرابلوس ، مجموع ذلك ٤٢٩ر٠٨٩ قرشا ونصف . ٣) موجودات أموال وأشياء في الشام ،مستكة ،كافور ، قهوة ، باذنج، قماش كرمسوت. المجموع ١١ر٢٤٩ قرشا ونصف . ويبلغ مجموع الثروة ٤٧٩ر٥٨٠ قرشا (١٠٧) .

ويستدل من المواد التي يتعامل بها هذا الشخص انه كان تاجر عطارة . ومع ذلك فان مصدر ثرائه الرئيسي كان تعاطي الديون وما تدر عليه من فوائد . وتبلغ نسبة الذمم التي كانت له في دمشق والخارج حوالي ٩٨٪ من ثروته . ومما يلفت النظر تعامل هذا الشخص مع بيت تجاري في لوندرة (لندن) .

نستنتج مما سبق ان البورجوازية المحلية في دمشق أصبحت تدور في فلك الرأسمالية الاوربية التي تنامت أبعادها الى حد كبير في أعقاب الثورتين التوأمين الفرنسية والصناعية . وقد ضمت البورجوازية المحلية في بداياتها خليطا من كبار الملاك ، ورجال المال والصناعة . ثم بدأ الفرز بين هذه العناصر يظهر بالتدريج حين حاولت البورجوازية أن تلعب دورا سياسيا ، تماما كما فعلت البورجوازية الاوربية . وفي هذا الوسط ظهرت اتجاهات فكرية كثيرة ، منها الاتجاه القومي ، والاتجاه القطري، والاتجاه الديني ، والاتجاه العلماني ، والاتجاه الاشتراكي . وتبنى كل اتجاه فئة اجتماعية أو أكثر . ولفهم واقع كل اتجاه ، وأسباب فشله أو نجاحه ، وارتباطه بفئة دون أخرى . يجب البحث في الاسس الاجتماعية والاقتصادية لكل فئة ، وهي وحدها التي تفسر لماذا تبنت هذه الفئة اتجاها معينا وقاومت اتجاها آخر(١٠٨) .

الهوامش :

(١) انظر البحث التالي :

André Raymond, « La Conquête ottomane et le développement des grandes villes arabes : le cas du Caire, de Damas et d'Alep », **Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée,** 1 (1979) , pp.115 - 134.

(٢) حول شركة بلاد المشرق ، انظر :

Alfred C. Wood, **A History of the Levant Company,** London, 1935.

(٣) انظر بحثنا : « قافلة الحج الشامي واهميتها في الدولة العثمانية »، مجلة دراسات تاريخية ، العدد ٦ ، تشرين الاول ، ١٩٨١.

(٤) انظر حول هذه التطورات كتابنا :

The Province of Damascus, 1723 - 1783, paperback ed. , Beirut, 1970, pp. 73ff.

(٥) انظر :

Archives du Ministère des Affaires Etrangères (AE), Paris, Correspondance Commerciale (CC), Alep, vol.25, le 25 novembre 1891.

(٦) انظر :

AE, CC, Alep, vol.27, 14 octobre 1823, 30 mars 1824; AE, CC, Damas, vol, 1, (Paris, 17 juillet 1839), vol. 2, 20 janvier 1846.

(٧) انظر :

John Bowring, **Report on the Commercial Statistics of Syria,** London, 1840, reprinted, New York, 1973, p.94.

(٨) المصدر السابق ، ص ٩٤

(٩) المصدر السابق ، ص ٩٤ .

(١٠) المصدر السابق ، ص ٩٢ .

(١١) المصدر السابق ، ص ٩٣ .

(١٢) سجلات دمشق (مجلس الولاية) ، رقم ١١، ص ٢٢١ ـ ٢٢٢ ، القضية ذات التاريخ ٤ جمادى الاولى ١٢٦١/ (١١ ايار ١٨٤٥) .

(١٣) انظر : AE, CC, Damas, vol. 3, 28 mai 1850.

(١٤) انظر : AE, CC, Alep, vol. 31, 31 mai 1855.

(١٥) سجلات دمشق ، رقم ١١ ، ص ٣٧٥ ـ ٣٧٦ ، ١٣ شعبان ١٢٦١/ (١٧ آب ١٨٤٥) .

(١٦) انظر : AE, CC, Damas, vol. 4, 3 mai 1859.

(١٧) انظر : AE, CC, Damas, vol. 2, 14 juin 1846.

(١٨) انظر : AE, CC, Damas, vol. 3, 1 octobre 1851.

(١٩) انظر : AE, CC, Damas, vol. 4, 27 février 1866.

(٢٠) انظـر : Archives Nationales, Paris, F. 12, 7191, Paris, 28 juillet 1870; AE, CC, Alep, vol. 34, 22 juin 1870.

(٢١) انظـر : AE, CC, Damas, vol. 4, 27 février 1860, 12 juin 1863.

(٢٢) انظـر : AE, CC, Damas, vol. 5, 29 avril 1870.

(٢٣) انظر حول اهمية الطريق بالنسبة لبيروت والمناطق اللبنانية على اطرافه الكتاب الهام التالي :
Leila Tarazi-Fawaz, **Merchants and Migrants in Nineteenth - Century Beirut,** Harvard, 1983, pp. 68-69.

(٢٤) انظـر : Bowring, p. 53.

(٢٥) انظـر : Tarazi-Fawaz, p. 123.

(٢٦) انظـر : **Ibid.**, pp. 69-71.

(٢٧) انظر الكتاب التالي :
Henri Guys, **Esquisse de l'état politique et commerciale de la Syrie,** Paris , 1862, pp. 202-206.

(٢٨) انظـر : AE, CC, Damas, vol.4, 10 janvier 1860.

(٢٩) انظـر : AE, CC, Damas, vol.4, 9 juillet 1863.

(٣٠) انظـر : AE, CC, Damas, vol.6,8 février 1884.

(٣١) انظـر : AE, CC, Damas, vol.6, 15 mai 1886 .

(٣٢) انظـر : Ibid

(٣٣) انظـر : AE, CC, Damas , vol.6,25 janvier 1889 .

(٣٤) انظـر : AE, SS, Damas, vol.3, 1 octobre 1851.

(٣٥) حول هجرة المسيحيين من بلاد الشام الى مصر في القرن الثامن عشر ودورهم التجاري البارزفيها،
انظـر : André Raymond, **Artisans et Commersants au Caire au XVIIIe Siècle,** Damas, 2 vols, 1973-4 , vil.l, pp. 483-501.

(٣٦) انظر : Guys, pp. 202, 205.

(٣٧) للحصول على دراسة وافية لقافلة الحج الشامي ، ا نظر كتابنا :
The Province of Damascus , pp. 53-76.

(٣٨) انظر : AE, CC, Damas, vol.1, 30 mars 1842.

(٣٩) انظر : AE, CC, Damas, vol.2,16 mars 1847.

(٤٠) انظر : AE, CC, Damas, vol.3,25 septembre.

(٤١) انظر : AE, CC, Damas , vol.4,16 octobre 1862, vol.5,19 janvier 1870.

(٤٢) انظر : AE, CC, Damas, vol.4,21 août 1863, vol.5,1 mai 1872.

(٤٣) انظر : AE, CC, Damas, vol.4,19 janvier 1870 .

(٤٤) ص ١٢٤-١٢٥ من كتاب القساطلي ، طبعة بيروت ، ١٨٧٦ ، اعاد تصويره وقدم له عيسى فتوح، مكتبة السائح ، بيروت (دون تاريخ) .

(٤٥) انظر : AE, CC, Damas, vol.3,13 octobre 1851, vol.5,5 juin 1856.

(٤٦) انظر : AE, CC, Damas , vol.2,12 mai 1847, 3 juin 1874.

(٤٧) انظر : AE, CC, Damas, vol.3,1 août 1855.

بيعت الخيول السورية لعدد من الدول الاوربية ، مثل روسيا وايطاليا ، وفرنسا التي استخدمتها لحاجاتها الداخلية ، وفي تحسين نسل الخيول في الجزائر الخاضعة بها ، وكذلك في العمليات العسكرية . وكان شراء الخيول يتم خلال فترة معينة من العام ، في نيسان وايار وحزيران وتموز ، بعد عودة البدو من البادية الى مشارف المدن . وكان البدو يستغلون مجيء الاوربيين خصيصا لشراء الخيول فيرفعون من اسعارها . ولذلك تحاشى هؤلاء الاتصال مباشرة بالبدو وعمدوا الى تكليف التجار والوكلاء الوطنيين شراء الخيول لحسابهم باسعار معتدلة . وكانت المهر مرغوبة اكثر من غيرها لرخص ثمنها ، الذي راوح بين ٥٠٠ و ١٠٠٠ قرش للمهرة الواحدة ، ونظرا لرخص العلف في بلاد الشام عمد المشترون الاوربيون الى ابقاء المهر المشتراة في البلاد سنة ، ليتاكدوا من نوعيتها وصلاحيتها ، والا اعادوا بيعها محققين ربحا اضافيا .

انظرحول هذا : AE, CC, Damas, vol. 4, 16 oct. 1962.

(٤٨) انظر : AE, CC, Damas, vol.2, 2 novembre 1851.

(٤٩) انظر : AE, CC, Alep, vol.31 (Paris, 20 janvier) .

(٥٠) انظر : AE, CC, Alep, vol.35,30 mai 1871.

(٥١) انظر : AE, CC, Damas, vol.5,1 1 janvier 1873.

(٥٢) اثبتناالعبارة كماوردت في النص الاصلي ، وهو باللهجة الدمشقية العامة ، وتعطي فكرة عن انحطاط لغة القضاءانذاك .

(٥٣) انظر : سجلات دمشق ، رقم ١١ ، ص ٩٨-١٠٠ ، ٥ محرم ١٢٦١/ (١٤ كانون الثاني ١٨٤٥) .

(٥٤) لمقارنة مقدار التزام عبد القادر خطاب لهذه الاقلام المتعلقة بصناعة النسيج بدمشق بالقيمة الاجماليةللضرائب المستوفاة من المدينة في تلك السنة (١٢٦٠/١٨٤٤)، انظر :

AE, CC, Damas, vol. 2, « Etat du Revenue du Pachalik de Damas pendant l'année 1844 » , joint à la lettre de Damas le 16 janvier 1845.

(٥٥) انظر سجلات دمشق الشرعية مجلد ٤١٢ ، ص ١٦٢-١٦٦ .

(٥٦) انظر : Bowring, p. 59

(٥٧) انظر: سجلات دمشق الشرعية، مجلد ٤٩٤، ص ١١٣ ، ختام محرم ١٢٧٤/ (٢٠ ايلول ١٨٥٧) .

(٥٨) انظر : سجلات دمشق الشرعية ، مجلد ٥١٠ ، ص ٤٤ ، ١٤ جمادى الثانية ١٢٧٦/ (١٠ كانون الثاني ١٨٥٩) .

(٥٩) كلمة ريال مأخوذة اصلا من ريال ماريا تيريزا . ولم يتبين لنا معنى كلمة شوشة . ولكن وجد في غزة في الفترة ذاتها نقد عرف باسم ريال فرانسة شوشة ، انظر بحثنا : غزة ، دراسة عمرانية واجتماعية واقتصادية من خلال الوثائق الشرعية ، ١٢٧٣ - ١٢٧٧ / ١٨٥٧ - ١٨٦١ ، دمشق ١٩٨٠ ، ص٨٨ .

(٦٠) سينكو ، او سنكو أو شنكو ، كلمة مشتقة من الايطالية وتعني خمسة . انظر : الاب انستاس ماري الكرملي البغدادي ، النقود العربية وعلم النميات ، القاهرة ، ١٩٣٩ ، ص ١٤١ .

(٦١) لعله النقد ذاته الذي ذكر في غزة باسم ريال فرانسة عامود ، وكان سعره ٣٢ قرشا ، انظر : غزة ، ص٨٧، واشير اليه كذلك باسم « ابو مدفع » .

(٦٢) انظر : Bowring, p.95.

(٦٣) انظر : AE, CC, Damas, vol,1, 30 novembre 1843, 8 décembre 1843.

(٦٤) انظر بحثنا باللغة الانكليزية وعنوانه :

« Land Tenure Problems and their Social Impact in Syria around the Middle of the Nineteenth Century », in **Land Tenure and Social Transformation in the Middle East** ed. Tarif Khalidi, American University of Beirut, 1984, pp. 384-385.

وانظرا يضا : AE, CC, Damas, vol.2,16 avril 1845, 20 mai 1845.

(٦٥) انظر : AE, CC, Damas, vol.3,29 juin 1840.

(٦٦) انظر : AE, CC, Damas, vol.1,1 décembre 1839.

(٦٧) انظر : AE, CC, Damas, vol.1,28 décembre 1839.

(٦٨) انظر : سجلات دمشق ، رقم ١١ ، ص ٣٦١ - ٣٦٢ .

(٦٩) المصدر السابق ، ص ٢١٦ - ٢١٧ .

(٧٠) المصدر السابق ، ص ٢٨٣ .

(٧١) المصدر السابق ، ص٢٧٧ - ٢٧٨ ، ٣٨٣ .

(٧٢) الياس بن عبده بك قدسي (قنصل دولة هولاندة بدمشق) ، « نبذة تاريخية عن الحرف الدمشقية». قدمها للمجمع العلمي الشرقي الملتئم في مدينة ليدن ، عام ١٨٨٣ ، وقد نشرت في :

Carlo Landberg, **Actes du VIe Congrès des Orientalistes,** t.2, Leiden, 1885, p.15.

(٧٣) انظر : AE, CC, Damas, vol,4, 5 mars 1863.

(٧٤) انظر : قاموس الصناعات الشامية ، جزآن ، الجزء الاول تاليف محمد سعيد القاسمي ، والثاني تاليف جمال الدين القاسمي وخليل العظم ، تحقيق ظافر القاسمي ، نشر دار موتون وشركاه ، باريس لاهاي ، ١٩٦٠، جا ، ص ٣٩ .

(٧٥) انظر : AE, CC, Damas, vol.4,5 mars 1863.

(٧٦) انظر : AE, CC, Damas, vol.3, 20 janvier 1850.

(٧٧) انظر :
Bowring, p. 20; Charles Issawi (ed.) , **The Economic History of the Middle East, 1800 - 1914,** Chicago, 1966, p. 224.

(٧٨) انظر : AE, CC, Damas, vol.4,21 octobre 1856.

(٧٩) انظر : AE, CC, Damas, vol.4,10 janvier 1860.

(٨٠) انظر : AE, CC, Damas, vol.4, 16 octobre 1862, cf. 11 mai 1863.

(٨١) انظر : AE, CC, Damas, vol.4, 5 mars 1863, 30 avril 1863.

(٨٢) تفاصيل القائمة مبنية على القضايا المعروضة على محاكم دمشق الشرعية حسب تواريخها ، وذلك وفق السجلات والصفحات التالية، دون مراعاة التسلسل لانه يوجب تكرار ارقام السجلات :مجلد رقم ٣٧١ ، ص٣ ، ص ٢٨ ، رقم ٣٧٣ ، ص٢٢٧ ، رقم ٣٧٤ ، ص ٢٣١ ، رقم ٣٧٦ ، ص ١٥ ، ص ١١١ ، ص ٣٩٤ ، ص ٣٧٦ ، ص ٢٦٠ ،ص ٢٧ ٣، ص ٢٧٦ ، رقم ٣٧٧ ، ص ٢٥ ، رقم٣٧٩ ص ١٦٤ ، رقم ٣٨٦ ، ٢٣٣ ، ص ٢٠٥ ،رقم٣٨ ، ص ١٤٠ ، رقم ٣٩٨ ، ص ٦٣ ، ص ١٥٣، رقم ٤٠٤ ، ص ٢١٩ ، رقم ٤١٣ ، ص ٤٩،رقم ٤٨٦ ، ص ١٨٦ ، رقم ٤٩٣ ، ص ٢٧٧ ، ص رقم ٥٠٣ ، ص ٣ ، رقم ٥٠٤ ، ص ٣٣ ،رقم ٥٠٧ ، ص ٢٣٩ ، رقم ٥٢٣ ، ص ٢ ٦.

(٨٣) انظر :
AE, CC, Damas, vol.4,19 octobre 1869, « Situation Commeciale et Industrielle de Damas ».

(٨٤) انظر:
Dominique Chevallier, « Un exemple de resistance technique de l'artisanat syrien aux XIXe et XXe siècles », **Syria, 30 (1962).**

(٨٥) القساطلي ، الروضة الغناء ، ص ١٢٣ ، وانظر ايضا القاسمي ، ج١ ، ص ١٤٧ – ١٤٨ .

(٨٦) القساطلي ، ص ١٢٤ .

(٨٧) المصدر السابق ، ص ١٢٣ .

(٨٨) المصدر السابق ، ص ١٢٣.

(٨٩) المصدر السابق، ص ١٢٣ .

(٩٠) انظر : AE, CC, Damas , vol.4,5 mars 1963.

(٩١) « قاموس الصناعات الشامية » ، ص ٢١٣.

(٩٢) المصدر السابق ، ص ٣١٤ .

(٩٣) انظر : AE, CC, Damas, vol.4,5 mars 1863.

(٩٤) القساطلي ، ص ١٢٥.

(٩٥) انظر : AE, CC, Damas, vol.4,5 mars 1863.

(٩٦) يذكر التقرير بعد سطرين من ذلك (ص ١١٠) ان الكنتال يساوي ٢٥٦ كغ و ٤٠٠غ ، ولهذا فان ٣٠٠كنتال تساوي ٧٨٠٠ كغ .

(٩٧) ص ١٢٤ .

(٩٨) انظر : Roger Owen, **The Middle East in World Economy 1800 - 1914,** London, 1981, p.171 .

(٩٩) ص١٢٣ .

(١٠٠) انظر : AE, CC, Damas, vol.6,8 juillet 1883.

(١٠١) انظر : AE, CC, Damas, vol.4,19 octobre 1869.

(١٠٢) انظر : AE, CC, Damas, vol.6,31 juillet 1879.

(١٠٣) انظر : AE, CC, Damas, vol.3,2 novemdre 1851.

(١٠٤) انظر : AE, CC, Damas, vol.4, 16 octobre 1862.

(١٠٥) انظر : AE, CC, Damas, vol.3,12 janvier 1852.

(١٠٦) انظر : AE, CC, Damas, vol.4, 30 avril 1863

(١٠٧) سجلات دمشق الشرعية ، مجلد ٣٩٧، ص١٢ ، ١٧ربيع الاول ١٢٦٢/ (١٥ اذار ١٨٤٦) .

(١٠٨) انظر الدراسة الهامة التالية حول الدور السياسي لاعيان دمشق بين ١٨٦٠ و ١٩٢٠ وجذورهم الاجتماعية :

Philip S. Khoury, **Urban notables and Arab nationalism, the politics of Damascus 1860 - 1920,** Cambridge University Press, 1983.

* * *

مِنْ خفايا السياسة البريطانية في المشرق العربي
خلال الحرب العالمية الأولى

المكتب العربي في القاهرة
قراءة في الوثائق البريطانية

د. خيرية قاسمية

مع نشوب الحرب العالمية الاولى ركزت السياسة البريطانية على أهمية البلدان العربية المشرقية بالنسبة لمتابعة العمليات الحربية . وكانت وزارتا الخارجية والحربية البريطانيتان مسؤولتين عن الامور السياسية والعسكرية في تلك البلدان ، وخاصة في مصر وفلسطين ، في حين كانت حكومة الهند مسؤولة عن الاموراالسياسية والعسكرية في العراق والخليج العربي وعدن . وكان هناك خلاف في الرأي بين الجهتين حول الاجراءات الادارية والسياسية في كلا المنطقتين ، رغم اتفاقهما على أهمية البلدان العربية الاستراتيجية . ففي حين دعت الاولى وهي التي سميت (بالمدرسة المصرية) الى التعاون مع العرب وكسب القوات العربية في الجيش التركي ، ومهاجمة الدولة العثمانية عن طريق ثورة عربية في هذه المنطقة ، ومنح العرب استقلالا محدودا تحت رقابة بريطانية مستترة ، رأت الثانية ، وقد أطلق عليها اسم (المدرسة الهندية) ، أن

* يعتمد البحث بصورة رئيسية على وثائق وزارة الخارجية البريطانية الموجودة في دار الوثائق العامة في لندن Public Record Offire وتقع في مجموعتين :

(أ) المراسلات بين وزارة الخارجية والسلطات البريطانية في مصر وفلسطين وهي مصنفة تحت رقم F.O. 371

(ب) أوراق المكتب العربي في القاهرة Arab Burean Popers وهي مصنفة تحت رقم F. O. 882

بامكانها الانتصار في الحرب دون الاستعانة بالعرب ، او اطماعهم بوعود استقلالية . وقد انتصرت (المدرسة المصرية) التي تقدر قيمة الفوائد التي يمكن أن تنجم عن صداقة العرب ، اثر فشل زحف القوات البريطانية فيالعراق (نيسان/ ابريل ١٩١٦)، وتطور الاحداث في بلاد الشام ، وتسارع المفاوضات البريطانية مع الحسين للقيام بثورة تتعهدها بريطانية بالسلاح والمال(١) .

يمثل « المكتب العربي » Arab Bureau الذي أنشىء في شباط / فبراير ١٩١٦ في القاهرة (المدرسة المصرية) . وتم احداثه بايعاز من (ماكماهون) المندوب السامي البريطاني في مصر ، وبالتشاور مع ريجنالد وينجيت (الحاكم العام للسودان والمندوب السامي فيما بعد ١٩١٧)،ورونالد ستورز (السكرتير الشرقي في دار المندوب السامي ـ المعتمدية سابقا) ، وجلبرت كلايتون (رئيس قلم الاستخبارات المدنية والعسكرية في مقر القيادة العامة للقوات البريطانية) وعهد الى الاخير بمهمة رئاسة هذا الجهاز المستقل في دار المندوب السامي ، الذي أصبح أحد أهم الاجهزة المنفذة للسياسة البريطانية في المشرق العربي خلال الحرب العالمية الاولى .

وضم المكتب جماعة من الخبراء في شؤون المشرق العربي ، ممن كانوا يعملون في دائرة الاستخبارات في القيادة العامة ، أو من الموظفين السياسيين في دار المندوب السامي (المعتمدية سابقا) ، وهم من الرحالة وعلماء الآثار والمستشرقين والضباط العسكريين ، وقد سبق لهم وتعرفوا على المنطقة العربية عن كثب من خلال اقامتهم وجولاتهم ودراساتهم قبل الحرب ، وجميعهم من ذوي الخبرة ، المشهود لهم بالمهارة في فنون الدبلوماسية الشرقية ، ومن بين هؤلاء جورج هوغارث ، و ت. أ . لورنس ، ورونالد ستورز ، وجرترود بل ، واورمسبي غور . وعمل بعضهم مستشارين وخبراء لقوات الثورة العربية ، وادعوا « صداقة العرب » ، التي كانت تنبع في الحقيقة من صميم المصلحة البريطانية ..

وقد تولى خبراء « المكتب العربي » خلال الحرب رفع التقارير والمذكرات الى وزارة الخارجية ، أو وزارة الحربية (دائرة الاستخبارات العسكرية) في لندن . كما أشرفوا على اصدار نشرة ملحقة سرية اسمها النشرة العربية Arabe Bulletin لمعالجة كل الاحداث السياسية المتعلقة بالبلاد العربية والدولة العثمانية والحركة العربية (٢) . ولم يكن الخلاف الذي بدا أحيانا في وجهات النظر بين رجالات المكتب العربي في القاهرة وبين الاجهزة المختصة في لندن نابعا عن الزعم القائل بأن « أصدقاء العرب » كانوا يجهلون نوايا حكومتهم ، بل ، لكونهم أقرب الى مواقع الاحداث وأكثر خبرة بشؤونها ، كانوا يبدون بعض الآراء التي قد تتناقض أحيانا مع آراء مخططي السياسة البريطانية في لندن .

كان أمرا طبيعيا أن تحتل مسألة فلسطين مكانا بارزا في تقارير «المكتب العربي» واعداد نشرته السرية ، نظرا لموقع فلسطين ، ولاحتوائها الاماكن المقدسة ، ولوجود مطالب متداخلة ، ومصالح معقدة لمعظم الدول المشتركة في الحرب ، وكذلك لحرص بريطانيا على عدم السماح لاية قوة أخرى بالتواجد على الشاطىء الشرقي لقناة السويس بحيث تهدد حكمها في مصر وتهدد القناة ، وأخيرا لان الاستيطان الصهيوني في فلسطين كان يشكل ، قبل الحرب ، جزءا من السياسة البريطانية في المشرق . وقد زادت الظروف الاستراتيجية الناجمة عن الحرب من الاهتمام البريطاني بفلسطين ، وخاصة حين اصبحت فلسطين هي المنطقة التي يجب أن توجه منها بريطانيا الضربة الاخيرة للدولة العثمانية . وتمهيدا لنقل فلسطين الى منطقة النفوذ البريطاني زادتعزيز الحكومة البريطانية للحركة الصهيونية التي انتقل مركز نشاطها الدبلوماسي الى لندن ، وزاد ضغطها للتأثير على الحكومة لاصدار تصريح بالعطف على المطامع الصهيونية في فلسطين .

وتناولت تقارير « المكتب العربي » وموضوعات نشرته السرية جملة قضايا تتعلق بالمسألة الفلسطينية ، قبل اصدار تصريح بلفور وبعده : قبل التصريح لرسم صورة واضحة أمام المفاوضين البريطانيين مع ممثلي الحركة الصهيونية (في وقت كان العرب يدخلون فيه في تحالف مع الدولة صاحبة التصريح) ، وبعد التصريح لرصد ردود الفعل العربية ولمحاولة تخفيف الشكوك حرصا على استمرار التحالف البريطاني العربي والتوفيق بين المصلحة الصهيونية والاماني العربية .

آ ــ القضايا المتعلقة بفلسطين التي تناولتها تقارير المكتب العربي ونشراته

« قبل تصريح بلفور »

١ ــ عمليات التجسس الصهيوني لحساب القوات البريطانية وراء الجبهة الفلسطينية المصرية :

كشفت أوراق « المكتب العربي » عن شبكة تجسس صهيونية عرفت باسم مجموعة نيلي Nili نظمها هارون أرونسون في مستعمرة زخرون يعقوب . وكان أرونسون مديرا لمركز التجارب الزراعية قبل الحرب في بلدة عتليت على الشاطىء الفلسطيني وعهدت له السلطات العثمانية بتنظيم حملة عملية لمكافحة الجراد الذي هاجم فلسطين سنة ١٩١٥ (٣) . وأعطاه هذا حرية التنقل التي استخدمها في عمليات

المخابرات لصالح بريطانيا (٤) . وبعد رحيل أرونسون الى لندن عرض خدماته على وزارة الخارجية البريطانية ، معتمدا على معرفته بفلسطين وبالوضع العسكري فيها .

وعمل أرونسون لدى هيئة الاستخبارات العامة في مصر وقام بتزويدها بالمعلومات المحلية عن توضع القوات التركية والالمانية شمال وشرق الجبهة المصرية ، من خلال مجموعته التجسسية (قبل أن يكشف أمرها في خريف ١٩١٧(٥)) . وعن طريق صلاته برجالات « المكتب العربي » (كلايتون وديديس وغيرهما) كسب بعض الدبلوماسيين البريطانيين في الشرق الادنى للمسألة الصهيونية (أهمهم الماجور اورمسبي غور الذي أصبح وزيرا للمستعمرات خلال الانتداب) . كما تمتع بدعم اللنبي (القائد العام للحملة المصرية) ووينجيت (المندوب السامي الذي خلف مكماهون) . وأصبح أرونسون محور نشاط صهيوني كبير . وفي تموز / يوليو ١٩١٧ تولى سكرتيرية لجنة صهيونية للاشراف على المصالح الصهيونية في مصر وفلسطين ، كما تعهد نقل الاموال الى فلسطين لمعونة اليهود . وكان المسؤول عن حملة دعاية صهيونية عالمية استغلت عملية اخلاء الاتراك للمناطق الساحلية في فلسطين لتصوير مظالم الترك ضد اليهود(٦) . وتشير مذكرة « للمكتب العربي » في ١٩١٧/٢/٥ بعنوان « المسألة اليهودية »(٧) الى أن الهدف السياسي من تقديم الصهيونيين خدماتهم للقوات البريطانية في العمليات ضد الترك في فلسطين هو جعل هذه الخدمات أساسا لدعواهم في (الوطن القومي) والقول بأنهم شاركوا في عملية « تحرير البلاد » .

٢ ـ النشاط الصهيوني في فلسطين :

اشارت تقارير « المكتب العربي » الى النشاط الصهيوني العملي في فلسطين قبل الحرب . وقدرت « النشرة العربية » في ١٩١٧/١/١٩ (٨) أن الصهيونيين قد امتلكوا حتى عام ١٩١٤ (١٣٠.٠٠٠) هكتار ، منها (٩٠.٠٠٠) استوطنت فعلا (٤٠ مستوطنة تقريبا) تشمل احسن الاراضي في فلسطين ، وأنه قد بذلت جهود لتدريب اليهود على الاساليب الزراعية وتأمين المساكن لهم ، كما أنشىء مركز للتجارب الزراعية في عتليت ، وتعزو « النشرة » التقدم الملحوظ في هذه المستوطنات ، الى جانب المساعدات الخارجية ، الى الامتياز الذي يتمتع به المستوطن اليهودي عن الفلاح المواطن ، لكونه قادرا على مقاومة جامع الضرائب التركي . وقد أجمعت تقارير « المكتب العربي » على معاناة جميع فئات الشعب في سورية خلال الحرب وسوء الاوضاع الاقتصادية وانتشار الجوع والمرض وقسوة الحكم التركي وما رافقه من نفي وسجن واعدام ومصادرة ، في حين أكدت هذه التقارير أن حالة اليهود كانت أفضل من اية فئة أخرى، وانهم لاقوا عناية أكثر(٩) ، وان الترك لم يوقعوا باليهود نفس القدر من

الاضطهاد الذي اصاب مجموع السكان في فلسطين وسورية خلال الحرب . وهو امر اكدته برقية كلايتون لوزارة الخارجية البريطانية في ١٩١٧/١١/٢١ (١٠) اثر زيارة تفقدية قام بها مع اللنبي للمستوطنات اليهودية الواقعة جنوبي يافا . وأشارت مذكرة « المكتب العربي » في ١٩١٧/١/١٢ (١١) الى أن النشاط الصهيوني لشراء الاراضي وانشاء المستوطنات لم يتوقف خلال الحرب . وان المنظمة الصهيونية استطاعت الحصول على (٤٠،٠٠٠) هكتار من أجود الاراضي لاستيطانها بعد انتهاء الحرب .

وتعزو تقارير « المكتب العربي » هذا الوضع المتميز لليهود الى الاهتمام الامريكي الذي يعود للفترة السابقة للحرب(١٢) ، وكذلك الى أصدقاء الصهيونيين في البلاط العثماني من يهود سالونيك والدونمة (١٣). وترى «النشرة العربية»، ١٩١٧/١٢/٤(١٤) في مقال عن « الحركة الطورانية والعرب » ان اليهود والدونمة ، نظرا لنفوذهم في الدولة العثمانية وميولهم الالمانية، هم المسؤولون عن دفع تركيا للحرب، وانهم لعبوا الدور الموجه في فكرة الحركة الطورانية وتطويرها كما يظهر في كتابات (تكين الب) ، والذي تسميه النشرة « دكتور كوهين » . وتضيف النشرة « ان الحركة الطورانية لا تهدف الى مصلحة الترك بل يراد بها مصلحة الالمان واليهود الذين يرون ازدهارهم في المستقبل مرتبطا ببقاء الدولة العثمانية . والتقوا بذلك مع مطامع ألمانية في تطلعها نحو الاشراف على حزام تركي متماسك عبر آسية الوسطى » . وقد حاولت الدوائر الصهيونية الموالية للحلفاء في مصر (ادجار سوارس أحد رجال الاعمال اليهود في الاسكندرية وهارون أرونسون) نفي كل صلة للصهيونيين بألمانية ،وكذلك نفي أي عطف سياسي لليهود نحو دول الوسط ، بل واتخذت تلك الدوائر الاهتمام الالماني بالصهيونية حجة للتأثير على الحكومة البريطانية للاسراع بمنح تأكيداتها بالعطف على الاماني الصهيونية (١٥) .

٣ ــ مستقبل فلسطين :

أكدت مذكرة « للمكتب العربي » في ١٩١٧/٢/٥(١٦) الى أن « تسوية مستقبل فلسطين سوف يثير قضية معقدة ودقيقة تقلق أمن ذلك البلد التعيس » . ومع ذلك تشير المذكرة نفسها الى أن دول الحلفاء لو أعلنت عن رغبتها بدعم الاستيطان والتغلغل الاقتصادي اليهوديين في فلسطين فان ذلك كفيل بجعل الصهيونية تميل الى جانب الحلفاء ، والا فانها سترمي بثقلها الدولي ضدهم . وتشير المذكرة الى فقرة من كتاب وضع ١٩١٦ بعنوان « الصهيونية ومستقبل اليهود » ، توضح الاهمية التي يوليها الصهيونيون للربط بين الشعب اليهودي ، « تراثا وحضارة » ، وفلسطين ، ومحاولاتهم تغليف مخططاتهم بتطلعات مثالية .. واكد ارونسون هذه الفكرة في مذكرته

« للمكتب العربي » أوائل ١٩١٧ (١٨) حول الاوضاع العامة في فلسطين بقوله « أن اليهودي الهارب من الاضطهاد يتطلع نحو الاستيطان في فلسطين ليعيش حياته الخاصة حسب تقاليده وتراثه وآماله وثقافته » .

ويرى « المكتب العربي » أن الصعوبة الكبرى التي تواجه المشروع الصهيوني هو تفوق العرب العددي ، ورغم الادعاء الصهيوني بامكانية العيش بانسجام بين الشعبين ، الا أن الهدف الحقيقي للحصول على التفوق اليهودي والاستئثار بالبلاد لم يكن خافيا على « المكتب العربي » وترى النشرة العربية في ١٩١٧/١/١٥ (١٩) أن « الغالبية العظمى للصهيونيين لا تزال تعتبر الاستقلال الذاتي هدفا بعيدا ، وأن ما يبحثون عنه هو سياسة الباب المفتوح والحصول على أكبر قدر ممكن من الاراضي في فلسطين واستيطانها ، ثم التقدم بعد ذلك بأساليبهم الزراعية المتطورة وسندهم المالي وشعورهم القومي وكرم الدولة الحامية نحو الوصول الى الهدف السياسي النهائي ».

٤ ـ عرب فلسطين والثورة العربية :

حاول ارونسون في تقاريره « للمكتب العربي » أن يبين أن فلسطين تفتقر الى مقومات الثورة بسبب أوضاع البلاد القاسية وحرمان البلاد من رجالها ، وكذلك فان اللنبي ، لعدة أسباب ، لم يرغب بوجود قوات عربية تعمل في جبهته (٢٠) ، ولم يسمح الا لبعض العرب بمعالجة القضايا المحلية أو المتعلقة بالاسرى . مع ذلك فقد بينت تقارير « المكتب العربي » اسهام العرب باحداث الحرب ، فالجنود العرب الذين كانوا يفرون من الجيش التركي عبروا الصحراء للانضمام الى قوات فيصل على الجبهة الشرقية ، ومن بقي في فلسطين تعاون مع بريطانيا . وتشير « النشرة العربية » في عددها ١٩١٧/١/١٢ الى أن نشاط الاهالي ضد الاتراك والعمل من أجل قضية الحلفاء حتى في المناطق التي لايوجد فيها مستوطنات يهودية ، قد ادى الى اضطهادهم بالنفي أو الاعدام ، ففي غزة أعدم المفتي وابنه ، كما نفي وأعدم كثير من زعماء نابلس بسبب هذا الموقف ، ووضعت بعض عائلات القدس تحت الشبهة بسبب مشاعرها الموالية لبريطانية ، كما ان بدو منطقة بئر السبع عملوا مع قوات الشريف أو مع قوات حليفته بريطانيا(٢١) . وقد حرصت القوات البريطانية على كسب الرأي العام العربي وراء خطوط القتال ، وتولى « المكتب العربي » وضع المنشورات وتوزيعها في فلسطين ، والتي تتولى الدعاية للشريف حسين وتشير الى ان الجيش العربي في الحجاز يعمل بالتعاون مع القوات البريطانية . ومن أجل ذلك اتهم الصهيونيون بعض العاملين في « المكتب العربي » بدعم قضية القومية العربية ، ووصف ارونسون في

تقريره السابق في مطلع ١٩١٧ العرب « بالخداع والسلبية والجهل » . ولام بريطانيا لسياستها « الخطرة والمؤسفة » في تبني الثورة العربية لانها « بعثت في الفلسطينيين حلما بأن يصبحوا جزءا من المملكة العربية المستقلة » . ونقلت « النشرة العربية » في ١٩١٧/٩/٢٧ رأي أحد زعماء الحركة الصهيونية حول الثورة العربية ، الذي عزا موقف اليهود الحيادي في الصراع العربي التركي الى عدم ثقتهم بالثورة العربية . وتوعد العرب بعدم استغلال هذا الموقف الحيادي بالهجوم على اليهود وممتلكاتهم لان هذا لن يخدم القضية العربية ذلك أن « حسن ارادة اليهودية العالمية ضروري لتحقيق الاهداف العربية » .

٥ ـ المقاومة العربية للصهيونية في فلسطين :

رغم هيمنة أحداث الحرب على مسرح السياسة الداخلية في فلسطين منذ صيف ١٩١٤ والظروف القاسية التي عاناها شعب فلسطين أثناء الحرب ، وتجمد الموقف العربي بسبب أساليب القمع التي اتبعت ضد رجال الحركة العربية ، الا أن ذلك لم يصرف أنظار عرب فلسطين عن أخطار الصهيونية وضرورة مقاومتها . ولما كانت الحكومة البريطانية تدرك طبيعة المشاعر العربية بشأن مستقبل فلسطين ، ولم تكن تجهل المعارضة العربية للصهيونية فقد حاولت أن تحول دون البحث بموضوع الصهيونية أثناء سنوات الحرب . وفي ١٨ آب / أغسطس ١٩١٦ / ١٨ شوال ١٣٣٤) وردت اشارة عابرة في العدد الثاني من جريدة القبلة (التي تصدر في مكة) عن الصهيونيين وأخطارهم في فلسطين ، أثارت مخاوف مارك سايكس (مستشار الشؤون الشرقية للحكومة البريطانية . والموجه الرئيسي للسياسة البريطانية في المشرق العربي) . وبايعاز من سايكس بعث مدير الاستخبارات العسكرية البريطانية في ١٩١٦/١١/٢١(٢٢) تعليماته الى كلايتون مدير « المكتب العربي » يطلب منه التدخل لدى أصدقائه العرب « ومنهم الشريف حسين » بتحذير خطير وشخصي بعدم الخوض في هذا الموضوع الخطير لانه « يثير عداء القوى الحيادية الآن ، والتي لو أثيرت فانها كفيلة بتحطيم الآمال » .

ونظراً لقرب العاملين « بالمكتب العربي » من المنطقة العربية ، وامكان اتصالهم بالاجواء العربية ، فقد بدأوا بجمع كل المعلومات المتاحة عن مدى المعارضة العربية للنشاط الصهيوني في فترة ما قبل الحرب ، وظروفها ودوافعها ، لوضعها أمام المفاوضين في لندن . وفي مذكرة أورمسبي غور في ١٩١٧/١/١٢ (٢٣) عن الاوضاع السياسية في فلسطين تحليل لاسباب المعارضة العربية للصهيونية . والتي يعزوها الى أهداف الصهيونية الحديثة السياسية ، والتي تهدف لانشاء دولة يهودية مستقلة

ذاتيا واقصاء السكان تدريجيا . ويرى غور ان المسلمين في القدس خاصة يميلون نحو المسيحيين وهم ضد اليهود ، وبشكل أدق ضد الصهيونيين ، وهم يقاومون النمو المتزايد للمستوطنات اليهودية ، في العدد والنفوذ ، وشراء الاراضي وتجريد السكان من ممتلكاتهم . وفي مذكرة المكتب العربي ١٩١٧/٢/٥ (٢٤) اشارة الى أنه نتيجة للمعارضة العربية تشكلت جمعيات من الاعيان والمثقفين لمقاومة الاستيطان اليهودي .

وقد بدات السلطات البريطانية في مصر تشعر بحراجة موقفها في صيف ١٩١٧ بعد ازدياد الدعاية الصهيونية في مصر (اثر زيارة سايكس للمنطقة)(٢٥) ، بطريقة تجاوزت رقابة تلك السلطات . واشار كلايتون في برقيته الى الخارجية في أيار/مايو ١٩١٧(٢٦) الى أن ذلك قد يؤثر على سير العمليات العسكرية في فلسطين . ونصحت الخارجية البريطانية كلايتون بعدم التدخل لان المسائل الكبرى لا تزال مطروحة على مجلس الوزراء (كانت المفاوضات المطولة بين اللجنة الصهيونية في لندن والحكومة البريطانية اواخر ١٩١٧ تتقدم بصورة متوافقة مع سير العمليات العسكرية وانتهت باصدار تصريح بلفور (١٩١٧/١١/٢) .

ب ـ القضايا المتعلقة بفلسطين التي تناولتها تقارير المكتب العربي ونشراته

« بعد تصريح بلفور »

١ ـ ردود الفعل الاولية لتصريح بلفور :

كان يهم « المكتب العربي » ، كسائر الدوائر البريطانية في مصر ، أن لا يتأثر التحالف العربي البريطاني ، في وقت لم تكن القدس فيه قد وقعت بيد القوات البريطانية . وعلى أثر القلق العام الذي اخذ يسود المنطقة العربية بعد الكشف عن مضمون اتفاقية سايكس بيكو وصدور تصريح بلفور (٢٧) ، حاول كلايتون في برقيتين وجههما الى مارك سايكس ، في ٢٦ و ١٩١٧/١١/٢٨ (٢٨) ، لفت أنظاره الى العواقب التي يمكن لتصريح بلفور أن يتركها على مستقبل العلاقات العربية البريطانية . ووضع كلايتون عدة اقتراحات حول الخطوط العامة للسياسة البريطانية في المشرق العربي ، وهي كفيلة ، بنظره ، بتهدئة الشكوك . وفي اعتقاده ان بواعث الشكوك وعدم الثقة التي تراود العرب هو عدم وجود تأكيد ينفي ضم سورية ، وصدور تصريح بلفور الذي كان له انطباع سيء على العرب لتخوفهم من احتمال وقوع فلسطين ، وحتى سورية ، بيد اليهود . وقد يتيح هذا ، برأيه ، المجال لدعاية ألمانية تركية تعد

بالاستقلال تحت السيادة التركية . وينصح كلايتون بعدم منح الصهيونية امتيازات أخرى ، والاكتفاء بالتصريح ، لانه من الخطر في هـذه المرحلة ، وبسـبب الموقف العسكري ، السماح باستيطان يهودي في فلسطين .

٢ ـ السياسة التوفيقية بين العرب والصهيونيين :

على ضوء المعلومات التي قدمها كلايتون أخذ سايكس بوضع الخطوط العامـة التي يراها مناسبة لانقاذ الموقف ، بعث بخلاصتها الى كلايتون وهي : ان في المنطقة مكانا « للقوميتين العربية واليهودية » كي تعملا معا لاحياء الشرق ، مع الوعد بامكان تحقيق الكثير لو حدث التحالف مع الصهيونية ، والتحذير من عواقب معاداتها . وفي برقيته الى كلايتون في ١٩١٧/١١/٣٠ (٢٩) ، أشار سايكس الى أنه حث الصهيونيين في لندن لتبني أتجاه موال للعرب ، وانه ، أي سايكس ، قد وضع صيغة قرار سوف يتخذ في اجتماع صهيوني ضخم « تصل أصداؤه الى الشرق » ، ويأمل من كلايتون أن يستطيع تهيئة الجو بالتأثير على العرب وخاصة الزعامـة السورية في القاهرة ، ويقترح عليه أن يشرح لتلك الزعامة أهمية التعاون بالنسبة للمستقبل العربي ، وان « التحالف مع الصهيونية هو ضمان للاستقلال العربي وللازدهار ، وان معاداتها تعني ركودا عربيا وسوريا » .

وبدأ كلايتون بالدعاية حسب الخطة التي اقترحها سايكس ، فحاول كسب ثقة بعض العناصر السورية في مصر ، ودبر لقاء بين أعضاء لجنة الاعانة السورية في القاهرة والزعيم الصهيوني موسيري . ولكن لم يكن لدى كلايتون تفاؤل سايكس ولم يتوقع نجاحا كبيرا لسياسته ، نظرا لمشاعر القلق والتخوف عند الزعماء السوريين بشـأن تقدم الحركة الصهيونية خطوات تهدد مصالحهم ، ولان تحالفا عربيا يهوديا يبـدو تجربة غريبة . ولذا فقد نصح كلايتون بأن تجري العملية بحذر شديد « فالدعايـة العنيفة ستثير المشاعر التي يتوجب تهدئتها ، ويبدو المستقبل مظلما يستحيل التنبؤ بـه (٣٠) » . وكان كلايتون يخشى من حدوث ما يؤثر على علاقات العرب بالحلفاء بعد أن ترك التصريح أثرا كبيرا في الاوساط العربية ، حتى « الجهات المؤيدة للانجليز لم تخف المرارة » . وهذا السبب هو الذي حمل كلايتون على التحفظ بشـأن اقتراح تقدمت به الخارجية اثر احتلال القدس في ١٩١٧/١٢/١١ (٣١) بارسال بعثة صهيونية تعمل كجهاز استشاري للسلطات البريطانية فيما يتعلق بأحوال اليهود وانشاء الوطن القومي . وكانت وجهة نظر كلايتون ، وهو أيضا رأي السلطات العسكرية في مصر ، أن الوضع العسكري الحالي لا يسمح لاي شخص بالتوجه نحو فلسطين (٣٢) .

٣ ـ التأثير على الشريف حسين :

اتجهت خطة سايكس ، الى جانب محاولة اقناع الزعامة السورية بأهمية التعاون العربي مع الصهيونية ، ، الى الاتصال بالملك حسين كي يضمن قبوله ، ولم يكن كلايتون متفائلا بتلك المساعي كما جاء في برقيته الى سايكس في ١/١٢/١٩١٧(٣٣). واستقر الرأي أخيرا على ارسال هوغارث (أحد رجال المكتب العربي ، ومن علماء الآثار المستشرقين) كمبعوث شخصي لدى الحسين في محاولة للتأثير عليه . ووضعت الخطوط الرئيسية للمباحثات مع الحسين في القاهرة . وارسلت الى الخارجية في ٣١/١٢/١٩١٧ (٣٤) . وبتوجيه من سايكس أضيف لها صيغة اخرى لضمان موافقة الحسين فيما يتعلق بفلسطين : اذ بالاضافة الى تأكيد الوعود التي قطعها مكماهون ، اقترح سايكس ضمانات بشأن الاماكن المقدسة وضمان « حقوق الشعب الحالي الاقتصادية والسياسية » مع التأكيد على اهمية اليهودية العالمية والتي تعني دعم كل الدول التي يوجد لليهود نفوذ فيها ، والاشارة الى أن زعماء الحركة الصهيونية عازمون على تحقيق النجاح والتعاون مع العرب وصداقتهم (٣٥) .

وكي تضمن وزارة الخارجية البريطانية مزيدا من التأثير على الحسين بعثت برسالة الى كلايتون باللغة العربية في ١٥/٢/١٩١٨ كي يبلغها للحسين، والرسالة هي من لجنة تطلق على نفسها « اللجنة العربية والسورية المدافعة عن النهضة العربية وصديقة الدولة البريطانية » ، تدعو الحسين لقبول الامر الواقع الذي هو لمصلحة العرب نظرا لما للصهيونيين من نفوذ ومال ، وتقنعه بعدم جدوى معارضة ما يرمي له الصهيونيون (٣٦) . الا ان موقف الحسين لم يكن مشجعا من وجهة نظر كلايتون في رسالته الى سايكس في ٤/٢/١٩١٨(٣٧) ، واتهمه بالعناد وبتحريف كل شيء لمصلحته. ولكن كلايتون ظل يعتقد بضرورة ابقاء الحسين على المسرح رغم انه بدأ بالتركيز على الامير فيصل الذي أخذ يلوح في الصورة بعد نجاحاته العسكرية ليحقق ما فشل الحسين في تحقيقه . وأسر كلايتون الى سايكس خبرا مفاده انه أوعز الى لورنس للقيام بالتأثير على فيصل لدفعه الى الاتفاق مع اليهود بحجة انها « فرصته الوحيدة لاعطاء الحركة العربية ثمارها » .

٤ ـ الدعاية في أوساط شعب فلسطين :

بعد أن قطعت العمليات العسكرية في فلسطين شوطا كبيرا بدأت السلطات البريطانية تمهد لنقل خطة سايكس الى فلسطين خاصة بعد أن أعلن سايكس في مطلع

١٩١٨ عن قدوم بعثة صهيونية لوضع تفاصيل سياسة التعاون . وبدأ اولا بتنظيم ادارة لفلسطين مستقلة عن مصر . وأوكل الى الجنرال كلايتون القيام بمهمة الضابط السياسي الرئيسي للجنرال اللنبي (القائد العام للحملة المصرية) على أن يتلقى كلايتون تعليماته من وزارة الخارجية مباشرة في الامور السياسية المتعلقة بفلسطين. ووجهت له تعليمات بتأسيس فرع جديد « للمكتب العربي » تحت اشرافه في فلسطين بهدف القيام بالدعاية ،على ان يصبح كورنواليس مديرا «للمكتب العربي» في القاهرة(٣٨). وخشية حدوث مصاعب مع « السكان المحليين » أرسلت الخارجية الى كلايتون الخطوط العامة للسياسة البريطانية المقبلة ، وتتعلق بضمان المساواة الدينية لجميع فئات السكان واستخدام الموظفين من الاجهزة المحلية وابقاء الصهيونية في « الاتجاه الصحيح » الذي لا يسيء الى أمن الاماكن المقدسة ، مع تقديم التسهيلات الكاملة لاعادة بناء وتأسيس المستوطنات اليهودية .

وفي ١٩١٨/٢/٤ بعث كلايتون الى سايكس بانطباعاته الاولى من القدس(٣٩). حيث لمس صعوبة التوصل الى التعاون العربي لان الشعور في القدس قوي ضد اليهود . فالعرب يخشون من ان يسيطر اليهود على المدينة المقدسة ، وعلى جميع فلسطين . ولذا فان كلايتون يتطلع الآن الى وصول « بعثة وايزمان » .

٥ ـ البعثة الصهيونية في مصر :

منذ وصول البعثة الى الاسكندرية ، ١٩١٨/٣/٢ (٤٠) . بدأت مشاوراتها السياسية حسب الخطة الموضوعة . ورافقها الماجور أورمسبي غور من « المكتب العربي » ممثلا للحكومة . وفي مقال كتبه كورنواليس (مدير المكتب العربي في القاهرة) في النشرة العربية ١٩١٨/٤/٣٠ تحت عنوان «الصهيونيون والسوريون في مصر»(٤١). أشار الى الانطباع العام الذي أحدثته زيارة اللجنة في اذهان الزعماء السوريين في مصر . فقد تخوف الزعماء من أن هدف اليهود لا يقتصر على تولي زمام الحكم بل تجريد السكان من ممتلكاتهم ، وطردهم من البلاد تدريجيا . ويقر كورنواليس أن جهد المسؤولين البريطانيين في تهدئة مخاوفهم كان شاقا . ونقل كورنواليس ما تحدث به وايزمان للزعماء السوريين حول أهداف الصهيونيين ، وأنهم يتطلعون فقط الى انشاء وطن يتيح لليهود الحياة القومية ومشاركة السكان الحقوق المتساوية . واشار وايزمان الى نيته في تحسين المستوطنات القائمة والاعداد لاستقبال المهاجرين الجدد على أراضي الدولة والاراضي البور ، كما أكد حرصه على الاماكن المقدسة وتحدث بعطف عن الثورة العربية . ويعلق كورنواليس على هذا اللقاء بقوله ان « موقف الزعماء السوريين قد تحول من معارضة متصلبة الى تعرف تدريجي على

القوى الكامنة وراء الصهيونية وقبول كاره بأن اغراضها ليست قاتمة كما صورت ، وانه في ظروف معينة قد يستفيد السكان من الغزو اليهودي » . ويأمل كورنواليس بزوال بقية الشكوك لو استمرت اللجنة في موقف الاسترضاء الحالي .

٦ ـ البعثة الصهيونية في فلسطين :

لم تكن أخبار فلسطين مشجعة فقد صورت رسائل هوغارت من القدس الى « النشرة العربية » في ١٩١٨/٣/٢٧ و ١٩١٨/٤/٧ (٤٢) حالة القلق السائد الذي لن يعمل على تخفيفه موقف اليهود العدواني . ويرى هوغارت أن تخوف الجميع من المستقبل وغموض تصريح بلفور يعرقلان العلاقات مع « السكان غير اليهود » . ويشير الى تكون الجمعيات الاسلامية المسيحية لحماية الارض كرد فعل طبيعي لهذا التخوف . ويتوقع هوغارت أن يصبح التخوف العربي أكثر حدة مع وصول البعثة الصهيونية ، ولذا فانه يقترح نشر سياسة البعثة الصهيونية على أوسع نطاق . والتي تتلخص بمعارضة الاستغلال وتجريد السكان من الارض والاشراف السياسي اليهودي والتركيز على الاستفادة من امكانيات الاراضي البور والمستنقعات لاستيطان أعداد ضئيلة من اليهود .

وبعد وصول البعثة الصهيونية الى يافا في ٤ ابريل/نيسان ١٩١٨ حيث أقامت مكتبا لها في تل ابيب ، بدأ اورمسبي غور بارسال التقارير حول المشاكل التي واجهت البعثة في فلسطين ، ومساعي السلطات العسكرية البريطانية في التمهيد لاجتماع البعثة بشخصيات عربية (٤٣) . وفي أحد هذه الاجتماعات بحث وايزمان مع تلك الشخصيات القضايا التي تثير مخاوف العرب . وقد نفى وايزمان هدف انشاء دولة ، وتجريد الفلاحين من ملكيتهم . وأبدى تلهفه لاقامة ادارة تمكن العربي واليهودي من العمل بانسجام لتطوير البلد على أساس المساواة والعدالة لان في فلسطين متسعا لليهودي وللعربي . الا أن الانطباع المتفائل الذي نقله أورمسبي غور في تقريره للخارجية نفته « النشرة العربية » في عددها الصادر في ١٩١٨/٤/٣٠ (٤٤) ، واتفقت في ذلك مع رأي رونالد ستورز الحاكم العسكري للقدس (٤٥) . وقد صورت « النشرة » الانطباع المعادي والسلبي الذي أحدثته البعثة في القدس وتخوف المسلمين والمسيحيين المتزايد من المسألة الصهيونية وأنهم لا يشعرون بالاطمئنان على مستقبلهم ويخشون التعدي على حقوقهم ويندفعون لتأسيس جمعيات للسهر على مصالحهم . وفي تقرير الى مارك سايكس في ١٩١٨/٤/١٦ (٤٦) عبر وايزمان عن قلقه الذي يتعارض والتوقعات التي يأملها ، وبرأيه أن الجو السياسي لا يتلاءم مع التطور الذي رسمه تصريح بلفور .

وفي ١٩١٨/٥/٧ رفع كلايتون الى وزارة الخارجية تقريرا أعده ستورز (حاكم القدس العسكري(٤٧) حول وقائع احتفال كان قد أعده في القدس كي يتيح للبعثة الصهيونية فرصة اخرى لشرح الاهداف الصهيونية لزعماء القدس العرب . وجاء في تعليق كلايتون على التقرير « بأن السياسة الصهيونية قد عملت الكثير لازالة شعور عدم الثقة والشك الذي كان يعتمل في نفوس الطائفتين الاسلامية والمسيحية تجاه الاماني الصهيونية » . وبايعاز من كلايتون تم نشر خطاب وايزمان في الاحتفال على أوسع نطاق وباللغات الثلاث ، مع ذلك فقد ظل كلايتون مصرا على رأيه بأن الاعتبارات العسكرية تجعل من المستحيل القيام بمشاريع واسعة كما يقترح وايزمان .

هذه المصاعب التي واجهتها البعثة الصهيونية في فلسطين دفعت السلطات البريطانية في مصر الى ارسال لجنة من بعض الزعماء السوريين للتعرف على الحالة السياسية والاقتصادية في البلاد . وأشارت « النشرة العربية » في ١٩١٨/٦/٤ (٤٨) الى أن شاغل اللجنة كان مقاومة التخوف الطبيعي الذي يشعر به السكان تجاه الاهداف الصهيونية . ولم يكن هذا يعني موافقة الزعامة السورية على فصل فلسطين عن سورية ووضعها تحت الاشراف الصهيوني . وهذا ما أكده فارس نمر أحد زعماء الكتلة السورية في لقائه مع هوغارت (« النشرة العربية » في ١٩١٨/٦/٢٤) . ومن وجهة نظر « النشرة العربية » فان الزعماء السوريين قد يقبلون بالحماية البريطانية، ولكن ليس بالصهيونية (٤٩) .

٧ ـ مقترحات المكتب العربي بشأن الادارة العسكرية في فلسطين :

في رسالة وجهها وايزمان الى بلفور (وزير الخارجية البريطاني) في ٣٠/٥/١٩١٨ (٥٠) شكا ما تواجهه البعثة الصهيونية من مصاعب في فلسطين ، كما وجه انتقاده للادارة المحلية التي لا تتلاءم بنظره مع خطط الصهيونية لتحقيق الوطن القومي اليهودي . ورفع كلايتون تقريرا وافيا عن الوضع الراهن في فلسطين الى بلفور ، في ١٩١٨/٦/١٦ ، لتوضيح الموقف وللرد على انتقادات وايزمان (٥١) . فوجود البعثة الصهيونية بنظر كلايتون « هو بحد ذاته دليل على الدعم الذي منح للحركة الصهيونية وهو أمر أثار انتقاد الفئات الاخرى التي حرمت من وجود منظمة مشابهة للدفاع عن مصالحها » . ويرى كلايتون أن العرب ينظرون بشك بالغ الى اي تحرك ، ولذا يشير بالتخفيف من الدعاية العدائية بين العرب . وباعتقاد كلايتون أن العداء العربي يرجع الى عوامل اجتماعية اقتصادية وليس الى الشعور القومي ، ولذا يرى أن المعارضة سوف تختفي حين يعود التطور الناجم عن تنفيذ البرنامج الصهيوني بفوائد على

غالبية السكان . ويقترح كلايتون برنامج العمل البريطاني المقبل في فلسطين لمصلحة الصهيونية ، وهو برنامج لا يمكن أن يتقيد بقوانين وأعراف الحرب الخاصة بادارة المناطق المحتلة (والتي تفترض الحفاظ على الاوضاع القائمة في الاراضي المحتلة) ، لان ذلك سوف يؤدي ، بنظره ، الى خيبة أمل الصهيونية ، وقد يدفع الى رحيل البعثة الصهيونية . وهو أمر يعتبره كلايتون ضربة « لهيبة بريطانيا » . ولهذا فهو يقترح بدلا من ذلك أعطاء السلطات المحلية قدرا معقولا من حرية العمل لاحداث تعديلات بسيطة ترضي الرأي الصهيوني وتتفادى الاساءة الى مشاعر الطوائف الاخرى.

اما فيما يتعلق بالمقترحات التي تقدمت بها البعثة الصهيونية وردود الفعل التي يمكن أن تحدثها ، فان كلايتون لا يرى مانعا من البدء بمشروع (الجامعة العبرية)، اما المشروع الزراعي الواسع الذي سوف يستصلح ٢٥٠٫٠٠٠ هكتار من أراضي الدولة والاراضي البور ، فهو كفيل باثارة مخاوف السكان ، كما يعتقد كلايتون . ومن الوجهة السياسية لا يحبذ البدء بمشروع واسع يتعهده يهود ، ويقترح غطاء بارعا للمشروع وذلك باعطائه صفة عسكرية ، ودعوة بعض المستثمرين العرب للمشاركة فيه تحت اشراف السلطات العسكرية . ويتوقع كلايتون حدوث مصاعب بالغة بشأن ملكية حائط المبكى والاراضي المجاورة له ، والتي قد تستغلها دعاية « العدو » . ويخلص كلايتون من الاوضاع الراهنة التي عرضها في تقريره الى أن أي تطور للافكار التي تكمن في تصريح بلفور يقضي بتوسيع المعاملة التمييزية لليهود ، وهذا ما سيثير استياء وقلق « الفئات الاخرى » وهو ما قد تستفيد منه دعاية « العدو ». ولذا فهو يشير باتباع أسلوب « التمييز الحكيم والتوفيق الحريص بين مصالح جميع الفئات لان ذلك سوف يعمل على التقليل من الخطر » . لقد كان هدف كلايتون في تقريره الى بلفور تحديد المدى الذي يجب أن يبلغه تطوير السياسة الصهيونية في فلسطين في المرحلة الراهنة ، وتوجيه التعليمات الخاصة بالخطوط العريضة التي يتوجب على الادارة اتباعها . وهكذا ، ورغم كل تقدير واعجاب بلفور بوايزمان وتعضيده له ، جاءت رسالته الى وايزمان في ١٩١٨/٧/٢٦ ، ردا على مطالب الاخير ، متحفظة ، مشيرا الى أن قضيتي حائط المبكي والاراضي معقدتان لا يمكن البدء بتنفيذهما»(٥٢).

٨ ـ لقاء وايزمان فيصل :

كان كلايتون متخوفا من انتقال شعور الاستياء من فلسطين الى القوات العربية التي تقوم بعملياتها العسكرية شرقا بقيادة فيصل ، والتي يهم تركيا أن تكسبها الى جانبها ، وهذا ما يهدد الوضع العسكري في الشرق كما صور ذلك في رسالته الى

بلفور في ١٩١٨/٦/١٦ (٥٣) . ونوه تقرير «للمكتب العربي» في تموز / يوليو ١٩١٨(٥٤) بضرورة توجيه الانظار الى منطقة أبعد الى الشرق ورسم خطة جديدة بتدبير لقاء بين الحركة الصهيونية والقائمين على قيادة الثورة العربية (الجناح الايمن للقوات البريطانية) « فالمصلحة البريطانية تقتضي بقاء هذا الجناح مصدر قوة » . وكانت برقية كلايتون الى وزارة الخارجية قد سبق وأكدت في ٢٦ مايو / أيار بأن موقف كل من ملك الحجاز والامير فيصل المتعاطف سوف ينجح كثيرا في عملية التنسيق بين السياستين الصهيونية والعربية لتجنب حدوث صدام متوقع يهدد المصالح البريطانية » .

وقد جرى بحث تجديد التوجه السياسي للبعثة الصهيونية تجاه الحركة العربية في مؤتمر حضره كلايتون ومساعده ديديس ولورانس وأورمسبي غور ووايزمان (٥٥) . وانطلق هذا التوجه من فرضيات ثلاث : الاولى : ان مركز ثقل الحركة العربية هو المثلث القائم بين مكة ودمشق وبغداد ، أو بمعنى أدق سورية الشرقية (بعد أن أخذت الاضواء تتركز على فيصل) . الفرضية الثانية : ان المسألة الفلسطينية يمكن عزلها في حالة قيام حلف سياسي مع قادة الحركة العربية في الشرق . وأخيرا ، ان مسألة العلاقات مع الشعب الفلسطيني هي اقتصادية بحتة ويمكن الوصول الى حل لها بتحسن الاوضاع الاقتصادية . وقد مهد لهذه السياسة مساع سابقة تولاها كلايتون وهوغارت ولورانس لدى الملك حسين والامير فيصل للتحقق من مشاعرهما تجاه الصهيونية . ولم يكن موقف الحسين بالنسبة للبرنامج الصهيوني واضحا في نظر كلايتون ، فالحسين على استعداد للاعتراف بحقوق اليهود كمواطنين لاية دولة عربية يمكن أن تقوم فيما بعد . ولذا فان كلايتون يفضل التوجه الى فيصل ، وذلك بالتمهيد للقاء بينه وبين وايزمان للحصول على موافقته ، وبالتالي التأثير على والده .

وفي ٢٦ أيار / مايو بعث كلايتون ببرقية من القدس (٥٦) تفيد بأن وايزمان برفقة أورمسبي غور سوف يغادران السويس في ٢٨ منه باتجاه العقبة للقاء الشريف فيصل في مقر قيادته . وتوقعت « النشرة العربية » (٥٧) أن يتمكن لورنس من لقاء وايزمان عند وصوله العقبة ليقوم بتقديمه للامير . وفي ٢٧ أيار / مايو ١٩١٨ بعث كلايتون ، من مقر القيادة العامة في القدس رسالة الى فيصل يعرف فيها وايزمان كأحد زعماء الحركة الصهيونية ، حضر للعمل على تنمية التعاون الكامل بين العرب واليهود ، لان التعاون والعطف المتبادلين كفيلان ، بنظر كلايتون ، بتحقيق النجاح ، كما انه بالامكان بحث القضايا السياسية ذات الاهمية الحيوية .

وتم اللقاء بين فيصل ووايزمان في ٤ حزيران ١٩١٨ في معسكر الاول قرب العقبة وحضره الليفتنانت كولونيل جويس (الضابط السياسي في العقبة) مترجما ، وغاب لورنس عن الاجتماع ، وكذلك حال المرض دون حضور أورمسبي غور . وبعث جويس بتقريره الى « المكتب العربي » في ثمانية نقاط (٥٨) ورد تلخيص لها في « النشرة العربية » في عددها الصادر في ١٨ حزيران / يونيو ١٩١٨ . وصور جويس انطباعه الشخصي بنتائج اللقاء في رسالة مفصلة بعث بها الى كلايتون من العقبة في ٥ حزيران/ يونيو ١٩١٨ (٥٩) . ومن وجهة نظر جويس فان اللقاء ليس له قيمة من الناحية الرسمية اذ لا يتوقع أن يصدر فيصل تصريحا علنيا . ولكنه يعتقد أن فيصل قد رحب «بالتعاون اليهودي» اذ يعتبره جوهريا بالنسبة للتطلعات العربية في المستقبل. ويؤكد جويس أن فيصل سوف يقبل بفلسطين « اليهودية » ضمن حدود ، لو استطاع بواسطتها بلوغ توسع عربي أوسع الى الشمال .

وكان تفاؤل كلايتون كبيرا من نتائج اللقاء اذ عمل على « تعزيز عطف وتفاهم متبادلين بين وايزمان وفيصل » . كما أدى الى « تخفيف دعاية العدو بين أعوان الشريف لاثارة الشكوك بالاغراض الصهيونية (٦٠) » . وشرح كلايتون في رسالة مفصلة الى الخارجية ١ تموز / يوليو ١٩١٨(٦١) أهداف الطرفين من اللقاء : ففيصل يتطلع الى دعم بريطانيا العسكري كي يهزم الترك ويصبح حاكما على سورية ، ولكنه يأمل بدعم الصهيونية الاقتصادي والسياسي نظرا لنفوذها وامتداداتها العالمية ، ومن وراء الصهيونية يعتمد على بريطانيا التي يضع ثقته فيها . وبالنسبة لوايزمان فيعتقد كلايتون أن فلسطين «اليهودية المقبلة» يتوجب ارتباطها ارتباطا وثيقا بالدول المحيطة بها من أجل وجودها وتطورها ، ولذا يبدو حيويا أن تعمل مع الحركة العربية المجاورة . ويرى كلايتون في لقاء الحركتين وتعاونهما المتبادل حلا للمشكلة التي تواجهها الحكومة البريطانية بشأن تنفيذ وعودها للطرفين . ومن أجل مزيد من التعاطف والتنسيق بين السياستين الصهيونية والعربية يقترح كلايتون تهيئة لقاء مشابه مع الحسين . ومع أن الحسين قد يبدو كارها للبرنامج الصهيوني الا أنه يمكن ، برأي كلايتون ، اقناعه بأسلوب مناسب وذلك بشرح مدى تأثير البرنامج الصهيوني على المطامح العربية في سورية فهو ، أي الحسين ، قد يرحب ، كما يقول كلايتون ، بأية سياسة تمكن فيصل من تحرير سورية وتقليده أميرا حاكما عليها .

وانتهى كلايتون الى القول بأنه لا يمكن للحركتين الصهيونية والعربية أن تعملا معا حسب الخطة التي اقترحت في لقاء وايزمان فيصل اذا ما ظلت اتفاقية سايكس بيكو سارية المفعول . والتقى كلايتون بذلك مع اقتراح تقدم به وايزمان الى الخارجية البريطانية من أجل التأثير على الحسين وضمان الحصول على اعترافه بالاماني

الصهيونية في فلسطين لقاء الاعتراف بالحسين زعيما للحركة العربية والتعهد بأن يدعم الصهيونيون اقامة مملكة الحجاز ، وكذلك دعم التطلعات السورية(٦٢) . واعتبر سايكس أن الاقتراح الصهيوني قد تجاوز الحد المرسوم بشكل بدأ يؤثر على المصلحة البريطانية فيما يتعلق بعلاقاتها مع فرنسا، وانه لابد من حصر النشاط الصهيوني في فلسطين وحدها ، وكان سايكس يعتبر أن الاتفاقية التي تحمل اسمه لا تزال قائمة ووفقا للاتفاقية فان سورية هي خارج نطاق النفوذ البريطاني ، عدا فلسطين التي سعى سايكس لابقائها مفتوحة حتى يتم التوصل الى تسوية بشأنها مع فرنسا ، وكان يهمه قبل هذه التسوية ان يزيح من أذهان العرب فكرة ضم فلسطين الى سورية (٦٣) .

٩ ــ اتساع المعارضة العربية للصهيونية :

سعت السلطات البريطانية الى استخدام وسائل الدعاية في فلسطين للتدليل على فوائد الاحتلال البريطاني لشعب فلسطين ، في النواحي الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، ولتخفيف مشاعر التخوف لدى أبناء فلسطين من فكرة اقامة دولة يهودية بالتركيز على الضمانات التي قدمها تصريح بلفور . ووجدت السلطات المحلية في قدوم لجنة التطوع العربية الى فلسطين للحصول على متطوعين لقوات فيصل ، فرصة لاقامة الاحتفالات والقاء الخطب ، وكان أهمها احتفال القدس في ٤ تموز / يوليو ١٩١٨ في مقر المكتب العربي . وبعث كلايتون صورة من الخطب التي ألقيت في الاحتفال الى بلفور الذي أوعز له بالتالي ضرورة نشرها على أوسع نطاق ممكن (٦٥).

مع ذلك فقد اتسعت المعارضة العربية للصهيونية ، وأكدت جميع تقارير المكتب العربي صعوبة الموقف مع قرب انتهاء العمليات العسكرية . وفي تقرير اعده وارلند (أحد رجال المكتب العربي) في تموز / يوليو ١٩١٨ (٦٦) اشارة الى « أن سياسة الحلفاء الصهيونية في فلسطين قد أضافت الكثير الى التعقيدات الشائكة للوضع الراهن في المشرق ، وانها قد نفرت المسلمين والمسيحيين على السواء » . وكان وارلند عديم الثقة بجميع اللقاءات التي قام بها وايزمان مع الزعماء العرب ، واعتبرها اشبه « بسوق الضحية الى المذبح » . وكذلك أكد هوغارث في مذكرته الى الخارجية في ١٩١٨/٨/٢ (٦٧) المصاعب التي تحيط بالقضية العربية ، فهو لا يتوقع « قبول الغالبية (غير اليهودية) للتغلغل الصهيوني أو قبول المعاملة التفضيلية للصهيونية ». وينصح هوغارث بأن يتولى« العنصر الشريفي » أو ما يطلق عليهم اسم « البدو » السيادة من أجل ضمان قبول التغلغل الصهيوني بأقل صعوبة ممكنة حيث يمكن عقد صفقة مالية بنظره ، والا فانه « يتوجب فرض التعهدات البريطانية للصهيونيين

بالقوة » . وينقل هوغارت ما أسر به الزعماء الصهيونيون بأن «الوطن القومي اليهودي» يعني بنظرهم أن تكون فلسطين كلها تحت السيطرة اليهودية سياسيا ، وهذا لن يحدث ، كما يقر هوغارت الا « باكراه السكان وليس برضائهم الحر أو السلمي » .

واقر رئيس تحرير جريدة « الكوكب » في تقريره الى المكتب العربي في ٩/٢٩/ ١٩١٨ (٦٨) ، اثر جولة قام بها في فلسطين بأن جهوده في « النصح والارشاد » لم تنجح في تبديد سوء الفهم الواقع بين الشعب والحكومة بسبب المسألة اليهودية . وقد لاحظ أن الشعور المؤلم قد ازداد بعد أن تمادي الصهيونيون في ايذاء مشاعر الناس بالاعتماد على تصريح بلفور ، كما لاحظ أيضا أن الاتراك قد استغلوا المسألة الصهيونية كسلاح ضد بريطانيا في المناطق التي لا تزال تحت سيطرتهم حيث أن السكان هناك أخذوا يفضلون استمرار الحكم التركي على توقع وصول القوات البريطانية وذلك خشية فرض اليهود كحكام عليهم .

وظلت مسألة مطالبة البعثة الصهيونية بملكية حائط المبكى مشكلة معقدة للسلطات البريطانية في فلسطين . واقترح كلايتون في رسالته ١٩١٨/٨/٣١ الى الخارجية (٦٩) ضرورة تجنب تلك السلطات أي اجراء قد يعطي انطباعا بأنها تمارس ضغطا في هذه المسألة . ويضيف كلايتون أن الامر « يلاقي معارضة اسلامية لانه يعتبر نقطة انطلاق لتعديات يهودية أخرى قد تؤدي الى التعدي على منطقة الحرم بأكملها » . وقد تحقق كلايتون في رسالة أخرى الى الخارجية في ١٩١٨/١٠/١ (٧٠) ، أن جميع المغريات لم تثمر في تعديل موقف المسلمين ، بل بلغ الامر الى تخوف خطير . ورأى أنه من غير المرغوب فيه ، ان لم يكن من الخطورة بمكان ، التقدم خطوة أخرى بشأن مسألة حائط المبكى . خاصة وان اسهام القوات العربية في الحرب قد زاد من توثيق العلاقات العربية البريطانية ، ويرى أن القضية الاكثر الحاحا في هذه المرحلة هي المفاوضات للتوفيق بين المصالح العربية والفرنسية في سورية . ولذا فالوقت الراهن غير ملائم كلية للقيام بنشاط صهيوني خاص حتى يتم التحديد النهائي لوضع البلد وأسلوب ادارته . ويحذر الصهيونيين من اثارة مزيد من التخوف باذاعة تصريحات طائشة عن سياستهم ومطالب متطرفة تثير عداء مستمرا مما يؤثر على نجاحهم ويجعلهم عرضة للاتهام بأنهم يسعون لتحقيق أهدافهم بالقوة . ولم يكن تخوف كلايتون نابعا من حرصه على المصلحة العربية ، بل ، كما أوضح في رسالته : لان عدد اليهود في فلسطين لا يتجاوز ٦٦ الفا يقابلهم ٥٧٣ الفا من « غير اليهود »، ولذا

لا يمكن تحقيق المطامح الصهيونية الا بالصبر وباظهار مشاعر التعاطف نحو الغالبية الكبرى من السكان ، لان الصهيونيين لو تقدموا بالقوة فان مشروعهم ، بنظره ، سيقام على أساس غير راسخ .

وفي مطلع تشرين اول / أكتوبر ١٩١٨ دخل اللنبي الى دمشق للقاء فيصل وابلاغه بالترتيبات العسكرية الادارية المؤقتة التي اتخذتها القيادة العامة بشأن ادارة اجزاء سورية التي اعتبرت « بلاد العدو المحتلة » . وشكلت فلسطين المنطقة الجنوبية منها ، بينما شكلت حكومة دمشق العربية المنطقة الشرقية . ورافق اللنبي في زيارته كل من كلايتون (الضابط السياسي الرئيسي في مقر القيادة العامة ، والمشرف على المكتب العربي في القدس) وكورنواليس (مدير المكتب العربي في القاهرة) .

وبتوقف العمليات الحربية في تشرين ثاني ١٩١٨ انتهت مهام « المكتب العربي » وبدأت مرحلة جديدة في تاريخ المشرق العربي .

* * *

الحواشـــي :

(١) أنيس صايغ ، الهاشميون والثورة العربية ، بيروت ١٩٦٦ ، ص‌ص ٨٠ – ٨٤ .

(٢) كان وليام ييل ، ممثل وزارة الخارجية الامريكية في المشرق لتغطية أحداث الحرب العالمية الاولى، قد تمكن بطريقته الخاصة من الحصول على النشرة السرية للمكتب العربي واستخدمها في تقاريره التي بعث بها الى وزارة الخارجية الامريكية « دائرة شؤون الشرق الادنى » ، والتي بلغ عددها (٣٤) تقريرا منذ تشرين أول / أكتوبر ١٩١٧ وحتى اعـلان الهدنة في تشرين الثاني / نوفمبـر ١٩١٨ . وقـد سبق لوليـام ييل أن عمـل وكيلا الشركة ستاندرد أويل الامريكية في القـدس ١٩١٥ – ١٩١٧ .

(3) Aaronson, AL. , **with the Turks in Palestine** , London. 1917 p. 75.

والمؤلف هو شقيق هارون أرونسون .

(4) F. O. 882/14. pa/17/16. Arab Bureau Papers.

كان وولي عالم الآثار ومدير مكتب المخابرات البريطانية في بور سعيد ، يتولى الاشراف على عملية المخابرات في الساحل الفلسطيني بالاتفاق مع مجموعة « نيلي » عند شاطىء عتليت . وحين قـام وولي شخصيا بمهمة الاتصال بالمجموعة فجرت السفينة التي كان عليها واعتقلته السـلطات العثمانية . التفاصيل في كتاب Engle, A. , **The Nili Spies,** London 1959 .
والمؤلفة تروي الاحداث المتعلقة بشبكة تجسس « نيلي » من خلال وثائق عائلة أرونسون .

(٥) روى عزيز بك ،وكان يعمل في المخابرات العثمانية ثم تولى مديرية الامن العام في الدولة العثمانية تفاصيل مثيرة في مذكراته « الاستخبارات والجاسوسية في الدولة العثمانية ، تعريب فؤاد الميداني ونشر جريدة الاحرار البيروتية ١٩٣١ » ، عن كيفية الكشف عن شبكة التجسس في زخرون يعقوب واعتقال أفرادها وانتحار سارة شقيقة هارون أرونسون ، وكانت قد تولت ادارة الشبكة بعـد رحيـل شـــقيقها .

(٦) بدأت الحملة بنشر خبر في جريدة (جويش كرونكل) في لندن في ٤ أيار/مايو ١٩١٧ تحت عنوان « اليهود في فلسطين ـ تقارير محزنة ـ اعتداءات وحشية ـ تهديد بمذابح جماعية » . وكان مصدر الخبر برقية بعث بها مارك سايكس من القاهرة الى وزارة الخارجية . وقد حصل سايكس على التفاصيل من هارون أرونسون الذي طلب عدم الاشارة الى مصدر الخبر .

(7) F. O. 882/14 . pa /17/6. Arab Bureau Papers.

(8) F. O. 882/26 Arab Bulletin .

مقال عن المستعمرات اليهودية في فلسطين .

(٩) وقد أكد ويليام ييل ذلك في تقريره الى الخارجية الامريكية ونقلـه السفير البريطاني في واشنطن في ١٣ تموز / يوليو ١٩١٧ :

F. O. 371/3050/ 158286.

(10) F. O. 371/3055 / 221243 / 87895 F.

(11) F. O. 882/14. Pa /17/2. Arab Bureau Papers.

(١٢) كان السفراء الامريكيون الثلاثة الى عاصمة الدولة العثمانية قبل الحرب العالمية الاولى من اليهود المتعاطفين مع الصهيونية وهم ستراوس ومورغنثو وايلكوس . وقد زاد الاهتمام الامريكي مع نشوب الحرب وانسحاب ممثلي الحلفاء من الدولة العثمانية ، فاصبحت الولايات المتحدة بذلك الحامية الرئيسية لليهود في فلسطين .

(١٣) كان نفوذ اليهود والدونمة (فرقة من يهود سالونيك اعتنقوا الاسلام ظاهريا) قويا في جمعية الاتحاد والترقي . وقد لعبوا دورا هاما في الانقلاب العثماني ١٩٠٨ ، واحتل بعضهم مراكز ذات نفوذ في الدولة ، ومنهم جاويد بك وزير المالية (دونمة من سالونيك) وقره‌صو (المحامي اليهودي الذي كان مع الوفد الذي أبلغ السلطان عبد الحميد خبر خلعه .
Arab Bulletin 26. 9. 1916.

(14) F. O. 882/26 Arab Bulletin.

(١٥) من تقرير أرونسون الى المكتب العربي في مطلع ١٩١٧ .
F. O. 882/14.pa /17/14. Arab Bureau Papers.
وكذلك من مذكرة ادجار سوارس (من يهود مصر) الى السلطات البريطانية في القاهرة في ١٩١٦/١٠/١٩ .
F. O. 882/14 pa 16/1 Arab Bureau Papers.

(16) F. O. 882 / 14. pa / 17 / 6 Arab Bureau Papers.

(17) **Zionism and the Jewish Future,** ed. ted by Sacher H., London, 1916.

(18) F. O. 882/14. Pa /17/ 14 Arab Bureau Papers.

(19) F. O. 882 / 26 vol. 11. No. 39.
مقال « المستعمرات اليهودية في فلسطين » ص ٣٠ وما يليها .

(20) F. O. 882 / 14 Arab Bureau Papers.

(21) F. O. 882 / 26 Arab Bulletin.
وأيضا :
F. O. 882 / 14 . Pa 17 / 2 Arab Bureau Papers.

(22) F. O. 882 / 14 . Pa 16 / 15 Aarb Bureau Papers.

(23) F. O. 882 / 14 . Pa / 17 / 2 Arab Bureau Papers.

(24) F. O. 882 / 14 . Pa / 17 / 6 Arab Bureau Papers.

(٢٥) وصل مارك سايكس الى القاهرة في نيسان / ابريل ١٩١٧ ممثلا لبريطانية في البعثة الانجليزية الفرنسية التي ألحقت بالقائد العام للقوات البريطانية في مصر . وكان من مهامها دراسة الوضع في المشرق العربي وضمان قبول الزعامة العربية للخطط البريطانية في المنطقة العربية .

(26) F. O. 371 / 3053 / 162458 / 84173.

(٢٧) جورج أنطونيوس ، يقظة العرب ، لندن ١٩٣٩ (مترجم) بيروت ١٩٨٠ ، طبعة سادسة ، ص ٣٥٣ ـ ٣٥٤ ، ٣٧٥ وفيه تفاصيل ردود الفعل العربية لاتفاقية سايكس بيكو وتصريح بلفور .

(28) F. O. 371 / 3054 / 225623 / 86526..

(29) F. O. 371 / 3398 / 27647.

من برقية كلايتون الى وزارة الخارجية في ١٩١٨/١٢/١ .

(30) F. O.. 371 / 3054 / 235780.

(31) F. O. 371 / 3054 / 235200 / 84173.

(٣٢) برقية كلايتون الى الخارجية في ١٩١٧/١٢/١٤ الوثيقة السابقة .

F. O. 371 / 3054 / 235780.

(٣٤) من برقية وينجيت (المندوب السامي البريطاني في مصر) الى الخارجية .

F. O. 371 / 3054 / 245810.

(٣٥) هذه الصيغة هي خلفية ما يعرف برسالة هوغارت الى الحسين . وكانت التعليمات الموجهة الى هوغارت هي ابلاغ الحسين رسالة شفوية ، الا أن الاخير دونها ، واطلع عليها انطونيوس فيما بعد . ولم تنشر الحكومة البريطانية وقائع ما دار بين هوغارت والحسين حتى كان مؤتمر المائدة المستديرة (سان جيمس) حول قضية فلسطين في لندن ١٩٣٩ ، حيث نشرت مع تقرير اللجنة الخاصة التي كلفت ببحث مراسلات الحسين مكماهون :

Cmd. 5957 , Mis . No. 3, 1939.

وأيضا جورج انطونيوس ، المصدر السابق ، ص ٣٧٥ ـ ٣٧٦ .

(٣٦) تشير الرسالة في آخرها الى « عدم ضرورة نشر أي شيء منها في الصحف نظرا لما ينتج عنها من ضرر » .

(37) F. O. 371 / 3388 / 14557.

(38) F. O. 371 / 3388 / 14557 / 2070.

(39) F. O. 371 / 3388 / 14557.

(٤٠) جاء في المقطم ١٩١٨/٤/١٠ نقلا عن المجلة الصهيونية في القاهرة أن أعضاء البعثة الصهيونية ، بالاضافة الى وايزمان رئيسها ، هم « جوزيف كوين من أعضاء مجلس ادارة الشركة اليهودية للاستعمار ومجلس شركة انجلو فلسطين وكان من أكبر أعوان هرزل ، وليون سيمون من موظفي الحكومة البريطانية ومن المختصين بقضايا التعليم العبراني ، واسرائيل سيف وكيل رئاسة

المؤتمر الصهيوني في انجلترا وعالم في قضايا جغرافية واقتصاد فلسطين ، سلفان ليفي استاذ اللغة السنسكريتية في كلية فرنسا ، والدكتور ادر مندوب جمعية الاراضي اليهودية . وكان الماجور أورمسبي غور يصحب اللجنة كممثل للحكومة يساعده الكابتن جيمس روتشلد ابن البارون ادموند روتشلد » .

(41) F. O. 882 / 27 Arab Bulletin.

(42) Arab Bulletin 27. 3. 1918 , p. 91

وايضـا : Arab Bulletin 7. 4. 1918, p. 92.

وأيضا رسالة هوغارث في ١٩١٨/٤/٢

F. O. 882 / 14 Pa / 18 / 5 Arab Bureau Papers.

(٤٣) من تقرير أورمسبي غور ضابط الارتباط البريطاني المرافق للبعثة الى بلفور في ١٩١٨/٤/١٩ .

F. O. 371 / 3395 / 11053.

(44) Arab Bulletin , 30 . 4 . 1918.

(٤٥) كان رونالد ستورز قد عين حاكما عسكريا على القدس في ١٩١٧/١٢/٢٨ ، وتربطه باليهود صلات وثيقة منذ أن كان السكرتير الشرقي في دار المندوب السامي (المعتمدية سابقا) حتى ان الاحتفال بتعيينه حاكما عسكريا في القدس جرى في كنيس الاسكندرية . مع ذلك فقد أصبح ستورز موضع اتهام وايزمان بحجة عدم مسايرته الاهداف الصهيونية التي يتضمنها تصريح بلفور ، أي مع الوسائل التي يمكن بها تنفيذ الوطن القومي اليهودي .

Storrs, R. , Orientations , London. 1937, p. 379.

(46) F. O. 371 / 3398 / 92392.

(47) F. O. 371 / 3395 / 98470 / 11053.

(48) Arab Bulletin. 4. 6. 1918.

(٤٩) سعت الزعامة السورية في القاهرة الى التأكد من نوايا بريطانية في المستقبل بالنسبة للمنطقة العربية ، فتقدم سبعة من أعضاء الجمعيات العربية السياسية في القاهرة بمذكرة الى وزارة الخارجية عبر المكتب العربي . وكان جواب الخارجية الى السبعة في مذكرة عرفت باسم التصريح الى السبعة في ١٦ حزيران / يونيو ١٩١٨، سلمها لهم وارلوند أحد أعضاء المكتب العربي وفي التصريح عبارات غامضة عن سياسة الحكومة البريطانية تجاه البلاد العربية الداخلة في الحدود المرسومة لمراسلات الحسين مكماهون : الاعتراف باستقلال المناطق العربية التي كانت حرة ومستقلة قبل الحرب او التي حررها العرب بانفسهم ، أما المناطق التي لا تزال تحت حكم الاتراك او التي استولى عليها الحلفاء فالتصريح ينص على أن سكانها سيفوزون بحريتهم واستقلالهم وسيكون نظام الحكم فيها مبنيا على رضى المحكومين :

Cmd. 5964 , 1939.

وايضا : أنطونيوس ، ص ٣٧٨ ـ ٣/١٢ .

(50) F. O. 371 / 3395 / 125475 / 11053.

(51) F. O. 371 / 3395 / 130342.

(52) F. O. 731 /3395.

(53) F. O. 371 / 3381 / 123868 / 1467.

(54) F. O. 882 / 14. pa 18/14 Aarb Bureau papers.

(٥٥) جاء هذا الخبر في وقائع الاجتماع السابع عشر للبعثة الصهيونية ٢٩ حزيران / يونيو ١٩١٨ وأرسلت نسخة منها الى الخارجية قبل ان ترفع الى مكتب المنظمة الصهيونية في لندن .
F. O. 371 / 3395 / 137853.

(56) F. O. 882 / 14 Arab Bureau papers.

(57) Arab Bulletin 4. 6. 1918.

(58) F. O. 882 / 14 . pa 18 / 10 ArabBureau papers.

(٥٩) الوثيقة السابقة .

(٦٠) من برقية كلايتون الى الخارجية في ١٩١٨/٦/١٢ .
F. O. 371 / 3398 / 105824 / 27647.

وكذلك رسالة كلايتون الى الخارجية في ١٩١٨/٦/١٦ .
F. O. 371 / 3395 / 105824 / 27647.

(٦٢) نقل الاقتراح وينجيت (المندوب السامي) في رسالته الى بلفور ٢٥ تموز / يوليو ١٩١٨ .
F. O. 371 / 3381 / 123868 / 146.

(٦٣) جاء ذلك في تعليق سايكس على رسالة وينجيت . وقد رفع سايكس فحوي التعليق في مذكرة الى « اللجنة الشرقية » المختصة ببحث شؤون المشرق العربي وكانت تتبع مجلس الوزراء مباشرة.
F. O. 371 / 3381 / 123868.

(٦٤) كانت السلطات العسكرية البريطانية في مصر تشرف على اصدار جريدة فلسطين (النسخة العربية من Palestine News) ، وكذلك على جريدة الكوكب ، للقيام بمهمة الدعاية لبريطانية .

(65) F. O. 371 / 3409 / 137855.
وردت خلاصة الكلمات الخطابية في Arab Bulletin 16. 7. 1918

(66) F. O. 882 / 14 Arab Bureau Papers.

(67) F. O. 371 / 3381 / 146256.

(68)F. O. 882 / 14 Arab Bureau Papers.

ويضيف رئيس التحرير ـ محمد القلقيلي ـ الى أن تقريره ينبع من ولائه للحكومة البريطانية وللقضية المشتركة ، وان سوء الفهم لو ترك دون تصحيح قد لا يؤذي سمعة بريطانية وحدها بل يكون مدمرا للحركة العربية أيضا .

(69) F. O. 371 / 3395 / 167915

(70) F. O. 371 / 3395 / 177513

مِنْ وَثائِقِ التّاريخِ الاجْتِماعِيّ لِلْقُطْرِ العِراقي
شهادة عيانٍ على فواجع الحربِ العالميّةِ الأولى

د . عبدالنّبي اصطيف

جامعــة دمشــق

مقدمـــة :

تشير دايانا وود ـ غريم جونز الى ان « التاريـخ كما يمكن ان يلاحظ الباحث بتملل ، هو ورق في مجمله ... والسجلات الرسمية بمن قال ، وما قال ، ومتـى ، ونصوص المعاهدات والقوانين ، ونقاشات البرلمان ، ووقائع جلساته ، أمثلة واضحة عما يمكن أن يسمى بأوراق عامة »(١) .

ولكن ثمة الى جانب هذه الاوراق العامة أوراق أقل عمومية تشـمل مذكرات صانعي قرارات الدولـة بعد لقاءاتهم ومباحثاتهم ، ومسودات المعاهدات والقوانين ، والرسائل الخاصة لاصدقاء هؤلاء الصانعين للقرارات وأسرهم، واليوميات التي ربما حوت آراء مخالفة تمام المخالفة للموقف الرسمي ، وغيرها .

وكتابة التاريخ مهما اختلف الشأن فيها مدينة في نهاية الامر الى نوعية المصادر التي ينهل منها المؤرخ ويعل ، محكومة بها عمقا وشمولا ، لان المصادر التي تستخدم هي التي تساعد على تحديد التوكيدات التـي نموضعها ضمن الكل المعقد للعمليـة

---

(١) انظر ،

Diana Grimwood - Jones, **Guide to Private Papers Collection,** Mansell, London, 1979, P. 37

التاريخية (٢) . من هنا كان هذا الالحاح الدائم والجهد الدائب لاستقصاء المصادر بمختلف أنواعها الشغل الشاغل للمؤرخ الجاد .

وليس ثمة من يماري في أن تاريخ العرب الحديث لا يمكن أن يكتب الكتابة الحقة ما لم يأخذ المؤرخ العربي بعين الاعتبار جميع المصادر المتوفرة عن المنطقة العربية عامها وخاصها ، وما لم يحاول استقصاءها حتى يستوعب الجوانب المختلفة للعملية التاريخية المعقدة . واذا ترافق انبثاق الكيانات العربية القطرية الحديثة مع احتكاك الوطن العربي بالقوى الغربية ومواجهته المتعددة الابعاد لها ، فانه من الاهمية بمكان أن ينظر المؤرخ المعني بدراسة تاريخ المنطقة العربية في وقائع هذه المواجهة كما سجلها كلا الجانبين ، وان لا يكتفي بالعام منها بل يقرنه بالخاص أيضا .

ان المكتبات الاوربية المختلفة تحتفظ بجملة معتبرة من هذه الاوراق الخاصة التي تلقي ضوءا تتفاوت أهميته بتفاوت نوعيتها وحجمها ، ومن الضروري أن يكون الباحث العربي على وعي بها عندما يمارس الكتابة والبحث في تاريخه الحديث وفي مجمل التطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي مر بها وطنه .

وربما كانت المجموعة التي يملكها مركز االشرق الاوسط **Middle East Centre** التابع لكلية سانت أنتوني **St. Antony's College** احدى كليات جامعة أكسفورد المعروفة ، واحدة من أغنى هذه المجموعات وأهمها رغم أنه لم يمض على البدء بجمعها أكثر من ثلاثة عقود .

والواقع أن باحثي الشرق الاوسط مدينون للاستاذ الكبير البرت حوراني وللسيدة اليزابيت مونرو بالبدء بهذه العملية والتي استهدفت جمع الاوراق الخاصة (الرسمية والشخصية) للرعايا البريطانيين ممن عملوا في الشرق الاوسط كممثلين للحكومة البريطانية ، أو في الجيش البريطاني ، أو كان الشرق الاوسط جزءا من اهتماماتهم كرحالة أو رجال أعمال ومصرفيين ، أو كأعضاء في بعثات ارسالية تبشيرية .

ومنذ عام ١٩٦١ والمجموعة تنمو بالتدريج ، اذ أصبحت تضم الان أوراق ما ينوف على ٣٠٠ شخص من بينهم جون فيلبي وجورج أنطونيوس وآخرين . وتغطي الفترة التي تلي عام ١٨٠٠ ، وهي متاحة للباحثين من جامعيين وكتاب وصحفيين من مختلف أنحاء العالم .

---

(٢) انظر ،

Albert Hourani, **the Emergence of the modern Middle East,** University of California Press, 1981, P. 37

ومما يميز المجموعة غنى مادتها المتعلقة بفلسطين خلال فترة الانتداب البريطاني، فهي تضم جميع أوراق المفوضين السامين الذين تعاقبوا على فلسطين ، وجملة صالحة من التقارير والمذكرات واليوميات وتقارير شهود العيان لاشخاص مارسوا مهنا مختلفة ووظائف متنوعة ، تشمل مفوضية المنطقية ، والامن الداخلي ، والصحة والتعليم ، والارساليات التبشيرية .

وكذلك فان ما تحتويه من مواد عن المملكة العربية السعودية وبعض دول الخليج العربي في فترة ما بعد الحرب العالمية الاولى يتمتع بأهمية خاصة . وكذا الشأن فيما يتعلق بسورية ولبنان في العقود الخامس والسادس والتاسع من القرن الماضي ، وفي فترة الحرب العالمية الثانية .

والمجموعة غنية ايضا بالمواد المتعلقة بتاريخ العراق في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الثانية ، وذلك اضافة الى المواد المتعلقة بعدن في الاربعينات والسبعينات من هذا القرن وبمصر بشكل عام في القرنين الاخيرين .

وتضم الاوراق الخاصة المعنية بالقطر العراقي ما يقرب من ثلاثين مجموعة تغطي الفترة ما بين ١٨٤٠ و ١٩٧٠ ، من بينها أوراق السير جون فيلبي وجورج أنطونيوس وهمفري ارنست بومن Humfhrey Ernest Bowman (١٨٧٦ – ١٩٦٥) الشيقة والهامة .

وحتى أبين للقارىء العربي أهمية هذه المواد التي تحتويها هذه المجموعة الخاصة فاني أقدم تحقيقا لاحدى الاوراق التي تمثل شهادة عيان على ما حل بالموصل من مجاعة وبؤس زمن الحرب العالمية الأولى . وقد عثر على هذه الشهادة ضمن أوراق بومن مدير التربية في العراق بين عامي ١٩١٨ و١٩٢٠ .

ولكن من هو **بومن** هذا ؟

ولد السيد بومن في عام ١٨٧٦ ودرس في كلية ايتن Eton بين عامي ١٨٩٢ و ١٨٩٨ ثم في كلية « نيوكوليج » New College في جامعة اكسفورد بين عامي ١٨٩٨ و ١٩٠٠ ، حصل بعدها على اجازة في التاريخ الحديث ، ثم عمل محاضرا في كلية كلم Culham لمادتي التاريخ والأدب الانكلزي بين عامي ١٩٠٢ و١٩٠٣ . وانضم بعد ذلك الى وزارة التعليم في مصر فشغل وظيفة مساعد لمدير المدرسة التوفيقية الثانوية حتى عام ١٩٠٥ عندما اختير محاضرا في دار المعلمين في القاهرة .

وعمل بين عامي ١٩٠٦ و ١٩٠٨ مساعد مفتش للتعليم ثم رقي الى مرتبة مفتش في نهايتها ، واستمر في عمله هذا حتى ١٩١١ .

واعير في عام ١٩١١ الى قسم التربية في الحكومة السودانية ليكون مفتشا للمدارس هناك حتى عام ١٩١٣ عندما عين مديرا للطلبة المصريين في بريطانيا . ولكنه مالبث أن استدعي ليخدم في الجيش البريطاني في المملكة المتحدة وفرنسا والهند والشرق العربي حتى تسريحه برتبة رائد عام ١٩٢٠ . وقد عمل في أثناء ذلك مديرا للتربية في العراق بين عامي ١٩١٨ و ١٩٢٠ وصحب البعثة العربية لنجد والكويت الى انكلترا . هذا وأنفق بومن الفترة الطويلة الممتدة بين عام تسريحه من الجيش وعام تقاعده (١٩٢٠ ــ ١٩٣٦) مديرا للتربية في فلسطين عاد بعدها الى وطنه حيث توفي عام ١٩٦٥ .

ومن الجدير بالذكر أن أورافة الخاصة تضم .

ــ مجموعة مراسلاته الخاصة بين عامي ١٩٠٤ و ١٩٠٥ .
ــ مجموعة مراسلاته وأوراقه الرسمية بين عامي ٩١٧ و ٩٢٣ .
ــ مجموعة محاضراته ومقالاته وأحاديثه الاذاعية المعنية بشؤون المنطقة التعليمية بشكل خاص .
ــ يومياته بين عامي ١٩٠٤ و ١٩٣٧ .

كما وتضم مجموعته البوما ضخما للصور يحتوي على أكثر من ٣٠٠ صورة لبغداد والبصرة والموصل ومدارس الحكومة ، والاحداث الرسمية في العراق بين عامي ١٩١٨ و ١٩١٩ . وسلسلة من الصور الجوية للمدن الرئيسية في العراق تعود الى العشرينات من هذا القرن مأخوذة من قبل سلاح الجو الملكي البريطاني .

هذا وتعود شهادة العيان المحققة التي أضعها بين يدي القارىء العربي الى الفترة التي خدم فيها بومن مديرا التربية في العراق . وهي مهداة من السيد خير الدين الفاروقي ، المواطن العربي العراقي ، الذي كان مع علاقة ــ لم أتمكن من معرفة مداها وطبيعتها ــ بالسيد بومن ، وأرادها سجلا لوجه من وجوه فواجع الحرب في منطقة الموصل في القطر العراقي . وقد لفت انتباهي الى وجودها الآنسة جيليان غرانت G. Grant ، قيمة مجموعة الاوراق الخاصة في المركز المذكور ، التي وضعت مشكورة ((أوراقها الخاصة)) تحت تصرفي وسهلت بالتالي كتابة هذه المقدمة التي آمل أن تكون ، وشهادة العيان ، بعض عون لدارسي التاريخ العربي الحديث وخاصة ما اتصل بجوانبه الاجتماعية والتعليمية .

٩

(الظلم لا يدوم وان دام دمر)

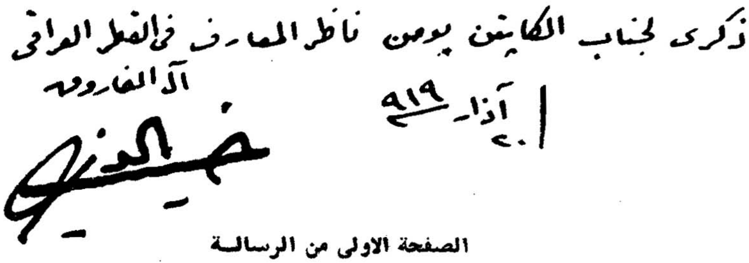
١) جبارت الايام على هذه الامة المظلومة وكمفرع تحت اعباء السنين الخوالي الاربع ولا سيما في السنة الاخيرة للحرب التي ادمت القلوب واجرت العيون عيوناً فسقط الفرد البشري الى دركات الهوان والذل بصورة لم يفصح التاريخ ولم تنظرها عين الحقيقة .

نعم إن الحرب قد ظهرت بمظاهر شتى فان بعض الممالك المحاربة كانت لا تشعر بوجود الحرب الا قليلاً ولكن سكان الحدباء قد رأوا ما رأوه من الاهوال التي شاب لها الطفل الرضيع واسودت لها الوجوه المدنية .

أجل يطول احصاء المصائب والويلات التي أمطرتها سحب الحرب والظلم المتكاثفة على سكان هذه البلدة التعيسة . فلقد كان الخلق من مهاجرين وفقراء وأطفال يأكلون جيف الكلاب والدواب ، ويجمعون الدماء ويجمدونها ويأكلونها . كل ذلك جرى نصب أعيننا ، ونحن متبلهون حائرون ، لا نجد لهذه الفوادح رادا ، ولا لهذا البلاء دواء . اذ كانت المصيبة عامة والدواء ممنوع(١) .

كانت الحكومة مشتغلة بنزع الاسباب الحياتية من أيدي الناس ، فقيرها وغنيها (٢) وذلك باسم اعاشة الجند ، ولكنا كنا نرى ، والقلب ينقطع أسفا . ان (٢) الجيش أيضا بدأ يموت من الجوع في خنادق الحرب ، وكانت الذخائر المغصوبة من
٢) الاهالي تمر على هاوية تسمى « المنزل » و « الانبار » ، وهناك تتلاعب بها أيدي الظلمة ، فيأخذون ما يأخذون ويسرقون ما يسرقون ، حتى أن هذه الحالة ادت الى

الارقام على هامش الصفحة تشير الى ارقام الصفحات الاصلية من الوثيقة


ذكرى لجناب الكابتن بومن ناظر المعارف في القطر العراقي
آل الفاروقي
١ آذار ٩١٩

الصفحة الاولى من الرسالة

اعتراف أولي الامر بوقوع الارتكابات ، والقبض على بعض الاشخاص الذين لهم علاقة بتلك الجنايات ، ولكن المسئلة(٤) كانت لا تصطلح بقتل شخص أو اعتقال غيره ، بل انما كان المصاب قد عم ، وليس من الامكان الوقوف امام تلك الاحوال .

فحينما كان الخلق ملقون على الشوارع والطرق ، يتضرعون جوعا ، كان كبار الامراء يشتغلون بمعاقرة بنت الحان ، والمقامرة طول لياليهم ، غير مكترثين بما يجري من تلك الوقائع المؤلمة . فكنت ترى النساء والاطفال مطروحين على الرصيف مكشوفين (٥) العورة ، يقاسون آلام الموت والجوع والبرد ، وكان ولاة الامور وقوادها يمرون شامخي الرؤوس يتبخترون بملابسهم الذهبية ، وبأيديهم السياط الفضية ، يهزونها كبرا وغرورا ، وكأني بهم يخاطبون المارين من الشوارع ، منكسفين البال ، ناكسين الرؤوس(٥) (هل رأيتم اقتدارنا وهممنا ونتائج أعمالنا ، هلم (٦) فانظروا هذه الاموات ، فانكم أيضا محكومون بذلك ، ولكن الويل لكم ان فهتم ببنت شفة ، فان عقباكم تكون أتعس منهم) .

سبحانك اللهم ! ما هذا الغرور ، ما هذا الجبروت ؟ ان العزة لله جميعا .

نعم ، مضت علينا أيام سود حالكة مميتة مبكية قتالة ، وليس الذي استخلص
٣) حياته من تلك الظلمات الا من أهل السعادة .

كنت أرى من اللازم على كل محرر ، أو كاتب ، أو أديب ، أو شاعر أن يسجل ببنانه ما سطرته يد المظالم على طرس البشرية التعيسة من السطور السوداء ، لتكون موعظة كبرى للأخلاف ، وعبرة لاولي الالباب . لذلك كنت كلما رأيت أو سمعت عن ثقة منظرا مؤلما ، أو حادثا محزنا ، أسطره كذكرى يتناقلها الخلف عن السلف . ولكني كنت أحاذر أن تقع أوراقي المبعثرة بين يدي أولئك الظالمين فتكون علي شاهدا ، ويعود

علي بالبؤس والشقاء . اذ الحق قد بطـل ، والباطل قد حكـم ، واذ كانت النتائج أمامنا ، معلومة لدينا ، كنت أكتب أو لا أبالي ، وأراقب كل ما يقـع .

لم يكن الظلم سائدا فقط ، بـل كان الجنـون ، والعمآء(٧) المبرح أيضـا قـد غشى (٨) على الابصار والبصائر ، فكنت أرى بعض الذين يرأسون الامور لا يفتأون(٩) من أن يحبذوا مسير تلك الادارة ومجريها (١٠) ، فكان كلما سمعوا شيئا مؤلما قالوا : هذا كذب ، لا حقيقة له ، ومن هنا يخطر لي حادثة جرت أمامي وهي :

ان رجلا من مهاجري الاكراد أعطى معروضا قال فيه [ان البلدية قد منعت أكل لحوم الحيوانات المائتة ، ونحن معشر المهاجرين أكثرنا نتقوت بتلك اللحوم فنسترحم أن تأمروا برفع هذه المنوعية ، أو اعطائنا أقواتا غير ذلك] .

فدار المعروض على دوائر شتى ، ذي علاقة ، أو غير علاقة ، ثم جاء لاحدى الدوائر التي هي متكلفة بأرزاق المهاجرين فكتبوا عليه هذا الجواب . ٤

[ان أكل لحوم المائتة من الدواب لا يقبله المنطق والعقل وعلى هذا فان المدعي مجنون أو شبه مجنون ، فيلزم أخذه تحت المشاهدة الطبية] .

فيا ليت شعري ، هل كان صاحب المعروض مجنونا . أم تلك الدائرة ؟

ثم رأيت ذلك المتهم بالجنون متورم الوجه والارجل ، وبعد قليل ، قيـل انـه مات وهذا أمر طبيعي .

تلك مضحكات الدهر ومبكياته . ولم تقف المصائب عند هذا الحد فقط ، بل شاع احدى الايام أن أحد الاشخاص المسمى عبود بن فتحي جاويش(*) ، قد ارتكب أمرا فضيعا (١١) ، الا وهو أكل لحوم البشر ، وعليه أجريت التحريات في بيته ، بعد أن فـر ، والقي القبض على ابنته الصغيرة وامرأته ، فاعترفتا بالجريمة ، ووجد في بئر البيت تسعة رؤوس (١٢) صغار وأحشاء وعظاما كثيرة انسانية ، وقد شاهدت بعيني احدى تلك الرؤوس وقد ربطت بهذه الورقة عكسهم الشمس (١٣) .

فهاجت(١٤) الخلق وماجوا ، واضطربت الانحاء ، فلم يتمكن المرقوم من الفرار بين تلك الامواج المتلاطمة غيظا وحنقا عليه ، فاعتقل مـن طرف البعض من الاهالي .

(*) ان المرقوم من أهالي السليمانية أصلا .

وأتي به الى دار الحكومة ، وحيث أن المرقوم شخص قد تمايز بعمله القبيح على أمثاله من الجناة ، أحببت أن أراه وأكلمه ففعلت . ٥)

فكان المرقوم غير مكترث بما يصب عليه من جامات الغضب ، ووابل الشـتم ، هادىء البال ، ساكن الجأش ، فكان يتكلم ببداهة غريبة ، وكلما بادهته بسؤال ، كان يتكلم بسكينة عجيبة ، ثم يعطي أجوبة مقنعة تشفع له عند مخاطبيه لانه كان يقول :

نعم أنا بنفسي كنت ادور الشوارع وألتقط الاطفال الذينهم(١٥) في حالة الموت ، وائتي (١٦) بهم الى بيتي ، أذبحهم ، ثم آكل لحمهم . فابتدرته بالسؤال الآتي :

ــ أأنت بشـــر ؟

فأجابني متهكما :

ــ كما ترانــي .

فقلت له : اما كنت تتألم من ذبح تلك الاطفال المعصومة ، أو ما كـان ضميرك يواخذك ؟ فقال متضاحكا :

الضمير . يا للعجب ، فان الذي يحس بوخس (١٧) الضمير هو الذي عنده بطن ممتلئة ، وقلب لا يرتجف من الجوع ، وشيء من القوت يأكله . فأسئلكم(١٧) يا سادتي ان كنت أنا مجرما ، فاني لا ارفض الجزاء ، بل اني حاضر لاسـتقبال الحبل الـذي يلتف على عنقي ، ويرفع روحي الى ربي ، كي أتخلص من هذه الروح التعيسة ، ولا أرى وجوها كوجوه أرباب دولتكم الذين أوقعوا البشرية الى هذه الدركة من الذل .

ناشدتكم الله ، لو كنت جئت اليكم قبل هــذا وقلت لكم أني قد أكلت لحـوم الكلاب ولحوم الدواب ، وحفرت القبور ، وأخرجت الجنائز ، وأكلتها جوعا ، ليس جناية على نوعي ، وتوسلت اليكم أن تسعفوني بما يقيتني مع امرأتي وطفلي ما كان يكون جوابكم ؟

كنتم تقولون ان هذا مجنون وتطردوني ، أو تعطوني كسيرات من الخبز مـن فضلات طعام خدامكم . لذلك لم أقبـل ذل سـؤال عظمائكم المنغمسين بالشـهوات ٦) التاركين الخلق في ديجور هذه المظالم ، واقترفت جناية ، لم يفعلها غيري .

اذاً يجب على الحكومة الجائرة أن تفعل ما عليها من الوجائب الظاهرية ، اي تأمر بقتلي قصاصا ، وهذا حق مشروع . ولكني أقول لكم بأن قتلي لا يكون سببا لاصلاح (١٨) ما عبثت به أيدي الجور والظلم . فان اعطاء الجزاء لا يكفي لردع الفضائع (١٩) ، بل يجب على المجازي أن يتحرى عوامل تلك الجرائم وأسبابها ويقمعها كي لا تعود بمثلها . فان جريمتي أكل لحم البشر ، وأما سببها فالجوع ، وسبب الجوع الغلاء ، وسبب الغلاء الظلم ، فان كنتم تريدون خيركم ، فاقمعوا الظلم ، والا فان قتلي لا يسمن ولا يغني من جوع . بل يكون سببا لخلاصي من هذه الحياة المنكودة ، وتلك عندي من أعظم السعادة .

يمكن أن القارىء يظن أن هذا الكلام مختلق ، ولكن ذلك الوحش الضاري قد فاه بهذه المقاصد ، لا حرفيا بل ضمنا ، وكان لسان حاله يصرخ قائلا :

ألا فليمت الظالمون .

وكان الحكم عليه ، وعلى امرأته بالصلب ، فصلبا وهاك صورتهما .

كنت حاضرا حين الصلب ، فلما ارتفعت جثتهما (٢٠) متدليتان (٢١) على الحبل، ارتفع الى عنان السماء هتاف وتصفيق حاد ، اقشعر له بدني فسئلت(٢٢) أحد الواقفين قائلا :

فقال : انهم يهتفون للعدالة ويصفقون لها .

فقلت .

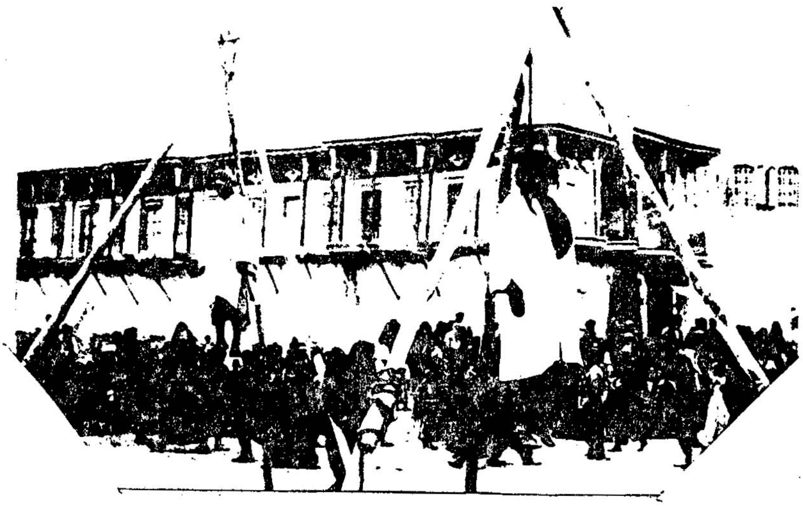
٧ يا هذا ! ان هذه فجيعة بشرية ، ولم أعهد الهتاف يكون للفجائع والمصائب . فان الايام التي تكون فيها الغابات (٢٣) مأكلة للمشانق يكون العدل فوق التابوت . لان المشنقة والعدالة ضدان قلما يجتمعان .

فحدجني بنظرة ، ملئها (٢٤) الازدراء والانفعال وتباعد عني .

فقلت اللهم ! انظر الى هذه البهائم الناطقة المنتشرة في هذا الميدان ، انهم يعززون الفجائع بالهتاف لها ، فكنت أريد أن الاكف التي احمرت بالتصفيق بصلب هذا المنكود وامرأته لا تسقط تحت رأس مطأطأ أمام الظلمة ، بل تذهب وتقبض على أعناق الظالمين وترمي بهم الى الحضيض مثلما ألقوا الناس في حضيض المذلة ، ولكن يا بعد ما أتمناه.

فكنت ترى بذلك الميدان مصلوبين محيط بهما جيش عرمرم من بهائـم الناس وامراء مبتسـمين متضاحكين ، وفوقهم الكابوس الاعظم وهو الظلم والخوف قد أحنى أظهرهـــم .

١٣٣٧ / ١٩١٩ — خير الدين الفاروقي



محمود بن فتحي ياوبتي وامرأته على المشنقة
في ميدان باب الطوب في الموصل في سنة ١٩١٨

هوامش المحقق

(١) كذا في الاصل ، والصحيح « ممنوعا »

(٢) كذا في الاصل ، والصحيح « فقيرهم وغنيهم »

(٣) كذا في الاصل ، والصحيح « أن »

(٤) كذا في الاصل ، والصحيح « مسألة »

(٥) كذا في الاصل ، والصحيح « مكشوفي » و « منكسفي » و « ناكسي »

(٦) كذا في الاصل ، والصحيح « هلموا »

(٧) كذا في الاصل ، والصحيح « والعمى »

(٨) كذا في الاصل ، والصحيح « غشي » دون حرف الجر « على »

(٩) كذا في الاصل ، والصحيح « يفتؤون » لانها تعامل معاملة الهمزة المتوسطة

(١٠) كذا في الاصل ، والصحيح « مجراها » ، والعبارة مجراها ومرساها مقتبسة من القرآن

(١١) كذا في الاصل ، والصحيح « فظيعا » ، وربما كان سبب استبدال الضاد بالظاء ، أن الناس في القطر العراقي يقلبون الضاد ظاء

(١٢) كذا في الاصل ، والصحيح « رؤوس »

(١٣) يقصد صورتها الشمسية

(١٤) كان الاولى به أن يقول « فهاج الخلق وماجوا »

(١٥) كذا في الاصل ، والصحيح « الذين هم »

(١٦) كذا في الاصل ، والصحيح « وآتي »

(١٧) كذا في الاصل ، والصحيح « بوخز » و « فاسألكم »

(١٨) كذا في الاصل ، والصحيح « لاصلاح »

(١٩) كذا في الاصل ، والصحيح « الفظائع » وانظر الهامش رقم « ١١ »

(٢٠ (كذا في الاصل ، والصحيح « جئتناهما »

(٢١) كذا في الاصل ، والصحيح « متدليتين »

(٢٢) كذا في الاصل ، والصحيح « فسألت »

(٢٣) كذا في الاصل ، ولعله يقصد « الغايات »

(٢٤) كذا في الاصل ، والصحيح « ملؤها »

ومن الجدير بالذكر أن الكاتب كان يضع فوق كل الف ممدودة ـ متلوة بهمزة ـ مدة ، متأثراً فيما يبدو بأحكام التجويد المتعلقة بالمد على نحو خاص .